



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة البليدة 02 " على لونييسي "
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية " شعبة التاريخ "



مجتمع القبيلة الهلالية وأثره الاقتصادي في المغرب الإسلامي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه (ل. م. د) في التاريخ الوسيط

تخصص: المجتمع والاقتصاد بالمغرب الإسلامي في العصر الوسيط

إشراف الدكتور:

عبد القادر بوعقادة

إعداد الطالب:

أحمد بن بلخير

السنة الجامعية: 1443-1444 هـ / 2022-2023 م



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة البليدة 02 " على لونيبي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية " شعبة التاريخ "

مجتمع القبيلة الهلالية وأثره الاقتصادي في المغرب الإسلامي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه (ل. م. د) في التاريخ الوسيط

تخصص: المجتمع والاقتصاد بالمغرب الإسلامي في العصر الوسيط

إشراف الدكتور:

عبد القادر بوعقادة

إعداد الطالب:

أحمد بن بلخير

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
الطيب بوسعد	أستاذ	جامعة البليدة 02	رئيسا
عبد القادر بوعقادة	أستاذ محاضر " أ "	جامعة البليدة 02	مشرفا ومقررا
نور الدين غرداوي	أستاذ	جامعة الجزائر 02	ممتحنا
مراد تاجنانت	أستاذ محاضر أ	جامعة البليدة 02	ممتحنا
بلال لعربي	أستاذ محاضر أ	جامعة البليدة 02	ممتحنا
محمد عيساوي	أستاذ	جامعة الجلفة	ممتحنا

السنة الجامعية: 1443-1444هـ / 2022-2023م

الإهداء

... إلى روح أبي وأمي: الذين أرادا رؤيتي زمن النجاح

إلى سندي: زوجتي

إلى إخوتي وأخواتي جميعهم

إلى أبنائي: يعقوب، إسحاق وغيث عبد الرحمان

إلى جميع أصدقائي الذين عرفتهم، وأخص بالذكر ربيعي عبد الصمد - رحمه الله - وأخي الفاضل

السعيد شتيح.

إلى من علمني ورباني في الابتدائي يوم كنتُ غصاً طرياً: شميني علي - شفاه الله - وجباري مصطفى -

رحمة الله عليه - ومعلمتي عطلاوي جميلة حفظها الله

إليكم جميعاً

... أهدي ثمرة عملي وجهدي

الشكر والتقدير

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لا يشكر الله من لا يشكر الناس))

حديث صحيح رواه البخاري في الأدب المفرد وأحمد في المسند

أتقدم بالشكر الجزيل لكل من قدم لي يد المساعدة من قريب أو من بعيد

أشكر مشرفي وأستاذي: عبد القادر بوعقادة على كل النصائح التي قدمها لي للوصول بالبحث إلى هذا المستوى

كما لا أنسى أن أشكر الأستاذ الفاضل: الطاهر بونابي أستاذنا بجامعة المسيلة على ما قدمه من يد المساعدة وكذا

النصائح القيمة المقدمة لنا

وكل التقدير للمدير السابق للمؤسسة العمومية للصحة الجوارية بن سرور السيد: حمدي أسعيد على ما قدمه لي من مدد

يد المساعدة

إلى كل أساتذتي سواء بجامعة المسيلة في مرحلتي الليسانس والماستر، وكذا أساتذتنا بجامعة البليدة 2 - علي لونيبي-

... فشكرا لكم على ما قدّمتموه لنا

الملخص:

يعالج موضوع مجتمع القبيلة الهلالية وأثره الاقتصادي بالمغرب الإسلامي الجانب الاقتصادي للهجرة الهلالية منتصف القرن 11هـ/11م من خلال تأثيرات تلك الهجرة وإسهامات القبيلة الهلالية في اقتصاد المغرب، حيث يلاحظ تدّرج الظاهرة الهلالية وفق مستويات مختلفة بدءاً بممارسة أسلوب الحراية وحياسة المجال الجغرافي، ومروراً بالاستقرار النوعي في ظل حكم الموحدّين، وانتهاءً بعودة القبيلة الهلالية إلى وضع النشاط الحراي.

ولعلّ أهمية الموضوع تكمن في كونه مرحلة وحقة تاريخية مهمة للمغرب الإسلامي والتي سادتها الكثير من التجاذبات وخاصة من طرف المستشرقين الفرنسيين وفق نظرياتهم التاريخية التي تخدم الاستعمار الفرنسي خاصة بالجزائر.

أدّى الوجود الهلالي بالمغرب إلى إحداث تغييرات في نمط الاقتصاد المغربي، ولعلّ ظهور ما يسمّى بنظام الخفارة الذي أحدثته هذه القبائل كنتيجة لحياسة المجال يعتبر أهمّها، مع السيطرة الهلالية الاقتصادية على طرق التجارة، كما أنّ توجّه صنّهاة إلى الساحل وتحوّل الاقتصاد من الداخل نحو الملاحة البحرية ممّا أدّى بصنّهاة للاهتمام بشؤون البحر نتيجة الضغط الهلالي في المناطق الداخلية، واتّسام الاقتصاد المغربي بصفة البداوة - فالتواجد الهلالي صبغ الأنشطة الاقتصادية بصبغة بدويّة نظراً لطبيعة تلك القبائل، مع ملاحظة توجّه الاقتصاد الزراعي نحو نشاطات الرعي نظراً لامتلاك العرب لقطعان الماشية بشكل كبير، أمّا الأنشطة الحرفية فوصلت إلى دورة الاقتصاد البدوي القصوى - يعدّ من مظاهر التواجد الهلالي بالمغرب.

وكشفت الدراسة إلى مدى التأثيرات العميقة للقبيلة الهلالية في شتى المجالات ومنها الاقتصادية، ومدى تعامل النظريات مع حالة البداوة للقبائل الهلالية خصوصاً.

الكلمات المفتاحية:

بنو هلال-الحراية-البداوة-الاقتصاد البدوي-الاستقرار الهلالي-الرعي-الحرف والتجارة.

قائمة المحتويات:

الموضوع	الصفحة
الاهداء	/
الشكر والتقدير	/
الملخص	/
قائمة المحتويات	/
قائمة الجداول	/
قائمة الأشكال	/
مقدمة	35-14
الفصل الأول: الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرنين 04-05هـ/10-11م)	86-36
المبحث الأول: النسيج القبلي والواقع الاقتصادي لبلاد المغرب في ق 04-05هـ/10-11م	47-40
1-كتامة: الدعوة الفاطمية، الفتن، والحروب عوامل استنزاف العصبية	41-40
2-زناتة والصراع الدائم مع صنهاجة	43-41
3-هواره وضريبة المشاركة مع ابن كيداد	45-44
4-بروز صنهاجة كقوة قبلية بالمغرب	47-45
المبحث الثاني: الوضع الاقتصادي للمغرب ق 04-05هـ/10-11م	66-48
1-الضرائب ركيزة السياسة المالية الفاطمية	52-48

54-52	2-قيام الثورات نتيجة التعسف الضريبي-الجور الاقتصادي-
59-55	3-بنو زيري وتنفيذ الوصية الاقتصادية للفاطميين
66-59	4-جغرافية المغرب وتأثيرها في الجانب الاقتصادي
86-67	المبحث الثالث: الهجرة الهلالية نحو المغرب الإسلامي في القرن 11هـ/11م: قراءة في الأسباب والتداعيات
71-68	1-أثر البيئة الحجازية في تكوين الشخصية الهلالية
73-71	2-البعد الاقتصادي للهجرة الهلالية نحو بلاد المغرب
78-73	3-القطيعة بمنظور اقتصادي
81-78	4-برقة، إفريقية والمغرب إقطاعات للعرب الهلالية
86-81	5-النشاط الحرابي للهلاليين وأثره الاقتصادي في المغرب الإسلامي
122-87	الفصل الثاني: الهلاليون والنشاط الاقتصادي ببلاد المغرب
108-88	المبحث الأول: طبيعة الدول القائمة بالمغرب الإسلامي
92-88	1-صنهاجة وسياسة التعاطي مع القبائل الهلالية
98-92	2-الدولة الزيانية وتجارب توطين العرب الهلالية
105-98	3-المرينيون ودورهم في نقض استقرار الهلاليين
108-106	4-الحفصيون وصعوبة التعامل مع القبيلة الهلالية
122-109	المبحث الثاني: صعوبات في طريق الاستقرار الاقتصادي للهلاليين
116-109	1-المشروع الفقهي: شروط تعجيزية وحلول متشددة
122-116	2-الشخصية الخشنة والتكوين الأنثروبولوجي للهلاليين

152-123	الفصل الثالث: الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدء من القرن 12هـ/م
136-125	المبحث الأول: الموحّدون ودورهم في استقرار الهلاليين
128-125	1-حيازة المجال والنشاط الحرابي للقبيلة الهلالية - اقتصاد المغنم-
132-129	2-معركة سطيف 548هـ ومصير القبائل الهلالية
136-132	3-استعمال العرب الهلالية في الجهاد بالأندلس: مورد اقتصادي
152-136	المبحث الثاني: التصوّف والتوبة(الإقلاع عن الحراة) الهلالية
143-139	1-دور المدرسة المدينيّة في توجيه الهلاليين نحو أنشطة اقتصادية
147-143	2-مظاهر الاستقرار الاقتصادي: بناء القصور والرباطات
152-147	3-من الإصلاح الروحي إلى الإصلاح الاقتصادي
193-153	الفصل الرابع: أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة-توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي-
167-155	المبحث الأول: التوجّه نحو النشاط الرعوي
160-155	1-امتلاك قطعان الماشية مدعاة للرعي
167-160	2-الثروة الحيوانية
163-160	2-1-الخيول العربية الأصيلة
164-163	2-2-الإبل مطيّة الرّحل من الصحراء
167-165	2-3-الغنم والماعرز
176-167	المبحث الثاني: ملكية الأراضي الزراعية

169-167	1-العمل على الأرض
171-169	2-تقنيات الري وأساليب استخراج المياه
176-171	3-تقسيم ملكية الأرض بالمغرب
193-176	المبحث الثالث: الزراعات المحدودة
181-179	1-الزراعة بواحات المغرب
186-181	2-البستنة والزراعة في المدن وضواحيها
193-186	3-العرب الهلالية وحقيقة تخريب الثروة الغابية
245-194	الفصل الخامس: اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة
219-196	المبحث الأول: توجه الاقتصاد المغربي نحو الساحل نتيجة ضغط القبائل الهلالية
205-197	1-تخريب القيروان والتوجه الزيري نحو المهديّة
199-197	1-1-حقيقة تخريب القيروان وأثره الاقتصادي
202-200	1-2-الازدهار الاقتصادي للقلعة وأثر دخول الهلاليين
205-202	1-3-الحركة الاقتصادية في العاصمة الجديدة لبني زيري
210-205	2-خراب القلعة ونشأة حاضرة بجاية
219-211	3-نشاط حركة الساحل بإفريقية
214-211	3-1-استقلال مدينة تونس
219-214	3-2-بنو جامع الهلاليون بقابس: مساهمة في الصناعة الحربية والبناء والتشييد
245-219	المبحث الثاني: اسهامات العرب الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

223-219	1-نظام الخفارة: آية الشرف الحرابي
235-223	2-عرب المعقل ودورهم التجاري
245-236	3-توجيه النشاط الحرفي نحو الاقتصاد البدوي
241-236	3-1-الحرف المعتمدة على النشاط الرعوي
245-241	3-2-بيوت العرب
252-246	الخاتمة
277-253	قائمة المصادر والمراجع
281-278	قائمة الملاحق
283-282	الملخص باللغة الانجليزية
292-284	الفهارس

قائمة الجداول:

الصفحات	تسمية الجدول	الرقم
62-61	الأوبئة والطواعين بإفريقية والمغرب من خلال البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب	01
66-63	الأوبئة والطواعين والجوائح بمصر من خلال كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا	02

قائمة الأشكال:

الصفحات	تسمية الشكل	الرقم
154	أنماط الرعي بالمغرب الإسلامي	01
225	شكل يوضح بطون قبائل المعقل المنتشرة بالمغرب	02

تعريف المختصرات:

الهجري	هـ
الميلادي	م
الجزء	ج
المجلد	مج
الطبعة	ط
دون تاريخ	د.ت
دون رقم طبعة	د.ط
الصفحة	ص
العدد	ع
توفي	ت

مقدمة

التعريف بالموضوع وأهدافه:

يعدّ موضوع الهجرة الهلالية من المواضيع التي تمّ تناولها كثيراً، ولكن من الزاوية المتعلقة فيما يعرف بالتغريبة في الأمثال والحكم الشعبيّة، والمرتبطة أساساً بالانتقال الجماعي لتلك القبائل العربية من شبه الجزيرة العربية إلى صعيد مصر ومنها إلى بلاد المغرب منتصف القرن 11هـ/11م، التغريبة الهلالية في كثير من الأحيان اتخذت صورة الأسطورة مرتبطة ببعض الحوادث الخرافية والتي لا يزال يتداولها رواة الحكايات الشعبية إلى غاية يومنا هذا، وبالرجوع إلى الروايات التاريخية شهد القرن الخامس الهجري العديد من الهجرات¹، أهمّها الهجرة الهلالية إلى المغرب الإسلامي والتي ترتّبت عنها الكثير من النتائج في المجالات السياسيّة والثقافية والاجتماعية وكذا الاقتصادية، لعلّ هذه الأخيرة أعني النتائج الاقتصادية لم تحظى بالدراسات الكافية، إذ جلّ من تكلم عن الهلاليين ودخولهم بلاد المغرب جعل من تعريب المنطقة أهمّ نتيجة بعد التعريب الذي عرفته المنطقة خلال الفتح الإسلامي الأول في القرن 1هـ/7م، غير أنّ أقلام المستشرقين وخاصة الفرنسيين منهم جعلت من موضوع الهلالية حقلاً واسعاً لآرائهم الاستعمارية القائمة على التفريق بين العرب

1 من هجرات القرن الخامس للهجرة صعود قبائل صنهاجة من الجنوب وتأسيس دولة المرابطين والتي ساهمت في إسقاط الإمارات الإسلامية بالأندلس وهي تعتبر من القبائل البدوية، كذلك السلاجقة بالمشرق وسيطرتهم على دوليب الحكم في عهد الدولة العباسية، كذلك نجد النورمان في صقلية، ولعلّ أهم هذه الهجرات الهجرة الهلالية لما ترتّبت عليها من نتائج في جميع المجالات، ولما أخذت من اهتمام كبير من المؤرّخين والمستشرقين، وإن كانوا نظروا إليها نظرة سوداوية، هذه الهجرات التي اتفقت لكي تكون في القرن الخامس جعلت من أحد المستشرقين يصف هذا القرن بأنّه ميعاد البدو الرّحل.

والبربر¹، يتجلى ذلك حتى في أطاريحهم الأكاديمية²، إذ حاول هؤلاء إصاق تهمة التخريب الذي طال مدن وعمران المغرب بتلك القبائل بوصفها بالهمجية والبعيدة عن الحضارة ومسيباتها، وجعلوا من دخول الهلاليين إلى المغرب نقطة انحطاط الحضارة الإسلامية ووصفوها بالكارثة الهلالية، منطلقين في كثير من آرائهم من أهم مصدر أرخ للعرب الهلالية ألا وهو كتاب ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر³، ولعل هؤلاء لم يفهموا تتبع ابن خلدون للظاهرة الهلالية في مستوياتها المتجددة، فهم قد حكموا على تاريخ الهلالية على أساس مستوى واحد تمّ سحبه على كامل تاريخ تلك القبائل⁴.

1 بالغ المستشرقون في تصوير تلك القبائل العربية وجعلها في صورة قاتمة، جعلوا منها أداة للتخريب ولعلّ هذا كان خدمة للمصالح الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، إذ جلّ هؤلاء كانوا فرنسيين مسقطين بذلك ما حصل في الماضي بما يحصل بدخول فرنسا للجزائر، محاولين التفريق بين العرب والبربر، والبدو والمستقرّين.

2 كتب الفرنسي دوما كتابا سماه "القبائل الكبرى" مركّزا فيه على الاختلاف الكائن بين العرب والبربر، وعلى أنّ العربي إنما هو بدوي غير مستقرّ وعكسه البربري حضري ومستقرّ يعيش في البيت ويمارس حياة الاستقرار باشتغاله بالزراعة، على عكس العربي الذي يتخذ من الخيمة بيتا له، فهو لا يعرف الاستقرار، كما ألّف كتابا آخر أكثر عنصرية في عنوانه سمّاه كتاب بلاد القبائل الشرقية، نجد كذلك العقيد كاريت وكتبه الموسومة بـ: "دراسات عن القبائل" و "وصف وتقسيم الجزائر"، نحى فيه منحى سابقه من التفريق بين العرب والبربر، كذلك شارل أندري جوليان، جورج مارسيه، الهادي روجي إدريس، جورج إيفر.... وغيرهم.

3 لعلّ مقال الأستاذ عبد السلام همّال الموسوم بـ: "هجرة قبائل بني هلال وبني سليم إلى المغرب منتصف القرن 11م/11هـ من خلال كتابات بعض مؤرخي المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية (1830-1962م)"، يعدّ من أهم ما كتب في هذا الباب، إذ عرض أقوال هؤلاء المستشرقين وكتاباتهم الحاقدة على تلك القبائل، حيث ناقش الأستاذ تلك المواقف وردّ عليها. أنظر المقال السابق ضمن أعمال الملتقى الدولي حول: مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس 398-1423هـ / 1007-2007م، جامعة المسيلة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، أيام 9-10-11 أفريل 2007.

4 قرّر ذلك الأستاذ الطاهر بونابي في كثير من مقالاته عن العرب الهلالية، فهو يرى أنّ الذين كتبوا عن الظاهرة الهلالية والتي كان أهمّ مصدر لها ابن خلدون في مقدمته وكذا تاريخه، لم يراع هؤلاء المستويات التي عالج فيها ابن خلدون الظاهرة الهلالية، وإنّما سحبوا بعض الأحكام على جميع مراحل تاريخ تلك القبائل، فوصفوها بالمخرّبة لكلّ أنواع العمران، ولو تتبّعوا تلك المستويات لعلموا أن الظاهرة الهلالية مرّت بمرحلة ممارسة الحراية وحياة=

يأتي موضوع مجتمع القبيلة الهلالية وأثره الاقتصادي بالمغرب الإسلامي لنحاول فيه تبیین وإظهار الأثر الإيجابي للقبائل العربية الهلالية ومدى إسهامها في النشاط الاقتصادي لبلاد المغرب، ونحن إذ لا ننفي مدى تخريب الهلاليين لبعض المدن وأمصار المنطقة، إلا أننا لا نحمل المسؤولية كاملة لها، إذ هناك العديد من الأسباب تضافرت لتظهر تلك القبائل في الصورة التي أراد رسمها المستشرقون، لعل أهم تلك الأسباب نجد سياسة أمراء وحكام صنهاجة بفرعيها الزيري والحمادي التي زادت من حدة هيجان تلك القبائل، كما لا يمكن إهمال عامل مهم متمثل في تأثير البيئة في نفسية أفراد الهلاليين بدءاً بالبيئة الحجازية وكذا صعيد مصر وما عانتها تلك القبائل من عيشها على هامش الحضارة وتسلط الدول كالدولة العباسية وتحالف الهلاليين مع القرامطة ونقل أفرادها إلى الصعيد بمصر.

إنّ الانتقال الجماعي للقبائل الهلالية من مصر نحو المغرب في شكل هجرات قبلية جماعية، والتي غلب عليها مسمى الهلالية، والتي تتضوي تحتها مجموعة كبيرة من القبائل كبني هلال وبني سليم ورياح والأثيج والمعل وغيرها، حملني على أن أبتدئ العنوان بمجتمع القبيلة، إذ ظلّ الهلاليون يعيشون في شكل تجمّعات قبلية طغت فيه روح القبيلة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية داخل ذلك المجتمع، نلاحظ ذلك حتى بعد توطين الكثير من تلك القبائل في المغرب الأقصى في ظلّ حكم الموحّدين، كما أنّ الفترة الزمنية محلّ الدراسة تبدأ من دخول الهلاليين منتصف القرن 11هـ/11م وتنتهي بانتهاء العصر الوسيط، وهي فترة

=المجال، ومن ثمّ عرفت نوعاً من الاستقرار صاحبه ممارستها لبعض الأنشطة الاقتصادية، ثمّ عودة تلك القبائل في مرحلة متأخرة من العصر الوسيط نحو النشاط الحرابي وازدياده، كما لم يبحث هؤلاء عن الأسباب التي حملت العرب الهلالية لممارسة الحاربة وقطع السابلة وإفساد المحاصيل والتخريب.

زمنية طويلة نوعاً ما، يصعب معها تغطية جميع الحوادث المتعلقة بالظاهرة الهلالية في جانبها الاقتصادي.

تعدّ الدراسة التي قام بها الباحث محمد بن ساعو أحدث هذه الدراسات التي تناولت الحضور الهلالي ببلاد المغرب في جانبه الاقتصادي، وإن كانت مُقتصرةً على الرقعة الجغرافية للمغرب الأوسط وفي الفترة الزمنية الممتدة بين القرنين 05-07هـ / 11-13م. ولعلنا في هذا الموضوع نهدف إلى إبراز بعض النقاط المبهمة وكذا إضافة ما يمكن إضافته من خلال التطرّق للظاهرة الهلالية في شقّها الاقتصادي:

أولاً: محاولة التطرّق لموضوع القبيلة بالمغرب الإسلامي، وخاصة في التأثيرات الاقتصادية التي أحدثتها المجتمع القبلي الهلالي، ولعلّ الهجرة الهلالية كان لها الأثر الكبير في الجانب الاقتصادي أولاً والاجتماعي ثانياً وخاصة فيما يتعلّق بتغيير البنية القبليّة لساكنة المغرب ومدى تأثيرها في الجانب الاقتصادي، ويبدو أن الأمر الأكثر صعوبة هو التحكّم في جوانب هذا الموضوع نظراً لكثرة القبائل العربية النازحة إلى المغرب الإسلامي تحت مسمّى العرب الهلالية، كما يعدّ الجانب المعرفي الذي يحيط بذلك المجتمع شحيح جداً ومتفرق في بطون المصادر والكتب.

ثانياً: نظراً للنقص الكبير في الدراسات الأكاديمية حول موضوع العرب الهلالية وتأثيرات الهجرة في الجانب الاقتصادي، يعدّ هذا العمل إضافة نوعيّة في إثراء المكتبة التاريخية.

ثالثاً: محاولة مناقشة آراء المستشرقين وخاصة ذوو النظرة الاستعمارية والذين عملوا بأطاريحهم وأعمالهم الأكاديمية في تبرير وجود الاستعمار الفرنسي بالجزائر خاصة والمغرب

ككل، حيث ألصق هؤلاء صفة التخريب بالعرب، منطلقين من قاعدة " فرّق تسد " التي استعملها المستعمر الفرنسي لإبراز ثنائية العرب - والبربر، ولعلّ ترجمة المقدّمة لابن خلدون من طرف دوسلان تعدّ أحد هذه الوسائل، إذ تمكّن من خلال ترجمته إلى تحريف عدّه الكثير صارخاً، إذ جعل كلمة العرب مرادفة للأعراب.

رابعاً: إبراز دور المنظومة الفقهية في التعامل مع العرب الهلالية وخاصة في أوج ممارسة هذه القبائل للحراية، وهذا ما نتج عنه حيازة المجال بإفريقية والمغرب الأوسط، فيبدو أن المشروع الفقهي بشقّيه المالكي والإباضي صعب نوعاً ما في محاولة احتواء الأفراد الهلاليين والمحاربين ضمن منظومتهم الفقهية، وذلك بوضع شروط شاقة تعيق المحارب الهلالي نحو التوبة، وكذا الحلول المتشددة في حالة وجودها.

خامساً: محاولة معرفة طرق تعامل المدارس الصوفية مع القبيلة الهلالية، وهل استطاعت خلق الصوفية من احتواء أفراد القبائل الهلالية بدءاً بمدرسة أبي مدين الغوث في القرن 12هـ/12م، وانتهاء بخلق الرقص والسماع في القرنين 08-09هـ/14-15م.

سادساً: ما مدى تأثير مجتمع القبيلة الهلالية في المجالات والأنشطة الاقتصادية، كالزراعة، والحرف والصنائع، وهل أسهمت القبائل العربية في الدفع قُدماً بعجلة الاقتصاد المغربي في تلك الفترة، مع مراعاة الرصيد السابق في مجال الحرف والصنائع لأفراد القبائل الهلالية، وهل أثّرت الطبيعة البدويّة للقبائل الهلالية على الأنماط الاقتصادية بالمغرب الإسلامي؟ ومدى مساهمة القبيلة الهلالية في مجال التجارة، خاصة إذا علمنا شبكة

الطرق العالمية التي يزخر بها مجال المغرب الإسلامي والتي تربط المغرب ببلاد السودان (مملكة غانا ومالي)، إذ اشتهرت تلك المسالك بتجارة الذهب والرقيق.

الإشكالية:

انطلاقاً من عنوان الموضوع يبدو واضحاً أنّ الدراسة ستتنصبّ على التأثيرات والإسهامات الإيجابية للحضور الهلالي بإفريقية والمغرب في الجانب الاقتصادي، والتي تمتّ بعد نزوح القبائل العربية الهلالية من مصر إلى المغرب في شكل تجمّعات قبلية، ولعلّ عدم تمكّن القبائل العربية الهلالية من تأسيس كيانات سياسيّة تقوم بالدعاية السياسيّة لها أدّى إلى إظهار تلك القبائل في صورة متوحّشة ومخرّبة لكل أشكال الحضارة خاصة مع النشاط الحرابي الكبير الذي مارسه الهلاليون في بداية الاجتياح لبلاد المغرب، ممّا ساعد أقلام الكثير من المستشرقين التي تبدو أكثر عدوانيّة اتّجاه العرب الهلالية، بوصف هذه الأخيرة بالغارقة في البداوة، والتي تسبّبت بفعل ذلك في التراجع الحضاري للمغرب ومنها اقتصاد المغرب الإسلامي حينئذ، هذه النقاط جعلت من البحث في موضوع العرب الهلالية وتأثيراتهم الاقتصادية أمراً حتمياً.

ومن خلال ذلك تتدرج العديد من التساؤلات الفرعية ضمن الإشكالية العامة، يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

* ما هو الدافع الاقتصادي لهجرة القبائل الهلالية إلى بلاد المغرب؟ وكيف كانت الحالة الاقتصادية للمغرب آنذاك؟ هل أنّ التخريب الذي يتحدّث عنه معظم المستشرقين الذين تكلموا عن العرب الهلالية مسّ جميع مجال المغرب وإفريقية، أم أنّ ذلك كان محصوراً بحيث

جغرافي معيّن؟ وإذا كان التخريب قد طال مدن وحواضر المغرب، هل كان نتيجة للطبيعة البدويّة للقبائل العربية؟ أم أنّ هنالك عوامل أخرى تمّ التغافل عنها ساعدت في تسريع حدّة التخريب لعمران وحضارة إفريقية بالخصوص، والمغرب عموماً؟ وهل لأمرء الدول المغربية دور في هذا التخريب بزيادة حدّة هيجان القبائل الهلالية؟

*هل أنّ الطبيعة البدوية للقبائل الهلالية أثّرت في توجّه العديد من تلك القبائل نحو ممارسة الأنشطة الاقتصادية، وتوجيهها نحو الاقتصاد البدوي، فتحويل الأراضي الزراعية إلى أراضي رعي نظراً لامتلاك الهلاليين لرؤوس ماشية بشكل كبير، جعل ذلك من الاقتصاد رعوي أكثر منه زراعي، وكذلك الحال بالنسبة لمجال الحرف والصنائع، هل تأثّر الاقتصاد المغربي بالطبيعة البدوية لأفراد القبائل الهلالية مما جعله يظهر في صورة الاقتصاد البدوي الذي يعتمد على الأساليب البدائية كالحياسة والخياطة مثلاً؟

*كيف أثّر الحضور الهلالي بالمغرب في العصر الوسيط على مجال التجارة؟ وهل استطاعت القبائل الهلالية بفضل حيازتها لمجال إفريقية والمغرب من السيطرة على طرق التجارة والقوافل التجارية، خاصة المسالك والطرق الدولية آنذاك، مثل الطرق المؤدية نحو بلاد السودان المشهورة بالذهب والعبيد؟

في ظلّ هذا الزخم الكبير من التساؤلات والذي يبيّن التأثير الكبير للعرب الهلالية على الأنشطة الاقتصادية بمختلف أنواعها بالمغرب، يوضّح لنا هذا بعض المعطيات والنتائج في ظل التواجد الهلالي، كما يحتمّ علينا التعرّيج على بعض الموضوعات الهامة والتي تحيط بهذا الموضوع:

- توجّه الاقتصاد المغربي نحو الساحل وخاصة في ظلّ سيادة صنهاجة بفرعيها الزيري والحمّادي، فتغيّر العواصم من الداخل نحو الساحل كان حلاً للهروب من واقع معاش في تلك الفترة بوجود العرب الهلالية وحيازتهم للمجال بشكل رهيب، هذا الانتقال من عاصمة إلى أخرى كان له أثرٌ في تغيير نمط الاقتصاد بالمغرب وأدى إلى الاهتمام بالملاحة البحرية في ساحل البحر المتوسط.

- لا يمكن بحال من الأحوال تجاهل محاولات الهلاليين في مجال الصناعة والتشييد، ولو أنّ الأمر كان بصفة منفصلة، فمثلاً في مدينة قابس التي حكمها بنو جامع الهلاليين تم صناعة أول سفينة هلالية وهو تطوّر في غاية الأهمية، أدى إلى تحرّك أمير صنهاجة بالمهدية خوفاً من إعادة المحاولات الهلالية وامتلاكهم لأسطول بحري ضخم.

- تتبع المستويات في التأريخ للظاهرة الهلالية، بدءاً بممارسة الهلاليين للحراة وحيازة المجال ثم الانكسار في موقعة سطيف 548هـ وبالتالي ممارسة العديد من القبائل لبعض الأنشطة الزراعية، وكذا الاستقرار النوعي التي عرفته العرب الهلالية في ظلّ الموحدّين، هذه مستويات لابدّ للباحث من التأنّي في الحكم على الهلاليين وعدم سحب الأحكام العامة على جميع فترات التأريخ للهلالية.

- التوجّه بالاقتصاد نحو الساحل وترك الداخل للهلاليين، جعل من قضية العلاقات المغربية مع أوروبا أمراً مهماً، كما أنّ ترك المدن الداخلية بيد الهلاليين أدّى إلى دراسة مدى تحكّم العرب الهلالية بمسالك وطرق التجارة بالمغرب الإسلامي.

المنهج المتّبع:

كأيّ بحث فإن المعمول به في مثل هذه المواضيع، يكمن في جمع المادة العلميّة رغم شحّ المادة وتناثرها في بطون الكتب والمصادر، فقد حاولتُ قدر الإمكان أن أوزّع تلك المادة العلمية المجموعة وصقلها في خطة بحث، بحيث أستطيع من خلالها تغطية الفترة الزمنية الطويلة مع محاولة تتبّع واستقراء الظاهرة الهلالية على المستوى الاقتصادي (ولا يخفى مدى صعوبة البحث في موضوع القبيلة أولاً، إضافةً إلى البعد الاقتصادي لمجتمع القبيلة الهلالية وهو ما يعدّ أكثر صعوبة، وخاصة إذا علمنا أن الذين تكلموا عن القبائل الهلالية عدّدوا بطونها وأفخاذها والقبائل المنضوية تحت مسمّى الهلالية وكذا تداخل الأنساب وتفرّع تلك القبائل بحيث يصعب حصرها)، كذلك المنهج التاريخي القائم على قراءة الوثيقة والتثبت من صحتها، بمقارنتها مع بعضها ومح ثَم القيام بتحليل محتواها، مع ممارسة آليات أخرى لتفتيت الموضوع وصياغته صياغة تاريخية مقبولة، بقدر ما تُعنى بالنصّ تُعنى أيضاً بتحليله للوصول إلى نتائج مقبولة في الذهن ومعتبرة في الواقع.

خطة البحث:

بناء على المادة العلمية المجموعة تمّ تقسيم الموضوع إلى مقدّمة وخمسة فصول وخاتمة، وكلّ فصل قسّمته إلى مباحث قصد السيطرة على جوانب مهمّة في الموضوع بعد تفكيكه وتحليل محتواه، ففي **الفصل الأوّل** تناولتُ الواقع الاقتصادي للمغرب في القرن 04 هـ/10م وبداية القرن 05 هـ/11م أي قبل نزوح القبائل العربية الهلالية وذلك من خلال التطرّق لأهم ركيزة في النظام المالي للفاطميين وهي الضرائب، وبموجب ذلك واصل

الزيريون خلفاء الفاطميين في حكم إفريقية والمغرب نفس النظام مما أجهد كاهل ساكنة المغرب، هذا إضافة إلى دراسة ارتباط الفتن والحروب بتدهور حالة الاقتصاد المغربي إذ حاولت تبين ذلك من خلال التطرق لفئة صاحب الحمار والتي كادت تؤدي بالخلافة الفاطمية في القرن 10/هـ 10م، كما أنّ هناك عامل مهم في التأثير في أنماط الاقتصاد المغربي في تلك الفترة تمثل في جغرافية المنطقة، وكتكلمة للواقع الاقتصادي فرض علينا البحث دراسة هذه الحيثية من خلال النسيج القبلي للمغرب تبعاً للواقع الاقتصادي في نفس الفترة، بحيث برزت صنهاجة كقوة قبلية في القرن 10-هـ 10م وشهد انهيار كبريات العصبية القبالية الأخرى، وفي ختام هذا الفصل عالج الجانب الاقتصادي في الهجرة الهلالية من خلال دراسة الدافع الاقتصادي لتتقل القبائل العربية الهلالية من مصر إلى المغرب، ولعلّ ظهير التملك الممنوح من طرف خلفاء مصر للعرب الهلالية وإقطاع هؤلاء لمجال وجغرافية المغرب لتلك القبائل أهم ما تمّ التعرّيج عليه، كما تناولت القطيعة بين خلفاء الفاطميين وبنو زيري الصنهاجيين بمنظور اقتصادي، وبيّنت أهمية النشاط الحرابي للهلاليين وأثر ذلك في اقتصاد المغرب.

أما في الفصل الثاني الموسوم بـ: الهلاليون والنشاط الاقتصادي ببلاد المغرب، فجاء لتبيين أهم المعوّقات في طريق السماح للهلاليين لممارسة الأنشطة الزراعية والحرفية والتجارة، ولعلّ أهمّها سياسات الدول القائمة آنذاك بدءاً بالزيريين والحماديين وبعدها المرينيون والزيانيون والحفصيون، وأخرت الحديث عن الموحدّين في الفصل الذي يليه، نظراً لأنّ القبائل الهلالية في عهدهم شهدت نوعاً من الاستقرار، كما عرّجت في حديثي عن المعوّقات على المشروع الفقهي المالكي والإباضي ومدى الصعوبات التي لاقت الهلاليين، من خلال

الشروط التعجيزية وكذا الحلول المتشددة التي وضعها الفقهاء من أجل احتواء أفراد القبائل العربية، ولا يمكن إهمال عامل آخر يعدّ مهماً في طريق توبة العرب الهلالية، يتعلّق ذلك بالطبيعة البدويّة للهلاليين، فقد أدّت البيئة الجغرافية سواءً في الحجاز أو في صعيد مصر في التكوين النفسي للهلاليين، ممّا جعل أمر التوبة والابتعاد عن أسلوب الحرابة واندماج أفراد تلك القبائل في المنظومة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب أمراً صعباً يحول دون ذلك.

كما خصّصتُ الفصل الثالث للحديث عن مستوى آخر من مستويات التأريخ للظاهرة

الهلالية ألا وهو الاستقرار الذي عرفته تلك القبائل خاصّة بعد انكسارها في معركة سطيف 548هـ/1153م، حيث استطاع الموحّدون بعد هذه الهزيمة من السيطرة على حدّة هيجان تلك القبائل، مستخدمين بعض الأساليب، منها: نقل العديد من القبائل نحو الغرب أي المغرب الأقصى مثل قبائل رياح والجشم، ممّا ساعد الموحّدين في تفكيك عصبية تلك القبائل وإبعادها باتّجاه الغرب عن الثورات التي شهدتها تلك الفترة (بنو غانية وقرقوش الأرمني)، ولعلّ العامل الثاني الذي ساعد على الاستقرار ما كانت تمثّله حلقات الصوفية من ملجأ للهلاليين فراراً من شروط التعجيز التي وضعها الفقهاء، فالمدارس الصوفية وخاصة المدرسة المدينيّة ببجاية والتي كان على رأسها أبي مدين شعيب احتوت الكثير من الطلبة الهلاليين المنحدرين من ذلك المحيط الحرابي، فتخرّج بعض الطلبة الهلاليّون ليصيروا شيوخاً فيما بعد، دليلٌ على ذلك كأبي يعقوب يوسف الدهماني، وكذلك تحوّل هؤلاء الطلبة بفضل تلك الحلق إلى مصلحين، انتقلوا بذلك نقلةً نوعيّة من الإصلاح الروحي إلى الإصلاح الاقتصادي كما فعل سعادة الرياحي بأرض الزّاب.

أما الفصل الرابع فتكلّمْتُ فيه عن الظاهرة الهلالية وتأثيراتها في الجانب الزراعي، وعالجْتُ إشكالية توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي، لعلّ امتلاك العرب الهلاليون لعدد هائل من رؤوس الماشية جعل هذا الأمر حتمياً، إذ أدّى ذلك بالهلاليين للترحال الدائم والمتواصل بحثاً عن أراضي رعيّة جديدة تحتوي على الكأْ لماشيتهم، ممّا أثر على الأراضي الزراعية، كما برز نوع آخر من الزراعات تمثّل في نظام البستنة، هذا النوع ظهر بشكل جيّ نظراً لازدياد ضغط الهلاليين على أحواز المدن وسيطرتهم على البوادي وضواحي المدن، فالبستنة والزراعات داخل المدن والزراعات المحدودة كانت نتيجة لحياة الهلاليين للمجال.

وأخيراً جاء الفصل الخامس لأستكمل فيه الحديث عن تأثيرات العرب الهلالية بالمغرب الإسلامي، في مجالات الحرف والصنائع والتجارة، إذ تطرّقتُ في البداية عن توجّه الاقتصاد نحو الساحل نتيجة الضغط الهلالي، وتناولتُ حقيقة التخريب الذي طال المدن الداخلية مثل القيروان أولاً والقلعة فيما بعد، ممّا أدى بالأمرء الصنهاجيّون لتغيير عواصمهم نحو الساحل كالمهدية وبجاية، كما عرّجتُ إلى تأسيس بعض المدن على الساحل، ومحاولات الهلاليين لإنشاء السفن والتوجّه نحو الملاحة البحريّة، أمّا في المجال التجاري فبعدَ نظام الخفارة من أهم ما جاء به الهلاليّون لتأمين القوافل التجارية، وذلك نظراً لمعرفتهم بمفاوز الصحراء وسيطرتهم على المسالك التجارية وخاصة المؤدّية إلى السودان، ولعلّ قبائل المعقل تعدّ أبرزها، ونظراً لبداوة القبائل الهلالية فقد تحدّثتُ عن طبيعة الحرف والصنائع

والتي حاول الهلاليون مزاولتها من قريب أو بعيد، وخاصة بتوفيرهم للمادة الأولية لبعض تلك الحرف، كالحياكة والخياطة وغيرها.

وختمتُ بحثي بخاتمة تضمّنت بعض النتائج المتوصّل إليها من خلال التطرّق لجوانب مهمّة في هذا الموضوع.

قراءة في المصادر والمراجع:

- المصادر:

* **كتب الجغرافيا والرحلات:** تكمن أهمية هذه المؤلفات في أنّها تحمل العديد من الإشارات الاقتصادية لبلاد المغرب الإسلامي، مع ملاحظة اختلاط المعطيات الجغرافية من قرن إلى القرن الذي يليه، وكذلك نقول بعض الجغرافيين والرحالة على من سبقوهم كالإدريسي مثلا الذي نقل عن المسعودي وغيره، ولهذا وجب التحرّز والحذر من مجرد النقل العشوائي.

* **كتاب فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى**

قسنطينة والزاب: لمؤلفه ابن الحاج النميري (ت768هـ/1366م)، إذ كان مرافقا لأبي عنان في حركته للمغرب الأوسط وإفريقية، هذه الرحلة وإن صوّرها النميري بصورة أقلّ ما يُقال عنها أنّها تُرضي الأمير المريني، إلّا أنّها نقلت لنا صورة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية داخل القبائل العربية الهلالية، والتي عرفت في تلك الفترة استقرارا، تمثّلت مظاهره في بناء القصور والزوايا والأربطة، هذه المظاهر صاحبها ممارسة أفراد القبائل

العربية للزراعات المحدودة حول أماكن استقرارهم، ورغم أن النميري يُحسب على المرينيين إلا أنه لم يُخف إعجابه بتلك القصور وتلك الجنّات المحيطة بها من أشجار النخيل ومختلف الفواكه، يوضح لنا النميري في كتابه مدى تأثير تلك الحملة المرينية على الاستقرار الهلالي، فبعد تهديم تلك القصور وقطع الآلاف من الأشجار ونفي الهلاليين إلى الفقر البعيد، عاد الهالليون بسبب ذلك إلى وضع النشاط الحرابي وازدادت حدة هيجان الهلاليين.

*** الملعب:** للكفيف الزرهوني، وهي عبارة عن قصيدة ألفها صاحبها أثناء مرافقته للحملة العسكرية تحت قيادة الأمير المريني أبي الحسن، وهذا المؤلف يشبه إلى حدّ كبير كتاب فيض العباب من حيث محاولة تنميق وتزيين صورة الحملات العسكرية، فهو يصف الحملة العسكرية هذه بأنها ضد قطاع الطرق من العرب وبفضلها سيتم تأمين طرق الحجيج وكذا القوافل التجارية.

*** نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** لأبي عبد الله محمد بن إدريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي بجزئيه الأول والثاني، هذا الكتاب ألفه صاحبه وانتهى من تأليفه في النصف الأول من القرن 12هـ/12م، حيث ينقل لنا الإدريسي مشاهداته ليبين لنا حالة المغرب وإفريقية وما لحق بها من ضرر جرّاء الدخول الهلالي، يُعطي الإدريسي صورة واضحة لما آلت إليه الجهة الشرقية من المغرب الأوسط وكذا إفريقية نتيجة حيازة الهلاليين لمجال تلك المناطق، إذ أنّ الجهة الغربية من المغرب الأوسط وكذا المغرب الأقصى لم يشهد في تلك الفترة وصول العرب إليه، ويعتبر كتاب النزهة ذو أهمية لا يستغني عليه

الباحث في دراسته للمظاهر الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية في العصر الوسيط، وقد قام المؤلف بإهداء نسخة من كتابه لملك صقلية - روجر الثاني -.

*** رحلة التجاني:** لأبي محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، حيث أفادتنا هذه الرحلة التي قام بها صاحبها بداية القرن 08هـ/14م، في مدى التأثير الكبير الذي خلفه الهالليون في إفريقية من حيث الضرر، كما أنه نقل إلينا صورة من صور الاستقرار الهاللي في إفريقية، مما نتج عنه تشييدهم للزوايا والأربطة والتي عرفت بأنها تأوي عابري السبيل وتحميهم من قطاع الطرق، ونقل لنا بعض أنشطة الزراعة الهاللية حول تلك الزوايا، كما نقل صورة أخرى من التواجد الهاللي فيما يعرف بالتجارب الهاللية السابقة في مجال معرفة الأدوية والأمراض التي تصيب الماشية وكيفية معالجتها.

ولعلّ من المصادر الجغرافية الأخرى نجد كتاب الاستبصار لمؤلف مجهول، وكتاب الرحلة المغربية للعبدي في القرن 08هـ/14م، والذي أطلق أحكاما قاسية، ولعلّه اهتم بالجانب العلمي ومكانة العلم والعلماء بمدن وحواضر المغرب وإفريقية، أمّا ابن بطوطة فلم يشف غليلنا فيما يخص التاريخ للهالليين، فهو لم يهتم كثيرا للتأريخ للمغرب فضلا عن الهالليين، ولعلّ الخوف من قطاع الطرق استولى عليه أثناء اجتيازه للمغرب الأوسط وإفريقية فمنعه ذلك من الإسهاب في وصف تلك المدن والحواضر، وبالتالي عدم نقل الصورة الكاملة لتلك الفترة.

كما لا ننسى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان، ولو أن المؤلف متأخر زمنياً، إذ ألف كتابه في القرن 10هـ/16م، ولكنه نقل صوراً من التجمّعات القبليّة للهلاليين في نهاية العصر الوسيط، وكذا عادات العرب وتقاليدهم.

كتب التاريخ والحواليات:

• **كتاب العبر لابن خلدون (ت808هـ):** ويعتبر أهم مصدر أرّخ للهلاليين، رغم بعده الزمني عن الحوادث الأولى لدخول العرب لبلاد المغرب وإفريقية، كما تعتبر بعض أحكامه قاسية نوعاً ما، ولكن من باب التأريخ للعرب الهلالية فإن مؤلف ابن خلدون تطرّق بشكل واسع لأسماء القبائل والبطون المنضوية تحت مسمّى الهلالية، كما بحث أماكن توزّع تلك القبائل، كما أنّ مؤلفه الآخر أعني المقدمة وهو جزء من تاريخه خصّصه للحديث عن العمران البشري وعن حالة البداوة والحضارة التي تصيب الأمم، وتعتبر مؤلّفات ابن خلدون اعتمادي الأول في بحثي هذا، فهي لم تخلُ من الإشارات الكثيرة فيما يخص ممارسة العرب لبعض الحرف والصنائع، كما أفادنا في علاقة البداوة وتغيير نمط الاقتصاد للدول.

• **كتاب ابن عذاري المراكشي (ت بعد 712هـ/بعد 1312م):** الموسوم بـ

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، إذ حاول في كتابه نقل الحوادث المتعلقة بالمغرب في الفترات المتقدّمة ولو أنّ ذلك كان باقتضاب وهذا ظاهرٌ من عنوان مؤلفه، وقد ساعدنا كتابه في المقارنة بين حالة المغرب ومصر في الفترة من القرن 4هـ/10م وما بعده، كما نقل نصوصاً ونقولاً عن مؤرّخين فُقدت مصنّفاتهم كابن

شرف القيرواني الذي وصف خراب القيروان على يد العرب الهلالية منتصف القرن 11م، ونقل أيضا عن ابن رشيق القيرواني.

• كتب المقرئزي (ت845هـ): ومنها "تعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين

الخلفاء" والكتاب الآخر "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، ورغم التأخر الزمني للمؤلف إلا أنه أفادني في دراسة الحالة الاقتصادية لمصر والجانب الشرقي للعالم الإسلامي، كما بين في كتابه الأوبئة والمجاعات والكوارث الطبيعية وغلاء الأسعار التي ضربت العالم الإسلامي في الفترات المتقدمة، كما أفادني مؤلفاته في مقارنة نصوصه مع نصوص ابن عذاري لإبراز الحالة الاقتصادية للمغرب ومصر في تلك الفترات.

• أما كتاب ابن حماد الصنهاجي " أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم" وكتابي " افتتاح الدعوة" و"المجالس والمسائرات" للقاضي أبي حنيفة النعمان فتقيد الباحث في تغطية فترة الحكم الفاطمي لبلاد المغرب، إذ فرض علينا البحث التطرق لفترة حكم الفاطميين وحالة المغرب الاقتصادية قبيل الهجرة الهلالية.

• كما أن هناك مصادر أخرى أرخت لمصر خاصة كالنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لمؤلفه: جمال الدين ابن تغري بردي، والكامل في التاريخ لابن الأثير، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام لشمس الدين الذهبي.

كتب المناقب والسير:

• ولعل كتابي محمد ابن مرزوق التلمساني " المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن" و" المناقب المرزوقية" كان لهما حصّة الأسد من خلال

المعلومات المستقاة من مؤلفاته، رغم أن كتاب المسند أرّخ لحياة أبي الحسن المريني إلا أنه حمل الكثير من الإشارات الاقتصادية التي قد لا نجدها في كتب أخرى، مثل ذكره بأنّ أبي الحسن كان تؤتى إليه ثياب الصوف من تلمسان المشتهرة بها، كذلك خوف أبي الحسن من مغبة قطع الهالبيين لطريق القوافل التجارية وطريق الحجيج، كما أن كتابه المناقب الذي خصّصه لذكر مناقب أجداده لأمه وأبيه، فقد ذكر كذلك الاجتياح الحفصي لتلمسان (646هـ/1248م) والذي ذهب فيه الكثير من أموال الناس، كما نقل لنا صورا من ممارسة ساكنة تلمسان للحرف والصنائع كالخياطة والنسيج والحياسة وغيرها، كما لا يخلو مؤلفه من إشارات عن العرب الهلالية نظرا لامتلاكهم الماشية وبالتالي توفيرهم للمادة الأولية التي كانت تزوّد أسواق تلمسان بالصوف والشعر والوبر، وساهمت في ديمومة تلك الحرف والصنائع بها.

- المراجع:

لعل أهم مرجع اعتمدتُ عليه في دراسة الظاهرة الهلالية كتاب الطاهر بونابي الموسوم بـ: "مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط" وهو عبارة عن مجموعة من المقالات التي كان قد نشرها المؤلف، وتمّ جمعها في كتاب واحد، ويُعدّ هذا المؤلف ذو أهمية لما تضمّنه من تحليل دقيق فيما يتعلّق بالظاهرة الهلالية واندماجها في المنظومة الاجتماعية للمغرب الإسلامي، كذلك مقاله عن الحرف والحرفيون بالمغرب الأوسط، فقد حاول تتبّع الظاهرة الهلالية وفق مستويات مختلفة وعدم إصدار أحكام عامّة على الهلاليين.

كذلك كُتِبَ بعض المستشرقين ولعلّ أهمّها كتاب جورج مارسيه Georges Marçais "بلاد المغرب وعلاقاتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى" وتلميذه الهادي روجي إدريس ورسالة الدكتوراه الموسومة بـ: "الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10م إلى 12م"، رغم أن كتابيهما لا يخلوان من النبرة الاستعمارية في التفريق بين العرب والبربر، وتحميل العرب الهلالية كل ما آل إليه أمر المغرب من التخريب، ووصف الهجرة الهلالية بأنّها نقطة انحطاط الحضارة الإسلامية بالمغرب، وكذا الكارثة الهلالية، إلّا أنّ مارسيه خصوصاً قام بتحليل جوانب معقّدة من الظاهرة الهلالية في جانبها الاقتصادية.

كما تمّ الاعتماد على العديد من المراجع التي رأينا أنّها تخدم الموضوع، ومنها كتاب الميلي "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" والتي بحث فيه عادات وتقاليد العرب

الهلالين، وكتاب إبراهيم جدلة " دراسات حول تاريخ بعض مدن إفريقية وقبائلها في العصر الوسيط"، ورسالة الدكتوراه للباحثة إلهام حسن دحروج " مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية"، ومؤلف دومينيك فاليريان Dominique Valérian " بجاية ميناء مغربي"، ومحمد حسن في كتابه " المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي"، ولعل رسالة الزميل محمد بن ساعو المقدمة مؤخراً لنيل شهادة الدكتوراه والموسومة بـ "الحضور الهلالي في المغرب الأوسط وأثره في النشاط الزراعي والحرفي والتجاري بين القرنين 05-07 هـ -11-13م" تعدّ الأحدث زمنياً، إذ تطرّق الباحث للحضور الهلالي وتأثيراته الاقتصادية في المجالات المختلفة لاقتصاد المغرب، كالزراعة والحرف والتجارة، إلّا أن الدراسة كانت مقتصرة على حيّز جغرافي محدود تمثّل في مجال المغرب الأوسط، كما أنّ الفترة الزمنية كذلك كانت محدودة أي لمدّة قرنين من الزمن (05-07هـ/11-13م)، إضافة إلى ذلك اعتمدتُ على بعض المراجع باللغة الأجنبية.

الصعوبات:

لعل أهم الصعوبات التي تلقّيناها في بحثي هذا، ندرة المادة العلمية والمتعلّقة بالجانب الاقتصادي للظاهرة الهلالية ومدى تأثير الوجود الهلالي على اقتصاد بلاد المغرب في العصر الوسيط، كما أنّ المدة الزمنية التي تناولها البحث أعاقنتي من حيث تناول الظاهرة الهلالية بالتحليل والدراسة، حتى تتبّع ملامح تأثير الهلالين وخاصة في كتب الجغرافيين كان من الصعب التحكّم بها، نظراً لاختلاط المعطيات الجغرافية، فمثلاً

نجد الإدريسي يتكلم عن بلاد المغرب وهو في الأساس قد نقل نصوصاً عمّن سبقوه، وكذلك الحال بالنسبة للبكري وصاحب الاستبصار وابن سعيد المغربي.

كما أن هناك صعوبة أخرى اعترضتني ألا وهي الوظيفة، إذ أعاقنتني في كثير من الأحيان في التفرّغ للبحث في موضوع الدراسة.

ويعتبر وباء كورونا-كوفيد19- الذي مسّ العالم بأسره عائقاً كبيراً في مواصلة البحث والتفرّغ له، خاصة مع تشديد إجراءات الحجر الصحي التي فُرضت للوقاية منه، هذا ما أثر في الجانب النفسي لي، كما أن أفراد عائلتي مسّهم هذا الوباء (زوجتي خاصة)، ممّا يعني الانقطاع ولو لمّدة زمنية عن البحث العلمي.

الفصل الأول

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية

(القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م)

المبحث الأول: النسيج القبلي والواقع الاقتصادي لبلاد المغرب في القرن 04-05هـ/10-11م

1-كتامة: الدعوة الفاطمية، الفتن والحروب عوامل استنزاف العصبية

2-زنانة والصراع الدائم مع صنهاجة

3-هواره وضريبة المشاركة مع ابن كيداد

4-بروز صنهاجة كقوة قبلية بالمغرب

المبحث الثاني: الوضع الاقتصادي للمغرب ق 04-05هـ/10-11م

1-الضرائب ركيزة السياسة المالية الفاطمية

2-قيام الثورات نتيجة التعسف الضريبي -الجور الاقتصادي-

3-بنو زيري وتنفيذ الوصية الاقتصادية للفاطميين

4-جغرافية المغرب وتأثيرها في الجانب الاقتصادي

المبحث الثالث: الهجرة الهلالية نحو المغرب في القرن 05هـ/11م: قراءة في الأسباب

والتداعيات

1-أثر البيئة الحجازية في تكوين الشخصية الهلالية

2-البعد الاقتصادي للهجرة الهلالية نحو المغرب

3-القطيعة بمنظر اقتصادي

4-برقة، إفريقية والمغرب إقطاعات للعرب الهلالية

5-النشاط الحرابي للهلاليين وأثره الاقتصادي في المغرب الإسلامي

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

الانزياح الكبير للمجموعات القبلية الهلالية من مصر نحو المغرب منتصف القرن 05هـ - 11م تزامن مع هجرات عديدة في الشرق والغرب، ففي الشرق كان دخول السلاجقة وهي قبائل رحل والسيطرة على دواليب الحكم للدولة العباسية أدى إلى نشوب الحروب الصليبية، كما أن الغرب الأندلسي شهد نهاية عصر ملوك الطوائف ودخول قبائل البدو الرحل من جنوب المغرب الأقصى (المرابطين) وإنهاء حكم الإمارات بالأندلس، كذلك حصل في إفريقية دخول الهلاليين بعد الانفصال والقطيعة الحاصلة بين الشيعة بالقاهرة والمعز بإفريقية، كما شهدت صقلية زحف النورمانديين (478هـ)، فهل هذا التزامن محل صدفة أم هناك اتصال بين تلك الحوادث؟

جورج مارسيه يجيبنا عن هذا بقوله " هذه العوامل التي اختارها القدر التاريخي، وفي وقت يبدو مُصادفة، فالقرن 05هـ - 11م هو ميعادهم، والساعة التاريخية للبدو الرحل".

لعلّ السؤال المطروح: لماذا هذه الهجرة الهلالية إلى بلاد المغرب؟ هذا السؤال تندرج تحته العديد من التساؤلات التي لا يمكن تجاهلها لعلّ أهمها:

هل هجرة بني هلال إلى المغرب، كان نتيجة تهجير السلطة بمصر للتخلص من نفقات اقتصادية زائدة، ممّا يعني تعرّض الدولة لانحدار اقتصادي شمل جميع النشاطات الاقتصادية، أم للأمر علاقة بالسياسة والعلاقة المتوترة بين الدولتين (مصر وبني زيري بالمغرب)؟ وما الدافع والإغراءات التي رأت فيها تلك القبائل المخرج من أزمته بمصر؟ هل كانت حالة المغرب الاقتصادية مُغريةً إلى هذا الحدّ حتى تهون في سبيلها هذه التنازلات؟

نحاول في هذا الفصل الإجابة عن بعض التساؤلات الواردة من هنا وهناك، خاصة ما تعلّق بحالة المغرب الاقتصادية خلال القرنين 04 هـ - 10م والنصف الأول من القرن 05هـ - 11م،

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

كما يقودنا البحث إلى نبش موضوع القبيلة بالمغرب الإسلامي في الفترة محلّ الدراسة، إذ أنّ النسيج القبلي وخاصة مع دخول عناصر الوافد الجديد من العرب والتي ملكت المدن والأرياف كان له دور في تبدّل أنماط المعيشة للكثير من القبائل، إذ ظهرت في منتصف القرن 05 هـ / 11م ما يعرف بأسلوب الحاربة، خاصة مع إعطاء خلفاء البلاط الفاطمي الضوء الأخضر للهلاليين بغنيمة كلّ ما يقع في أيديهم وفق ظهير التملك الممنوح لهم، هذا النشاط الحربي كانت له آثار اقتصادية أنية تغيّرت من خلاله الخارطة السياسية وكذا أنماط النشاط الاقتصادي بالمغرب.

لكن قبل التطرق للهجرة الهلالية إلى بلاد المغرب الإسلامي منتصف القرن 05 الهجري ، لابد من معرفة الحالة الاقتصادية للمغرب، إذ من غير المعقول التكلّم عن الخراب الحاصل إثر دخول الجماعات الهلالية دون معرفة الواقع الاقتصادي خلال القرن 04هـ / 10م و النصف الأول من القرن 05هـ - 11م، تشمل الرقعة الجغرافية محلّ الدراسة إفريقية وبلاد المغرب الأوسط ، ذلك أن بلاد برقة وما والاها كانت خالية عند زحف الهلاليين نحو المغرب، كما أثرت الحملات العسكرية الفاطمية على الواقع الاقتصادي للإقليم، إذ أن الهلاليين عند دخولهم لبرقة وجدوها خالية لتشريد المعز بن باديس لأهلها¹، كما أن المغرب الأقصى لم تصلها جحافل الهلاليين إلّا بعد تولّي الموحدّين لزمام حكم المغرب بتوحيده تحت رايتهم.

¹ عبد الفتاح رجب حمد بولبيص: تاريخ برقة في الفترة من القرن 05هـ حتى الربع الأول من القرن 10 هـ، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية العظمى، ط1، 2009، ص62

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

في البداية لابدّ من التطرق إلى النسيج القبلي المُشكّل للبنية الاجتماعية في إفريقية والمغرب، إذ أنّ دخول القبائل الهلالية المؤلّفة من العديد من القبائل المنضوية تحت مسمّى الهلالية وانتشارها ببوادي وضواحي المدن بالمغرب، أدّى إلى وجود تركيبة اجتماعية تشكّلت من القبيل الرئيس وهو القبائل العربية بالإضافة إلى القبائل البربرية، فتغيّرت أو اندثرت بذلك بعض عادات وتقاليد القبائل كما تغيّر نمط معيشة بعض القبائل، وأخذت بعض القبائل عن قبائل أخرى عاداتها وتقاليدها، ممّا كرّس لوضع قبلي كانت له نتائج على الأنشطة الاقتصادية والحياة الاقتصادية لسكان المغرب.

ولاستكمال الصورة أكثر لابد من تتبع النسيج القبلي خلال القرن 04هـ / 10م والنصف الأول من القرن 05هـ / 11م، بحيث شهد القرن 04هـ / 10م انهيار كبريات العصبية القبليّة وبروز صنهاجة كقوة قبليّة عظمى، ونقصد بكبريات القبائل البربريّة: كُتامة، هواره وزناتة، ممّا أتاح لصنهاجة البروز كقوة قبليّة كبرى في المغرب، حمل الفاطميين على استخلافهم في حكم إفريقية والمغرب بعد انتقالهم إلى مصر (362هـ / 973م).

المبحث الأول:النسيج القبلي والواقع الاقتصادي لبلاد المغرب في القرن 04هـ - 10 م**1- كُتامة: الدعوة الفاطمية، الفتن والحروب عوامل استنزاف العصبية**

تعتبر قبيلة كتامة القبيل الذي انتصر للدعوة الفاطمية في المغرب، وكانت تتألف من أعداد كبيرة جعل أبو عبد الله الشيعي لما رافق وفد كتامة إلى الحج يسألهم عن أحوالهم، قال: فإن دهمكم غيركم تجتمعون، قالوا: ما رام ذلك منا أحد قط، قال: ولما؟، قالوا: لكثرة عددنا وامتناع بلدنا، قال: وكم يكون عددكم؟ قالوا: ما أحصى ذلك أحد منا ولا من غيرنا¹، ولكن تلك الأعداد الكبيرة استنزفتها الدعوة الفاطمية في إطار نشر الدعوة، حيث أدت الفتن الداخلية إلى إيقاع القتلى داخل البيت الكتامي نفسه، مثل حروب أبو عبد الله الشيعي مع غشمان ولهيصة² وفتح بن يحيى وأبي جوال ومع من ادّعى المهدية بتنصيبهم للغلمان وتلقيبهم بالمهدي، والحروب الخارجية ممّن كان يهدّد الدعوة كأبي يزيد مخلد، كانت لكُتامة القدر الأكبر في الدفاع عن الدولة الفاطمية، "... والقائم خلال ذلك بالمهدية يُخندق على نفسه ويستنفر كُتامة وصنهاجة للحصار معه"³، وكتصرّف غير مفهوم قام المهدي أول الخلفاء الفاطميون بالمغرب بقتل جميع شيوخ كُتامة ممّن والى أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبو العباس⁴ بعد خوفه من تأليب الناس عليه¹، كما كان من تقكك وضعف

1 أبو حنيفة النعمان التميمي المغربي: افتتاح الدعوة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، د.ط، 2005، ص31.

2 نفسه، ص65.

3 عبد الرحمان ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1968، المجلد 07، ص 30.

4 أبو عبد الله محمد بن علي ابن حمّاد: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت، ص43.

عصبية كُتامة نتيجة رحيلهم إلى مصر طاعةً للعبيديين "وارتحل المعزّ رابع خلفائهم فنزلها) يعني مصر) وارتحل معه كُتامة على قبائلهم، واستقطحت الدولة هناك وهلكوا في ترفها وبذخها"²، ويُفهم من هذا أن الفاطميين عند انتقالهم كان معهم من أفراد الكتاميين العدد الكبير، كما أنهم لم يبقوا بالمغرب إلا القلة من أفرادهم، كما أقرّ ابن خلدون بأنهم ذابوا وهلكوا في ترف وبذخ الدولة بمصر، وأحصى عددهم الشريف الإدريسي (القرن 06هـ/12م) بحوالي أربعة آلاف" وكانوا قبل ذلك عددا كثيرا وقبائل وشعوبا"³، ويشير الطاهر بونابي بأن من فروع كُتامة الباقون في المغرب بني زلدي وزواوة وقبائل سدويكش، فأثر ذلك في وضعها العصبي⁴، كما يضيف ذات الباحث بأن حالة الفقر والقحط التي أحاطت بها جعلتها تعيش انحداراً ديمغرافياً كبيراً⁵.

2-زناة والصراع الدائم مع صنهاجة:

من بين المصادر التي أسهبت في ذكر القبائل البربرية عموماً تاريخ ابن خلدون، ويبدو أن قبيلة زناتة لم تسلم من ضعف العصبية كباقي القبائل الأخرى، ولهذا نجد أن ابن خلدون يعيب على نسابة زناتة رفع نسبهم إلى حمير (وهو من مظاهر ضعف وتفكك العصبية القبليّة)، يقول ابن خلدون: "... وإئما حمل نسابة زناتة على الانتساب في حمير الترفع عن النسب البربري لما يرونهم في هذا العهد خولاً وعبيداً للجباية وعوامل الخراج"⁶، وكما استنزفت قوى كُتامة في سبيل نشر

1 | أبو حنيفة لنعمان: السابق، ص198.

2 | عبد الرحمان بن خلدون: السابق، المجلد06، ص 302.

3 | الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2002، المجلد1، ص270.

4 | الطاهر بونابي: مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، الجزائر، ج8، 2017، ص ص 28-29.

5 | نفسه، ص29.

6 | ابن خلدون، السابق، مجلد 07، ص 06.

الدعوة الفاطمية، كانت زناتة بالمقابل تدفع ثمن تأييدها للخارجي ابن كيداد، يشير بن عميرة بأن الاحتكاك بين الفاطميين وزناتة كان مع بداية قيام دولة العبيديين¹ واستمر بعد ذلك، وهو ما يؤكد ابن خلدون كذلك من أن أمراء وسلاطين الفاطميين تتبعوا القبائل البربرية بالقتل وخاصة زناتة، مثل ما فعله الخليفة المنصور مع بني يفرن بعد ما ظهر من مؤازرتهم لثورة الخارجي²، ويبدو أنهم انصهروا في عادات وتقاليد العرب الوافدين بعد تغلب العرب على ضواحي وأرياف إفريقية والمغرب وحياسة مجاله، إذ يقرر ابن خلدون أنهم لعهد آخذون في شعائر العرب: في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل³...، أيضا استعمالهم في الحروب مثل ما حدث مع فرعي قبيلة زناتة: بني ومانو وبني يلومي، لما أجلى بلكين بن زيري مغراوة وبني يفرن عن المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، استعمال هذين الفرعين في حروبه⁴، بل لما تغلب العرب على مجال المغرب " ... أصاروهم عبيداً وخولاً للجباية"⁵، فانظر إلى الوضع الذي آلت إليه بلاد المغرب بعد دخول الهلاليين، أدى هذا الوضع إلى تغيير الخارطة القبلية وموازين القوى لصالح العرب الهلالية، فبعد أن كانت بلاد المغرب الأوسط خصوصاً تسمى بلاد زناتة، حدث في القرن 10هـ/10م أن دفعت ثمن مواقفها من بعض الثورات، كتأييدها لأبي يزيد (336هـ/947م)، أدى ذلك إلى مطاردة الفاطميين لفروع زناتة وخاصة بعد دخول صنهاجة إلى جانب الخلافة الفاطمية، كما نجد أن زناتة تدفع ثمن مساندتها للأمويين بالأندلس، فيؤدي هذا إلى إزاحتهم نحو الغرب، إذ لم يتوقف بلكين بن زيري عن ملاحقة زناتة بل توغل إلى المغرب الأقصى (369هـ/979م) وأجفلت أمامه ملوك زناتة

1 محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 175.

2 ابن خلدون: السابق، مجلد 07، ص 35.

3 نفسه، ص 07.

4 نفسه، ص 114.

5 ابن خلدون: السابق، مجلد 06، ص 35.

من بني خزر وبني محمد بن صالح وانحازوا جميعاً إلى سبتة، وأجاز محمد بن الخير إلى المنصور بن أبي عامر بالأندلس طلباً للنجدة¹، قال ابن خلدون: " .. إلى أن تلاشوا وأصبحوا في عداد القبائل الغارمة"²، وكذلك استمر الحال مع دولة الموحّدين حيث ضُربت عليهم المغارم والضرائب والعسكرة مع السلطان، وامتهنوا الفلاحة في معاشهم، وهو أكبر مظاهر تفكك عصبية تلك القبيلة.

كرّس الوضع القائم بالمغرب الإسلامي من سيطرة مُطلقة للعرب في القرنين (05 و 06هـ / 11-12م) (في ظلّ دولة الموحّدين) إلى تغيّر الأنشطة الاقتصادية لبعض القبائل البربرية مثل زناتة، فانتحالهم للنشاط الزراعي والفلاح في كسب معاشهم يُعدّ من مظاهر الاستقرار، وترك أساليب أخرى كانت هي الأساس في كسب رزق أفراد بعض القبائل، ولا يمكن سحب هذا الحكم مُطلقاً على فروع زناتة، إذ أنّ بنو يفرن الذين استقرّ من تبقيّ منهم بعد مطاردة الفاطميين وأوليائهم من صنهاجة لهم وتقيلهم بين القيروان وتونس، انتحلوا نشاطاً اقتصادياً تمثّل في الفلاحة، كما أنّ من بطون بني ومانو الزناتيين قبائل بني يالدس المستقرّين قبلة المغرب الأقصى والأوسط اختطوا القصور كما اتخذوا الجنات من النخيل والأعناب³، ومنها توات وتمنطيت، وبعد تملك زناتة للمدن والأمصار صارت تلك القصور لعرب المعقل، وهذا عين الاستقرار والاهتمام بالقصور وبالبستنة حولها، وهو ما يُعدّ تطوّراً ملحوظاً.

1 ابن خلدون: السابق، مجلد 07، ص 59.

2 نفسه، ص ص 48-49.

3 نفسه، ص 118.

3-هواره وضريبة المشاركة مع ابن كيداد:

وتعدّ من أهمّ القبائل بالمغرب عدداً¹، كما نقل الطاهر بونابي عن البكري أن عددهم يصل إلى 60 ألف نسمة²، سكنت بلاد الزاب³ والأوراس وما بين سرت وطرابلس⁴، ويبدو أنّ هواره على كثرة عددها لاقت نفس مصير كُبريات العصبية القبليّة بالمغرب، فقد أدت حملات الفاطميين وبمساعدة صنهاجة بقيادة بلكين بن زيري (341هـ/952م) إلى تشتيت شمل القبيلة بسبب مساندتها لثورة الخارجي أبي يزيد، قال ابن حمّاد في تاريخ ملوك بني عبيد: "... وفرّق جموعهم وشتّتهم فتمزّقوا أيادي سبأ وتبدّدوا في بلاد الزاب وغيرها، ومنهم من وصل إلى بلاد السودان فأقام بها، فما التقى رائح منهم بمبتكر"⁵، ومن مظاهر الضعف لدى هواره إفساح مجالاتها لتحكّم العرب الهلاليّة، فبرقة بعد أن كانت داراً للوآة وهواره وغيرها من البربر، أصبحت مجالات للعرب وطالها التخريب لأمصارها ومعالمها⁶، ومُحي ذكر بعض فروع هواره بعد تعرّضها للإبادة من العبيديين، مثل ما حدث مع بني كهلان على يد الخليفة الفاطمي المنصور⁷، أمّا على الجانب الاقتصادي فقد أدى ضعف عصبية هواره وفروعها إلى استخدامها في مجال التجارة، كما هو الحال لقبيلة مسراتة على كثرة أفرادها تستخدم في التجارة ببلاد مصر والاسكندرية وفي بلاد الجريد من إفريقية، وبأرض

1 أبو العباس احمد القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: ابراهيم الأنباري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط2، 1980، ص 441.

2 الطاهر بونابي: السابق، ص 30.

3 اليعقوبي: البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص 190.

4 نفسه، ص 184.

5 ابن حمّاد: السابق، ص 83.

6 ابن خلدون: السابق، مجلد 06، ص 204.

7 نفسه: ص 287.

السودان¹ إلى عهد ابن خلدون، كما أصبحت هؤارة تحت طاعة العرب، فقد ذكر الإدريسي مدينة السوقية وبها قوم هؤارة من البربر، وهم تحت طاعة العرب، وأهلها يحرقون الشعير على السقي²، وهو ما يؤكّد رضوخ تلك القبائل للواقع من تغلب العرب على مجالات المغرب، فأدّى بها الوضع إلى المسالمة واتخاذ الزراعة مصدراً للتكسّب والعيش، وهو ما يبيّن تبدل نمط الحياة الاقتصادية لدى أفراد القبائل البربرية بالمغرب بعد الهجرة الهلالية، وبلغ أمر هؤارة أكثر من ذلك بمحاولة محاكاة العرب في اللباس والزّي والظعون، حتى أنّهم هجروا لغتهم العجمية إلى اللغة العربية، شأن المغلوب في الاقتداء بغالبه كما يقول ابن خلدون³.

4- بروز صنهاجة كقوة قبلية بالمغرب:

مهّد انهيار كبريات العصبية القبلية بالمغرب في القرن 04 هـ / 10م إلى ظهور صنهاجة كأبرز قبيلة، ممّا جعل الخلافة الفاطمية تعتمد على أمرائها في محاربتهم لزناتة، ولعلّ أول ظهور لصنهاجة على مسرح الأحداث في مغرب الفاطميين، لمّا كمن زيري بن مناد لفضل بن أبي يزيد مخد وأوقع بهم سنة 335هـ/947م⁴، كما أن الخليفة المعزّ آخر خلفاء الدولة الفاطمية لمّا عزم على الانتقال إلى مصر أوعز باستخلاف بلّكين بن زيري على ملك المغرب وإفريقية مع وصيّة قدّمها له⁵، ومما يؤكّد السيطرة الصنهاجية على مجالات المغرب ما كان من الصراع الكبير مع زناتة وإجلاء هذه الأخيرة عن المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى كما ذكرنا سابقاً، حتى أجاز

1 ابن خلدون، العبر، مج 06، ص 290.

2 الإدريسي: السابق، ص 309.

3 ابن خلدون: السابق، مجلد 06، ص 598

4 ابن خلدون: السابق، مجلد 07، ص 34

5 أحمد بن محمد بن أبي بكر، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، مج 1، ص 286.

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

بعض رؤسائها وأمرائها إلى الأندلس طالباً للنجدة، وإنما امتلكت صنهاجة ذلك بقوة عصبيتها وخاصة فرع ثلثاتة التي كان يمثل القوة العصبية لصنهاجة، ولعلّ من مظاهر السيطرة استعمال القبائل البربرية الأخرى في حروبها كما حدث لقبيلتي بني ومانو وبني يلومي الزناتيتين¹، أما من الناحية الاقتصادية فيشير الطاهر بونابي أن عصبية صنهاجة في القرن 04هـ/10م مكنتها من السيطرة على مسالك التجارة بالمغرب وتأمين حركة القوافل التجارية في الداخل، كما سيطرت على مسالك تجارة الذهب والرقيق من بلاد السودان إلى إفريقية²، ممّا أدى إلى إنشاء بعض المدن، ولكن بداية من النصف الثاني من القرن 05هـ/11م تراجع دور صنهاجة نتيجة عدة عوامل، ومن أهمها دخول العرب الهلالية الذين سيطروا على البوادي والأرياف فانحصر ملك صنهاجة في المدن³، وبالتالي سيطرت تلك القبائل العربية على مسالك التجارة وأصبحت الجباية وظيفية للهلاليين نظراً لاعتماد الحمّادين عليهم، كما نتج عن سيطرة العرب على طرق التجارة الداخلية انتقال النشاط الاقتصادي نحو البحر⁴، وهو ما أدّى بالناصر بن علناس فيما بعد إلى الانتقال نحو الساحل واتخاذ مدينة بجاية عاصمة لدولته (461هـ/1069م) لعجزه عن التصدي للقبائل الهلالية، لعلنا سنتوسّع في ذكر نتائجها في المباحث اللاحقة، ومن مظاهر فساد العصبية لدى قبيلة صنهاجة اتخاذ الممالك، فقد ذكر ابن حمّاد أنّ بني حمّاد في المغرب الأوسط بنوا قلعة بالمكان المسمّى غديروان وهي على بُعد 15 ميلاً من القلعة في جهة الشرق، بناها المملوك الرومي

1 ابن خلدون: السابق، مجلد 07، ص 114.

2 الطاهر بونابي: السابق، ص ص 32-33.

3 بن عريب مصطفى: مجتمع المغرب الأوسط: المتغيرات والعلائق من القرن 04 هـ إلى سقوط الموحدين 668 هـ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، 2016-2017، ص ص 102-103.

4 جورج مارسية: بلاد المغرب وعلاقاتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة: محمود عبد الصمد هيك، مطبعة الانتصار لطباعة الأوفست، الإسكندرية، 1991، ص ص 245-246.

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

بونياس¹، كما ساهم أمراء صنهاجة في هذا الضعف بالتباعد لسياسات لا تتماشى مع الأوضاع القائمة آنذاك، فالمعز بن باديس حاول استخدام العرب كجند له ليتقوى بهم ويستغلظ على بني عمومته من بني حمّاد²، فكانت النتيجة وخيمة على فروع صنهاجة بعد معركتي: حيدران (443هـ/1051م) بالنسبة للزيريين ومعركة سببية (457هـ/1065م) بالنسبة للحمّاديين.

وعلى العموم فإن صنهاجة ظهرت بمظهر القوة في القرن 04هـ/10م بعد انهيار القبائل البربرية الكبرى، فكانوا (صنهاجة) خلفاء للفاطميين وتمكنوا من السيطرة على مجالات المغرب وإفريقية وإجلاء العدو الأكبر زناتة نحو الغرب، ولكن دخول الهلاليين منتصف القرن 05 هـ / 11م كرّس لوضع جديد، ظهرت معالمه بتملك العرب وحياسة المجال فعجزت صنهاجة عن مدافعتهم، قال ابن خلدون: " كما صالحهم الصنهاجيون على خطة تقضي بتملكهم الضواحي دونهم"³، وكان لهذا الحدث العديد من النتائج السياسية والاقتصادية والاجتماعية، أهمها تقلص رقعة الدولة الصنهاجية وانحصارها في المهدية و بجاية، وترك طرق التجارة بأيدي أفراد العرب الهلالية مما أدى إلى ظهور نوع جديد من مصادر تمويل تلك القبائل تمثل في الخفارات، وأصبحت الجباية وظيفة للهلاليين فأنهك ذلك كاهل الناس، مما أفسد العلاقة بين الراعي والرعية، كذلك تبدل عادات وتقاليد الكثير من القبائل البربرية التي أثرت محاكاة العرب في لباسهم وزيّهم وحتى لسانهم العربي.

1 ابن حمّاد: السابق، ص 73.

2 ابن خلدون: السابق، مجلد 06، ص ص 32-33

3 نفسه، ص 42.

المبحث الثاني: الوضع الاقتصادي للمغرب في ق 4-5 هـ / 10-11 م:

لقد كان لقيام دولة الفاطميين بالمغرب (297هـ/910م) وإتباع سياسة اقتصادية أقل ما يُقال عنها أنها أنهكت كاهل النَّاس نتيجة للضرائب المتنوعة المفروضة أثرٌ كبير في الواقع الاقتصادي لبلاد المغرب، يُضاف إلى ذلك الفتن والثورات التي قامت نتيجة للسياسة المالية المتبعة كثرة صاحب الحمار التي كادت تعصف بكيان الفاطميين ووجودهم بالمغرب، هذا أثر في النشاط الزراعي وتقلص المساحات الزراعية نتيجة الضرائب المختلفة، وكذا هلاك المحاصيل وإتلافها بسبب الحروب والثورات وهجران الفلاحين لأراضيهم لعدم تمكّنهم من تسديد ثمن تلك الضرائب.

1-الضرائب ركيزة السياسة المالية الفاطمية:

تعتبر الضرائب من أهمّ الركائز الأساسية للسياسة المالية الاقتصادية للفاطميين¹، إذ استعمل هؤلاء جميع الوسائل لابتزاز الأموال وخاصة في عهد الخليفة الفاطمي الأول، فتتوّعت بذلك المغارم والضرائب وتعدّدت مسمّياتها من قبيل: التقسيط²، التضييع والقبالات والمكوس

¹بوية مجاني: أثر الضرائب في ثوابت ومتغيرات سياسة الخلافة الفاطمية في مرحلتها المغربية، مجلة دراسات تاريخية، العدد 67-68، كانون الثاني 1999، ص130.

² ذكرها الخشني في طبقات علماء إفريقية بلفظ **القسط**، أنظر: محمد بن الحارث الخشني: طبقات علماء إفريقية، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1993، ص42. أمّا ابن عذاري المراكشي فقد ذكرها بلفظ **التقسيت**، وذلك في معرض حديثه على تولية أبا معمر عمران بن أحمد على ضياع إفريقية من طرف عبيد الله المهدي سنة 303هـ، أنظر ابن عذاري: السابق، ج1، ص173. وعرفت الباحثة بلهوارى فاطمة، على أنها " عملية كانت تتمّ على أقساط حسب المحاصيل ومواعيد نضجها، ولهذا عرفت بهذه التسمية"، أنظر: بلهوارى فاطمة: الضرائب الزراعية في بلاد المغرب خلال القرن 04هـ/10م بين الأنواع والممارسات، المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية، المجلد01، العدد02، ديسمبر 2019، جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان، ص226. ولعلّ الدشراوي أتى بتعريف آخر للتقسيت بقوله: هو عبارة عن خراج مقدّر على أساس قاعدة اعتباطية، حيث قدر الدخل السنوي للعشر وجمع الحد الأدنى والحد الأقصى، ثم وظّف على كلّ ضيعة نصف الحاصل. أنظر: فرحات الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1994،

المفروضة على المبادلات التجارية¹، فقبل قيام الخلافة اتبع أبو عبد الله الشيعي الداعي ببلاد المغرب سياسة جمع الأموال وجبايتها، ففرض على أنصاره من كتامة ضريبة دينار الهجرة ودرهم الفطرة، توخى الحذر في جعل تلك الأموال في أيدي الدعاة والمشايخ من كتامة²، وهذا ما يتضح جلياً منذ تولّى المهدي عبيد الله أول الخلفاء لمقاليد السلطة (297هـ - 322هـ / 910م - 934م) فبعد أن آمن الناس في نفوسهم وفرّق الدور على كتامة، وضرب السكة وولّى الولاة على الأقاليم أقرّ أخيراً جباية الأموال³، بل أكثر من ذلك ففي طريقه من سجلماسة بعد تحريره من السجن إلى رقادة وعند إشرافه على بلاد كتامة أمر المهدي بقبض الأموال التي كانت بأيدي الدعاة والشيوخ، هذه الأموال التي قُدرت بالأحمال لكثرتها ممّا أدخل الشكّ في نفوس الدعاة⁴.

أورد ابن عذاري نصاً يدلّ على مكانة المال في دعوة الفاطميين وأنّ كلّ شيء يهون في سبيل تجميعه، فعند استقباله-عبيد الله المهدي- من طرف الفقهاء ووجوه أهل القيروان آمنهم في أنفسهم وذريتهم، فلمّا سأله التّأمين في الأموال أعرض عنهم⁵.

ص492. وهذا بعد أن أحصى صاحب الخراج الجديد وهو عمران بن أحمد الضياع القائمة الذات في البلاد، وعلى هذا فقد يُرادف هذا المعنى مصطلح: التضييع ومصدره من امتلاك الضيعات، وهو ما نبّه عليه نفس الباحث بأنّ التضييع معناه مؤخّر التقسيط، أنظر: الدشراوي: نفسه، ص 493.

¹ راضي دغفوس: دراسات في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2005، ص271.
² الحبيب الجنحاني: السياسة المالية للدولة الفاطمية في المغرب، مجلة الأصالة، العدد 49-50، السنة أكتوبر 1977، ص 51.

³ عبد الله محمد جمال الدين: الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن 04 هـ مع عناية خاصة بالجيش، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 1991، ص ص 48-49.

⁴ الداعي إدريس عماد الدين (ت872 هـ): تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص167.

⁵ ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ج 1، ص 158.

يرى الباحث فرحات الدشراوي بأنّ نظام الجباية في عهد الفاطميين اتّسم بالبساطة في بداية الدعوة، وخاصة في فترة ما قبل عبيد الله، ولكن هذا النظام تطوّر وأصبح أكثر دقّة باعتلاء المهدي لزمام الحكم، فأقرّ العديد من الضرائب التي كانت مهجورة، مثل ضريبة التضييع، والتي على حدّ قول الباحث كانت معروفة في عهد الأغالبة، كذلك شهد عهد المعز الفاطمي كثرة الجبايات نظراً لاتّساع رقعة الدولة وكثرة الأراضي والضّيعات¹.

كما قام أحد قادة الجيش عند فتحه لإحدى المناطق ولم يجد فيها مالاً فتمنى لو لم تُفتح على يده، فاضطره هذا لجمع ما في أيدي جنوده من المال وبعثه للإمام².

لقد حاول الفاطميون إضفاء الصيغة الشرعية على تلك الضرائب والمكوس ممّا أنهك كاهل الساكنة، فتغيّرت نظرة النّاس للخلافة الفاطمية، إذ بعد أن كان الناس ينظرون في المهدي وخلفائه من الأئمة ملاذاً من مآسِيهم وآلامهم الاقتصادية ورأوا فيهم المخرج، سرعان ما تحوّل هذا الاعتقاد إلى العكس من ذلك، فأدى إلى قيام ثورات ظاهرها مذهبي-ديني ولكنّها تحمل في طيّاتها أبعاداً اجتماعية واقتصادية، ممّا جعل التطاول على الخليفة في حدّ ذاته أمراً هيئاً، فتجرّأ البعض إلى تلقيب الغلمان منهم بالمهدي المنتظر بعد أن كانت مكانته ذات هيبة في قلوب الناس³.

ويمكن سحب هذه السياسة الاقتصادية على جميع الخلفاء المتعاقبين على الحكم الفاطمي في مرحلته المغربية، إلا ما كان من بعض الخلفاء من رفع للضرائب والمغارم نتيجة لتطوّرات

1 الدشراوي: السابق، ص ص 490-494.

2 بوبة مجاني، السابق، ص 136.

3 من تلك الثورات القائمة ضد النظام الفاطمي ما كان من بني وماطي حين نصبوا غلاماً وأدّعوا أنّه المهدي، وأنّ أبو عبد الله الشيعي لم يمت، وزعموا أنّ هذا الغلام ينزل عليه الوحي والكتب وجعلوا له من الدعاة، وتمكنوا من الزحف على ميلة ومحاصرتها-الداعي ادريس عماد الدين، المصدر السابق، ص 190.

سياسية ظرفية حتمت عليه فعل ذلك، مثل ما كان من إسقاط الخليفة الفاطمي المنصور ثالث الخلفاء الجبابة سنة 335هـ/946م، بعد قضائه مباشرة على ثورة صاحب الحمار التي دامت حوالي 13 سنة، فأراد بذلك إعانتهم على إعمار البوادي "... ثم إنه لا يؤخذ منهم في إقبال السنين إلا العشر والصدقة، الطعام من الطعام، والشاة من المغنم، والثور من البقر، والبعر من الإبل ..."¹، وهنا إشارة لطيفة في أن المتضرر الأكبر من تلك الضرائب هم أهل البادية الذين هجروا أراضيهم بسبب تلك الثورات التي تسببت فيها تلك السياسة الجائرة.

ويجمل الطاهر بونابي السياسة الاقتصادية للفاطميين قبل مجيء الهلاليين في: توجيه الاقتصاد من قبل الفاطميين، يقول الطاهر بونابي "... وذلك بإطلاق يد عمالها في اقتصاد المدن، وتحكمها في المواد الأولية مثل احتكار تجارة مرجان الخرز، وكذلك أنواع التمور الجيدة بمنطقة الزاب، فقد ذكر عبيد الله البكري أن المهدي كان يأمر عماله في مدينة بسكرة أن يبعثوا إليه نوع تمر يعرف بـ اللياري وهو أبيض أملس فمنع بيعه"²، وما يؤكد تحليل بونابي ما قام به المهدي من فرضه على قوافل الحجيج المرور على طريق المهديّة لدفع المغرم³، وكذا زيادة النشاط الاقتصادي للعاصمة الفاطمية، وهذا من توجيه الدولة للاقتصاد، ولعلّ من أهمّ الأعمال التي صدرت عن الدولة الفاطمية، استيلائها على أهمّ نقطتين لوصول القوافل التجارية من وإلى السودان وبالتالي تدفق مادة الذهب والعبيد وما تدرّه من أموال، نعني بذلك تيهرت وسجلماصة⁴.

1 الداعي ادريس عماد الدين، السابق، ص ص 379-380

2 الطاهر بونابي: السابق، ص 33.

3 ابن عذاري: المصدر السابق، ص 187

4 أندري برنيان، أندري نوشي، ايف لاکوست: الجزائر بين الماضي والحاضر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 102.

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

لعلّ تلك السياسات تبين إلى حدّ كبير مكانة المال في سياسة الفاطميين، فلا يهتمّ الحالة الاقتصادية للعمامة بقدر ما سيجمعه الولاية من أنواع الضرائب، أدّى هذا إلى ظهور حالة اللأمن وعدم الاستقرار وقيام بعض الثورات الداخلية، مثل ما حصل بقيام ثورة صاحب الحمار.

2- قيام الثورات نتيجة التعسف الضريبي - الجور الاقتصادي -

يبدو أنّ من نتائج سياسة أخذ المال من الناس بحجة جباية الدولة لها، التسبّب في ظهور العديد من الثورات التي عصفت باستقرار الأمن في ربوع المغرب الإسلامي، لعلّ أهمها وأشدّها وطأة على الخلافة الفاطمية ثورة صاحب الحمار أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنّي (ت336هـ/947م)، هذه الثورة وإن صوّرتها العديد من المصادر بأنها ثورة مذهبية-دينيّة إلّا أنّها في حقيقتها ثورة ضد الظلم الاقتصادي الذي تعرض له سكان المغرب من خلال الجبايات المتعددة والضرائب والمكوس المتنوعة، فهل حققت هذه الثورة ما صبى إليه ابن كيداد ومن معه وغيره كثير في رفع الجور الاقتصادي أم كانت النتيجة عكسية من تثبيت لتلك المغارم وأصبحت ذات صبغة قانونية ؟

يرى موسى لقبال في مقال له في مجلة الأصالة أنّ ثورة النكارية كانت انتقاماً لحادث سقوط الإمامة الرستمية ذات المرجعية الخارجية، وردّا على الحملات العسكرية القائمة ضد مراكز الإباضية الثقافية في إفريقية¹، فهو بهذا يرى أنّ الثورة كانت ذات طابع مذهبي، لكن يُفهم من كلامه كذلك أنّ فقدان الإباضية لتيهرت هو فقدان أحد أهمّ المراكز التجاريّة في المغرب الأوسط وهو ما حرّز في أنفسهم، كما يستخلص الباحث أنّ من نتائج هذه الحركة إحياء الصراع القديم بين

1 موسى لقبال: المعز لدين الله وجيل من كتامة من خلال وثيقة فاطمية معاصرة، مجلة الأصالة، العدد 29-30، السنة فيفري 1976، ص 22.

البتّر والبرانس، وكنتيجة أخرى لم تستطع هذه الحركة هدم ما بنته عصبية الدولة التاريخية¹، وبالرجوع إلى نصّ أورده صاحب عيون الأخبار نجد سبب خروج أبي يزيد تلك الضرائب والمكوس المفروضة على الناس، في حوار دار بين الخليفة المنصور وابن كيداد بين هذا الأخير سبب خروجه، " فرفع المارق رأسه ثم قال: كان أبو القاسم كريماً حوله قومٌ سوء هجّونه، فقال الإمام: بماذا؟ فسكت، فقال الإمام: لتقولن، قال المارق: هذه القبالات التي فيها الجور على المسلمين، فقمْتُ منكرًا لذلك أريد إصلاح أمور الناس"²، فهذا دليلٌ واضحٌ على الوضع الاقتصادي السائد خلال تلك الفترة، كما أنّ كيداد والد أبي يزيد كان تاجرًا من سكان قسطنطينية يختلف في التجارة إلى بلاد السودان³، كما يشير راضي دغفوس إلى مشاركة فئة التجار في تلك الحركة⁴، ولعلّ قيام ابنه بالثورة كان نتيجة السيطرة الفاطمية على مسالك التجارة حيث وضعت المراسد على جلّ الطرق التجارية فلا تجد تاجرًا يسلم من ضرائب العبور، هذه المعابر كان بها موظفون للسلطة يتولّون جباية الضرائب، وعلى حدّ تعبير بوبة مجاني فإن الدولة وضعت المرصد تلو الآخر لمراقبة حركة القوافل التجارية وجبي الضرائب، بالإضافة إلى المعابر البحرية فكانت تفرض الضريبة على كلّ داخل أو خارج من تلك المراسي، وهذا ما يفسّر دقّة النظام الجبائي للفاطميين والتي سخّرت له كلّ الوسائل لتطبيقه على النحو المرجوّ⁵، ولعل محمد القبلي يضع أصبعه على الجرح من أنّ الخلافة الفاطمية لمّا تمكنت من فرض وجودها بالمنطقة ودخولها في صراع مرير مع الأمويين بالأندلس،

¹ موسى لقبال: السابق، ص 22.

² الداعي ادريس عماد الدين، المصدر السابق، ص ص 446-447. وأورد القاضي النعمان في المجالس والمسائرات نفس السبب في أنّ خروج مخلد كان نتيجة التعسّف في جباية الأموال، أنظر القاضي النعمان بن محمد: المجالس والمسائرات، دار المنتظر، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص 336.

³ ابن حماد: أخبار السابق، ص 53.

⁴ راضي دغفوس: المرجع السابق، ص 272.

⁵ بوبة مجاني: المرجع السابق، ص ص 139-140.

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

إنّما كان من أجل السيطرة على الطرق التجاريّة والرغبة في احتكارها، فاستطاع الفاطميّون بفضل مداخل تلك المعابر والمراسد أن يحقّقوا ما كانوا يصبون إليه من العودة إلى المشرق والسيطرة على مصر وبلاد الشام¹.

عمل أبو يزيد على تخريب مصدر ثراء الفاطميين: فقام بإفساد المحاصيل الزراعيّة بالأوراس وقطع الأشجار وهذا في حدّ ذاته يعدّ خسارة للثروة الزراعيّة والغابيّة، كما أشاع حالة اللأمن ببلاد إفريقية والمغرب الأوسط، وهو ما يعني الحدّ من تنقّل القوافل التجاريّة، وبالتالي ضرب الفاطميين في صميم اقتصادهم المبني على النشاطات السابقة الذكر.

يبدو من خلال ما سبق ذكره أن تلك الثورات وعلى رأسها ثورة أبي يزيد لم تصل إلى نتائج إيجابية فيما يخص إلغاء الضرائب، بل بالعكس من ذلك فقد تثبتت الدولة الفاطمية تلك السياسة المالية الجائرة، بل صارت مكوس وضرائب وقبالات بصيغة قانونية.

يمكن أن نطرح السؤال التالي: هل بقي الوضع على ما هو عليه بعد انتقال الفاطميين نحو مصر وتركهم لخلفائهم من صنهاجة؟ أم أنّ الوضع تغيّر؟

ورد نص وصيّة المعز الفاطمي لبلكين الصنهاجي قبل انتقاله إلى مصر يوصيه بأمر الحكم، إذ يقول: "إن نسيت ما أوصيتك به، فلا تنس ثلاثة أشياء، وذكر منها: إيّاك أن ترفع الجباية عن أهل البادية..."² كما نقل النص صاحب تحفة الأنظار¹.

1 محمد القبلي: مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الرباط، المغرب، ط1، 1987، ص15.

2 ابن خلكان: السابق، ص 286.

3-بنو زيري وتنفيذ الوصية الاقتصادية للفاطميين

إنّ النص الأخير الوارد عند ابن خلكان يدلّ على شيء واحد وهو إتّباع الزيريين لسياسة الفاطميين فيما يخصّ جباية الأموال، وهو ما ذهب إليه الحبيب الجنحاني من أنّ "سياسة جمع الأموال عنوة وبالقوة استمرّت بعد رحيل الفاطميين، ويدلّل على ذلك بأنّ بلكين بعث سنة 367هـ أموالاً جمعت بالقوة من سكان القيروان قدرّت بـ : 400 ألف دينار عينا"²، كما نجد نفس العمل الذي قام به المهدي عبيد الله أول الخلفاء الفاطميين يقوم به بلكين بن زيري، فبعد أن استقر له الأمر بدخوله القيروان هنّأه أهلها أقام بها شهرين ثم بعث العمال والولاة وجباية الأموال إلى جميع البلاد³، كما أنّ عبد الله بن محمد الكاتب صنع بيتاً من حديد وملاه بالأموال وصنع آخر من خشب وملاه أيضاً، وكان ذلك سنة 372هـ/982م، وهذا ما يدلّ على مكانة المال في سياسة الدول القائمة بالمغرب، ولا يهمّ من أي طريق يُجمع، وكان لازماً أن تظهر الثورات والقلقل وحالة اللأمن نتيجة لتلك السياسة، ولعلّ التقتيل الذي طال الشيعة في أوائل المائة الخامسة الهجري بالقيروان كانت كنتيجة حتمية للجور في أخذ الأموال، ذكر راضي دغفوس أن التقتيل طال عناصر أخرى من غير الشيعة، وهو ما يعطي برأيه تلك الحادثة صبغة اجتماعية - اقتصادية، سمّاها جون بونسي' مظهراً لثورة أعمق جذوراً' وسمّاها: " ثورة على الحيف الاقتصادي والجور الاجتماعي"⁴، وكما ذكرنا سالفاً كمثال قيام أبي يزيد الخارجي بثورة ضدّ الفاطميين والتي ظاهرها

¹ محمود مقديش: تحفة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1988، المجلد 1، ص 363.

² الحبيب الجنحاني، المرجع السابق، ص 56.

³ الهادي روجي ادريس: الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10م إلى القرن 12 م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1992، الجزء 1، ص 81.

⁴ راضي دغفوس: المرجع السابق، ص ص 275-276.

الخلاف المذهبي، كذلك تقتيل الشيعة (407هـ/1016م) في ظاهرها مذهبي، ولكن في باطنها تحمل معاني أخرى من اليأس اتجاه الواقع الاقتصادي المعاش، ومما يزيدنا تأكيداً على ذلك ما صاحب هذه الحادثة من إحراق الأسواق ونهب لأموال التجار، وعلى الرغم من ذلك فإن أندري جوليان يرى أن عسف بني زيري في الجباية إنما كان في بدايات الدولة عندما كانت متطلبات القاهرة المالية ثقيلة، كما يرى أن المغرب عرف في عهد بني زيري رخاءً كبيراً ويدل على ذلك بسهولة استخلاص الضرائب، وأنها على ضآلتها كانت كافية لمواجهة مصاريف الدولة¹.

ويبدو أن المعاناة الاقتصادية إنما مسّت الطبقة السفلى من المجتمع الزيري، بدليل أن الطبقة الحاكمة من الأمراء وقواد الجيش كانت تعيش حياة البذخ والترف فتصرف من الأموال المجموعة ما تشاء، فقد أورد ابن الأثير أن المنصور بن بلكين أرسل هدية إلى الخليفة العزيز بالله بمصر قدرّت قيمتها بنحو: ألف ألف دينار²، كما أجرى المنصور لسعيد بن خزون الزناتي بالأرزاق الواسعة، ولمّا توفي سعيد كفته في 70 ثوباً، كما وصل ابنه فلفل بـ 30 حملاً من المال وتختاً من أنواع الكسى وغيرها، أما المعز بن باديس لمّا توفيت جدّته (411هـ/1020م) كفّنها بما قيمته 100 ألف دينار وعمل لها تابوتا من العود الهندي المرصع بالجواهر وصفائح الذهب، وسُمّر التابوت بمسامير الذهب وزنها ألف مثقال، كما نحرت 50 ناقة و 100 رأس من البقر و 1000 شاة فانتهبها الناس، ووزّعت على النساء 10 آلاف دينار³، فانظر إلى الترف والبذخ الذي وصل

1 شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، الدار التونسية للنشر، تونس، تعريب الكتاب عن الطبعة 02، فيفري 1983، ج2، ص 93.

2 عز الدين بن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ج7، ص 415.

3 ابن أبي دينار القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية والأندلس، مطبعة الدولة التونسية، ط1، 1286هـ، ص ص

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

إليه أمراء وحكام بني زيري، ولعلّ في النصّ السابق لفظ "انتهبها" تدلّ على الحالة المزرية للعامة نتيجة الفقر والجوع.

أما بنو حماد بالمغرب الأوسط وبعد انفصالهم عن الزييين وتأسيس القلعة سنة (398هـ/1007م) إلى غاية (441هـ/1049م) فيعتبرها إسماعيل العربي مرحلة تثبيت الحكم وتأسيس الدولة، ويمضي في تقسيمه لفترة حكم الحماديين بالفترة الثانية من: 441هـ إلى غاية: 481هـ استكملت فيها الدولة الحمادية نموّها السياسي، كما شهد المغرب الأوسط فيها ازدهارا من الناحيتين الثقافية والعمرانية¹، وهذا لا يتأتّى إلّا بازدهار الجانب الاقتصادي للدولة، إذ عرفت القلعة في هذه المرحلة أوجّ الازدهار الاقتصادي بعد تسبّب الاضطرابات الحاصلة في القيروان والمدن الزيرية بوصول الهلاليين إليها وتخريبها، أدّى هذا الوضع إلى فرار فئة التجار والطبقة الغنيّة من القيروان والاستقرار في القلعة²، ممّا يعني نقل رؤوس أموال عظيمة انعكست على الحالة الاقتصادية للمغرب الأوسط، مع أن جوليان وصف النازحين إلى القلعة من سكان القيروان بالمفلسين، فهو يُرجع الفضل في تطوّر القلعة الغير المنتظر على حدّ قوله للتجار المشاركة³، أمّا المرحلة الثالثة فتمتد من: 481هـ إلى 558هـ، وأورد ذات الباحث في مقال آخر أن الأنشطة الاقتصادية عرفت انتعاشاً كبيراً في ظل دولة الحماديين ويؤيّد رشيد بورويبة⁴، يبدأها بالزراعة وإنتاج أهم المحاصيل الزراعية كالقمح والشعير والتي تميّزت بها نجود قسنطينة وسهول المسيلة

¹ إسماعيل العربي: سياسة الناصر بن علناس تجاه بلاط المهدية، مجلة الأصالة، العدد 19، السنة: مارس، أفريل 1974، ص ص 19-20.

² أندري برنيان وآخرون: السابق، ص 105.

³ شارل أندري جوليان: السابق، ج 02، ص 93.

⁴ رشيد بورويبة: الدولة الحمادية: تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية-المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1977، ص 129

وسطيف وطبنة، كما يضيف أن إنتاج التمر بأنواعه من بلاد الزاب كان ذو وفرة، ومنها النوعية المسماة اللياري وهو التمر الذي كان المهدي يمنع بيعه، كما تكلم عن القلعة بوصفها المركز التجاري الرئيسي الذي تشد إليه الرحال وتقصده القوافل من مختلف أنحاء العالم الإسلامي¹، على عكس عبد الحليم عويس الذي يرى أن دور القلعة كان الحماية الحربية أكثر منه من الناحية الحضارية، حيث أدت دورها على حسب رأيه إلى غاية سنة 460هـ/1068م بظهور الهلاليين بالمغرب الأوسط وتخريبها²، كما أن حماد لما بنى قلعته نقل إليها ساكنة المسيلة وحمزة ودمر هاتين المدينتين من أساسهما³، فانظر إلى مدى التخريب الذي طال المدن بالمغرب، وهو ما يصاحبه بالتأكيد تخريب مصادر عيش الكثير من الساكنة من محلات وأراضي ومحاصيل وغيرها، حتى وإن قيل أن البديل بالقلعة سيعوّض هؤلاء، وكذلك فعل يوسف بن حماد بمدينة أشير سنة 446هـ/1054م⁴، وآخر أمراء بني حماد يحيى بن العزيز من تخريبه ما بقي من القلعة سنة 543هـ/1148م حين اقتلع ما كان فيها من أدوات الزخرف ونقلها إلى بجاية⁵، ويشير محمد قويسم بأنه مع قيام دولة الحماديين ظهر ما يُعرف باقتصاد البستنة نتيجة تراجع اقتصاد البادية⁶، ربّما نتيجة الجبايات المختلفة المفروضة على أهل البادية، وهو ما أقرّه الطاهر بونابي، إذ يرى أن الحماديين لم يكلفوا العامة أعباء المغارم والمكوس سواء في القلعة بعد نقل ساكنة المسيلة وسوق

¹إسماعيل العربي: العمران والنشاط الاقتصادي في الجزائر في عصر بني حماد، مجلة الأصالة، العدد 19، السنة مارس، أبريل 1974، ص ص 332-349.

²عبد الحليم عويس: دولة بني حماد، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1991، ص 90.

³نفسه، ص 94.

⁴نفسه، ص 88.

⁵نفسه، ص 99.

⁶محمد قويسم: الزراعة في منطقة الأوراس في العصر الوسيط من خلال كتب الرحلة والجغرافيا، دورية كان التاريخية، العدد 21، السنة 06، سبتمبر 2013، ص ص 101-102.

حمزة إليها أو بعد الانتقال إلى بجاية، وإنما ظهر الجور الضريبي بعد تكليف الهلاليين بجباية تلك المغارم¹.

وعلى هذا فلا يمكن الحكم بالازدهار الاقتصادي من عدمه، فهي تتقلب بين مراحل الازدهار والانحدار الاقتصادي وفقا لتأثيرات مختلفة أفرزتها العوامل السياسية، ولكن بنظرة عامة يمكن إعطاء الحكم بتبدل نمط معيشة الناس بالانتقال من البداوة إلى الحضارة، وهنا إشارة قويّة يبينها أندري برنيان وأندري نوشي وإيف لاکوست، من أنّ الازدهار التجاري والزراعي للمدن لا يتأتّى إلّا بتفوّقها السياسي على فلاحي البوادي والأرياف وبالتالي التسلّط عليهم، هذا التفوّق المدعّم بالموقع الاستراتيجي للمدن يضمنان الجباية بشتى صورها العينية والنقدية وهو أساس الازدهار المدني².

وعليه ولكي نعطي صورة دقيقة عن الحالة الاقتصادية للمغرب في الفترة التي سبقت دخول الهلاليين، لابدّ من تسليط الضوء على بعض العوامل الأخرى التي كان تأثيرها كبيرا في اقتصاديات الدول القائمة بالمغرب وحياة ومعيشة الساكنة، لعلّ أهمّها حدوث الجوائح الطبيعية كالجفاف وما يرتبط بها من الأوبئة والمجاعات، أو العكس كخصب الأرض مما ينتج عنه انتعاش اقتصادي، كما نسلط الضوء على عامل لا ينفكّ عن العوامل الأخرى ويرتبط بالعامل البشري مثل: غلاء الأسعار.

4-جغرافية المغرب وتأثيرها في الجانب الاقتصادي:

1 الطاهر بونابي: السابق، ص ص 50-51

2 أندري برنيان وآخرون: السابق، ص ص 109-110.

لا بد في البدء أن نبين أن الإحصائيات الخاصة بتعرض بلاد المغرب للكوارث الطبيعية والأوبئة والمجاعات قد لا تكون دقيقة بنسبة كبيرة، ولكنها تعطي نظرة عامة حول الحالة الاقتصادية السائدة في الفترة محل الدراسة، هذه الفترة التي سنحاول - وإن كان من العسير ذلك - حصرها لتشمل الفترة من القرن 04 الهجري تقريباً إلى حوالي 443هـ التاريخ الفعلي لدخول الهلاليين.

يقرر عبد الحميد خالدي بأن من أهم الأسباب التي دفعت بالهلاليين النزوح نحو إفريقية والمغرب ما شهدته مصر من أزمة اقتصادية إثر المجاعات المتعاقبة خاصة مجاعة سنة 444هـ والتي تكلم عنها المقرئزي بإسهاب والتي شملت العالم الإسلامي في شقه الشرقي، على عكس ذلك الرخاء الذي عرفه المغرب الإسلامي في تلك الفترة مما جعل القبائل الهلالية تبحث عن متنفس لها في مراعي وسهول المغرب¹، يؤيد هذا الرأي مبارك الميلي بأن تلك الجماعات لم تنزح إلى المغرب طاعة للعبيديين ولا بغضاً في صنهاجة وإنما بحثاً عن مراعي تتسع لهم " طلباً للرزق بالتقلب في بوادي بين الصحراء والتل"²، خاصة إذا علمنا أنه قدر الداخلين إلى إفريقية والمغرب بحوالي ألف ألف نفس³ (وإن كان العدد مبالغ فيه نوعاً ما)، كما أقر جورج مارسيسه Georges Marçais ضمناً بأن المغرب قبل الهلاليين شهد تطوراً في الحياة الاقتصادية، ووصف ذلك بوجود الزراعة في السهول والبستنة على مشارف المدن⁴، كما أورد في موضع آخر وجود محاصيل زراعية

¹ عبد الحميد خالدي: الوجود الهلالي السليمي في الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص ص 108-109.

² مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 2004، الجزء 2، ص 184.

³ نفسه، ص 184.

⁴ جورج مارسيسه: السابق، ص 327.

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

وحدات في القرى والأرياف¹، ويؤيده في ذلك أندري جوليان حيث يرى أن مجيء الهلاليين كرس وضعاً جديداً، إذ أن البربر الرحّل والمستقرين قبل زحفة العرب توصلوا وبصعوبة على حدّ قوله إلى التفاهم واقتسام الأراضي على حسب معاشهم، فأفسد الهلاليون ذلك الانسجام بين نمطين من الحياة فرضهما مناخ المغرب وتضاريسه، فتحوّلت الأراضي الزراعية إلى أراضي رعي لمواشي وإبل البدو الهلاليين²، أمّا ريمون فيرون-RIMON VIRON - فيرى أن اليازوري أشار على الهلاليين بالهجرة إلى المغرب طلباً للاستقرار، حيث كانت شمال إفريقيا تمثّل حينئذ بلداً أكثر غنى من مصر على حدّ قوله³.

فهل معنى ذلك أن المغرب في تلك الفترة لم يعرف كوارث طبيعية وأوبئة ومجاعات وغلاء

الأسعار؟

الجدول رقم 01: الأوبئة والطواعين بإفريقية والمغرب من خلال البيان المغرب في أخبار الأندلس

والمغرب:

الرقم	السنة	الحدث	الصفحة
01	303 هـ	كان بإفريقية وما والاها وباء كثير، مات منه خلق عظيم	ج1 / 173
02	307 هـ	كان بإفريقية وما والاها إلى مصر طاعون شديد وغلاء سعر، مع جور الشيعة والتعلّل على أموال الناس	ج1 / 181

¹ جورج مارسيسه: السابق، ص 240.

² شارل أندري جوليان: السابق، ج02، ص 98.

³ ريمون فيرون: الصحراء الكبرى، ترجمة: جمال الدين الدناصورى، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، مصر، 1963، ص 66.

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

03	316 هـ	وفيها ابتداء غلاء السعر بالقيروان	ج1/ 193
04	317 هـ	وكان بالقيروان وأعمالها وباء عظيم وغلاء سعر، بلغ قفيز قمح بالكيل القرطبي مثقال ذهب	ج1/ 194
05	318 هـ	وفيها نزلت الأمطار بالقيروان وصلحت الأحوال ورخصت الأسعار بعد ضيق شديد كان فيه الناس وغلاء ووباء	ج1/ 195
06	395 هـ	كانت بإفريقية شدة عظيمة، انكشفت فيها الستور وهلك فيها الفقير وذهب مال الغني ، وغلت الأسعار وعُدمت الأقوات، وجلي أهل البادية عن أوطانهم وخلت أكثر المنازل فلم يبق لها وارث، ومع هذه الشدة وباء وطاعون، هلك فيه أكثر من غني ومحتاج ...، وكان الضعفاء يُجمعون إلى باب سالم فتُحفر لهم الأخاديد ويدفن المائة والأكثر في الأخدود الواحد، فمات من طبقات الناس وأهل العلم والتجار والنساء والصبيان ما لا يحصى عددهم، وخلت المساجد وتعطلت الأفران والحمامات ... ، وكانت الرمانة بـ 2 درهم للمريض، والفروج بـ 30 درهم، وقيل أن أهل البادية أكل بعضهم بعضا.	ج1/ ص 256-257

وفي نفس الفترة (أي من القرن 04هـ/10م إلى منتصف القرن 05هـ/11م)، سنحاول مقارنة

ما ورد عند ابن عذاري، مع ما نقله المقريزي في اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء عن

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

مصر والجهة الشرقية للعالم الإسلامي، وذلك لمعرفة مدى تأثير الأزمة الاقتصادية وانتشار الأوبئة والطواعين وغلاء الأسعار في الفترة قيد الدراسة:

الجدول رقم 02: الأوبئة والطواعين والجوائح بمصر من خلال كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة

الفاطميين الخلفا

الرقم	السنة/الفترة	الحدث	الصفحة
01	360 هـ	اشتدت الأمراض والوباء بالقاهرة	ج1/128
02	362 هـ	زلزال عظيم ضرب دمشق فاهتزت له الأرض، فانهدم بها من أنطاكية عدّة أبراج	ج1/132
03	363 هـ	حدث وباء بمصر فمات خلق عظيم	ج1/215
04	364 هـ	وقع الجدرى في كثير من الناس، واقاموا شهورا	ج1/218
05	368 هـ	كان بمصر وباء عظيم، مات فيه خلق عظيم، قال أحد نواب السلطان " الذي قُبر من الديوان 7760 سوى من لم يُعلم بموته، أما من دفن بلا كفن فكثير "	ج1/246
06	373 هـ	غلاء عظيم عمّ بلاد الشام والعراق	ج1/262
07	378 هـ	حدث بمصر والقاهرة رعد شديد ورياح عاصفة، وظهر	ج1/267

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

	في السماء عمود نار ...		
ج273/1	كان بدمشق زلزلة عظيمة سقط منها 1000 دار، وهلك خلق كثير، وحُسف بقرية من قرى بعلبك، وخرج الناس إلى الصحاري ولم تنزل الزلازل تتابع من محرم إلى صفر من نفس السنة	381 هـ	08
ج277/1	ظهر بمصر جراد لم يعهد مثله	383 هـ	09
ج81/2	كثرت الأمراض والموت، وعزّت الأدوية المطلوبة للمرضى	400 هـ	10
ج90/2	قرئ سجل من أمير المؤمنين بعدم زيادة الرزق ولا صلة ولا إقطاع ولا غيرها من المنافع، كما تم إحراق الزبيب	402 هـ	11
ج93/2	الختم على أزيار العسل، أغرق منها 5051 زيرا، وارتفع السعر، وكثر الازدحام على الخبز، وتفشت ظاهرة امتلاك الأسلحة من السكاكين والسيوف	403 هـ	12
ج115/2	اشتد الغلاء بديار مصر، بيع الدقيق رطلا بدرهم واللحم 04 أواقي بدرهم، ومات كثير من الناس بالجوع، بلغ عدّة من مات في رمضان وشوال وذو	410 هـ	13

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

	القعدة 200 ألف و 70 ألف سوى الغرباء		
ج2/134- 135	انصراف ماء النيل انصرافا فاحشا، وكثر استغاثة الناس، وتعذر وجود الخبز	414هـ	14
ج2/162	اشتغل الناس عما كانوا يبتاعونه من الفواكه والحلوى في ليلة عيد الميلاد، بما هم فيه من الأمراض وتواتر الموت، وكان يُنادى على الثياب والأمتعة فلا يوجد من يشتريها	415هـ	15
ج2/163- 164	قدوم وفد الحجاز فقالوا: يا قوم قد جنناكم وفارقنا أهلينا وقد هلكنا من الجوع، فإن لم يكن لكم حاجة بإقامة الدعوة بمكة والمدينة فاصرفونا.	فترة حكم الظاهر 411هـ - 427هـ	16
ج2/164	ومع هذا الغلاء يخرج الظاهر إلى مدينة مصر وخلفه القوادون والمصطنعة وبين يديه الرقاصون، فاستغاث الناس بضجة واحدة: الجوع يا أمير المؤمنين، الجوع لم يصنع بنا هكذا أبوك ولا جدك فالله الله في أمرنا.		17
ج2/182	كثر الفأر بأراضي مصر وأكل زروعا كثيرة وكثر الوباء	426هـ	18
ج2/ من ص	قصر مدّ النيل ولم يكن في المخازن السلطانية شيء	444هـ-446هـ	19

230-224	من الغلال، تزايد الغلاء وكثر الوباء وعمّ الموتان بديار مصر	-447هـ -	
---------	---	----------	--

تحليل الجداول: من خلال الجدول رقم (01) يتبين خفة الأزمات والكوارث الطبيعية بالمغرب في القرن الرابع الهجري وانعدامها في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، رغم تتبعه للمجاعات والأوبئة بالمغرب في الفترة التي تلت دخول الهلاليين، إذ يذكر أن إفريقية أصابها مجاعات عظيمة في سنتي 447 هـ¹. وسنة 469 هـ²، على عكس ما أوضحه الجدول رقم (02) من كثرة ما تعرضت له مصر والجهة الشرقية للعالم الإسلامي من أوبئة ومجاعات وكوارث تسببت في انحدار المستوى المعيشي للسكان وأثرت في الأنشطة الاقتصادية.

وعليه وكنتيجة لما تضمنته هذه الحيثية من البحث، ومن خلال طرحنا لنقطتين رأينا أنهما هامتين من خلال رصد السياسات الاقتصادية لكل من الفاطميين والدولتين الصنهاجيتين، وكذا الأوبئة والمجاعات التي مسّت المغرب خلال الفترة التي سبقت دخول الهلاليين، يمكن إعطاء حكم ولو بتحفظ بأن الحالة الاقتصادية للسكان تأثرت بشكل كبير نتيجة تطبيق سياسة منهكة للغاية في عهد العبيديين، وإن لم تكن بنفس الحدة في ظلّ الزيريين والحمّاديين، أما تأثير الجوائح والأوبئة فنؤيد رأي عبد الحميد خالدي من أن إفريقية والمغرب كانا يعيشان نوعا ما حالة رخاء في الفترة قبل دخول القبائل الهلالية.

1 ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص294.

2 نفسه: ص 300.

المبحث الثالث: الهجرة الهلالية نحو المغرب الإسلامي في القرن (05-11م):

قراءة في الأسباب والتداعيات

تعتبر منطقة الحجاز ونجد الموطن الأول لقبائل بني هلال، لتجد نفسها بعد التحالف مع القرامطة وانهزام الأخيرة على يد الفاطميين في صعيد مصر، ثم الانتقال منها بعد إرهابات كثيرة لتشق طريقها نحو برقة، إفريقية والمغرب، هذه المحطات الثلاث أثّرت بشكل كبير في الشخصية الهلالية، التي اتّهمت فيما بعد بتخريب أشكال العمران بالمغرب، ممّا جعل توجيه أقلام المستشرقين للحديث عن تخريب وإفساد العرب لكل ما هو حضاري، حتى وصف أحدهم الزحف الهلالي بالكارثة التي أنهت الحضارة ببلاد المغرب، وقال آخر: " أن دخول العرب الهلالية أدّى إلى توقّف النشاط الاقتصادي، وانقلاب الأحوال السياسيّة وتدهور الحضارة"¹، وكلّ من كتب على الهلاليين مُنطلقه ومصدره كتابات ابن خلدون، وما علم هؤلاء أن مستويات الخطاب لدى ابن خلدون تتجدّد في تتبّع الظاهرة الهلالية، كما أشار إلى ذلك الطاهر بونابي في قوله: " معالجة ابن خلدون للظاهرة الهلالية لا يعدّ مستوى واحداً من المعالجة، ولا يعكس حكماً جامداً يسحب على كل تاريخ الهلالية بقدر ما هو تناول لهذا التاريخ في صورته المتجدّدة ... الانتقال من الحراية إلى الاستقرار وممارسة الزراعة وإنشاء العمران...."²

إن البيئة والجغرافية القاسية بالحجاز ونجد، ثمّ عيشهم على هامش الحضارة بالجانب الشرقي للنيل، كان له الأثر السيئ في الشخصية الهلالية والتي جعلها تبدو خشنة، ولا يمكن وصف تلك المجموعات القبليّة إلاّ بالبداوة صفة لاصقة بها.

1 جورج مارسية: السابق، ص 197.

2 الطاهر بونابي: السابق، ص 149.

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

نحاول في هذا المبحث التطرّق إلى الجوانب النفسية للشخصية الهلالية الخشنة، بالحديث عن البيئة الصحراوية في أماكن توطّن تلك المجموعات القبليّة، ومن ثمّ الانتقال إلى المغرب في القرن 05هـ-10م، ونسلّط الضوء على الجانب الاقتصادي للهجرة الهلالية سواء ما تعلّق بظروف مصر الاقتصادية أو المغرب فيما بعد.

1- أثر البيئة الحجازيّة في تكوين الشخصية الهلالية:

تميّزت البيئة الحجازية بالطبيعة القاسية فهي بلاد قاحلة تعتمد فيها القبائل في قوامها الاقتصادي على التجارة وعلى المواشي وما تنتجه من ألبان وأصواف وأشعار، " طبيعة قاسية قليلة الماء شديدة الحرّ كثيرة الرمال بعيدة الغور، وحياة لا ترحم الضعيف ولا تستكين للفقير...¹ ، ولهذا كان لأفراد تلك القبائل العيشة الخشنة، والتنقّل من مكان لآخر طلباً للرزق والكألاً لماشيته، ويتّخذون أصوافها لباساً وأشعارها بيوتاً، وكثيراً ما يخرج أفراد تلك القبائل وخاصة موسم الأمطار إلى حيث يوجد الكألاً، وما إن ينتهي حتى يعودوا أدراجهم إلى أماكنهم منتظرين العام المقبل، وهكذا فقد كانت حياتهم تعتمد على الترحال الدائم، ولهذا نجد ابن خلدون يفرّق بين عرب الفتح وعرب بني هلال القادمين إلى بلاد المغرب في القرن 05هـ/11م، فإنّ عرب الفتح لم يسكنوا بأبجاليهم في الخيام ولا نزلوا أحياء، لأنّ الملك الذي حصل لهم يمنعهم من السكن بالضواحي ويعدل بهم إلى المدن والأمصار²، وكذلك أورد ابن عذاري نصّ محاورة الكاهنة للفتح حسان بن النعمان: " إنّ العرب إنّما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن نريد منها المزارع والمراعي، فلا نرى

1 عمر أبو النصر: تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب وحروبهم مع الزناتيين خليفة، دار عمر أبو النصر وشركاه للطباعة والنشر والتوزيع والصحافة، بيروت، لبنان، ط1، 1971، ص8-9.

2 ابن خلدون: السابق، مجلد06، ص27.

لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلّها حتّى ييأس منها العرب، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر"¹، ولهذا فإن القبائل الهلالية عاشت على هامش الحضارة كما يشير حسين مؤنس فاعتمدوا على الغارات في كسبهم، حتى قوافل الحجيج لم تسلم منهم²، ونعتقد أن السمة الغالبة على أفراد العرب الهلالية صفة البداوة، ولهذا وصفهم ابن خلدون بهذا الوصف الذي يعتبر لازماً لهم، قال: " بطون هلال وسليم لم يزلوا بادين منذ الدولة العباسية"³، فقد كانت الدولة العباسية تُرسل الكتيبة تلو الأخرى للإيقاع بالهلاليين، فهي في حروب دائمة مع الدولة لا ترتاح أبداً⁴، وهو ما يفسّر الجانب النفسي والشخصية الخشنة لأفراد العرب الهلالية.

وبالرجوع إلى الجانب الاقتصادي فقد مارست تلك القبائل في الحجاز نوعا واحدا من نمط المعيشة الذي يعتمد على تلبية الحاجات الضرورية من الملبس والطعام والشراب، فكما أسلفنا الذكر اتخذوا من الأصواف لباس وبيوتا وكذا من الأشعار، وتربية الماشية كانت تدرّ عليهم أنواعا من الأطعمة كاللبن والحليب، وإذا اضطر أحدهم ذبح ماشيته وأكل لحمها، فهذا النوع من العيش يطلق عليه أسلوب الاقتصاد البدوي الذي لا يمكن أن يؤدّي إلى فائض في الإنتاج، ولهذا نجد ابن خلدون في المقدّمة يقرّر ذلك، بأنّ طبيعتهم منافية للعمران ومناقضة له، ويردف القول: "... فالحجر مثلاً إنّما حاجتهم إليه لنصبه أثافيّ القدر، ... والخشب أيضاً إنّما حاجتهم إليه ليعمدوا به خيامهم ويتّخذوا الأوتاد منه لبيوتهم، فيخربون السقف عليه لذلك"⁵، كما قرّر ابن خلدون بأن

1 ابن عذاري: السابق، جزء 1، ص 36.

2 حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، القاهرة، مصر، ط5، 2000، ص 166.

3 ابن خلدون: السابق، مجلد 06، ص 27.

4 نفسه، ص 28.

5 عبد الرحمان ابن خلدون: المقدّمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 163.

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

العرب أكثر بداءة من سائر الأمم، وأبعد مجالا في الفقر، وأغنى عن حاجات التلّول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش¹.

وبالرجوع إلى موطن العرب الهلاليين فبنو عامر بن صعصعة كلّهم بنجد، ومنهم بنو هلال في بسائط الطائف ما بينه وبين جبل غزوان، انتقلوا كلّهم إلى الجزيرة الفراتية²، وكان بنو عامر هؤلاء قبل الإسلام يصيّقون بالطائف لطيب هوائها وثمارها ويشتّون في نجد، وتقاسموا مع قبائل عدوان، بحيث تركوا الطائف لهم لزراعتها مقابل أن تأخذ بنو عامر قسمةً ممّا نتج عن زراعتهم³، أمّا بنو سليم فهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس من أوسع بطون مضر⁴، وسكن هذا القبيل ممّا يلي المدينة، وفي عهد الخلافة العباسيّة شكّل هؤلاء شوكة بغية وفتنة فكانت تُرسل إليهم الكتائب للإيقاع بهم⁵ كما يشير خورشيد البري إلى أنّ بنو سليم سيطروا على الطريق بين مكّة والمدينة، كما أنّ إقليمهم هذا يتميّز بغناه بالمعادن، ويبيّن أنّ النشاط الاقتصادي الذي مارسه هذه القبائل في الحجاز الاشتغال بالزراعة وتربية الخيول، وهو ما حافظت عليه بعد انتقالها إلى مصر⁶.

1 ابن خلدون: المقدمة، ص 165.

2 عبد الرحمان ابن خلدون: تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب، تحقيق: حساني مختار، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص 53

3 أحمد عبد الباسط حسن: التاريخ السياسي والحربي لسكان الجزيرة العربية من البدو العرب من ظهورهم في ق 09 ق.م حتى ظهور الإسلام، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2018، ص ص 285-286.

4 ابن خلدون: العبر، مجلد06، ص141.

5 نفسه، ص 142

6 عبد الله خورشيد البري: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1992، ص ص 133-134.

ولهذا يمكن القول بأن الموقع الجغرافي الذي توطّنت فيه العرب الهلالية بالحجاز ونجد، كان له الأثر البالغ في تكوين شخصية أفراد تلك المجموعات القبليّة، فالبداءة صفتهم، كما يمكننا من خلال ما سبق تفسير حال انتقال الهلاليين من مصر نحو المغرب وما صاحب ذلك من تخريب وإفساد لكل أشكال العمران والحضارة، ولكن في إطاره المحدّد، وإلاّ فلو توفرت شروط الاستقرار لكان الأمر غير ذلك، وهذا من باب تتبع مستويات الخطاب الخلدوني في التعامل مع الظاهرة الهلاليّة بالمغرب الإسلامي.

2- البعد الاقتصادي للهجرة الهلاليّة نحو بلاد المغرب:

حدث منتصف القرن 05 هـ - 11م أن زحفت قبائل بني هلال العربية نحو المغرب، بعد أن فتح خلفاء الدولة الفاطمية الطريق أمامهم، فجازوا إلى الجهة الغربيّة من نهر النيل، فيما يعرف في المصادر بالتغريبة الهلاليّة، إثر القطيعة الحاصلة بين الخليفة المستنصر الفاطمي والمعزّ بن باديس الصنهاجي، ولئن تعدّدت الآراء حول تلك القطيعة بالنظر إلى مبدئها: هل هو سياسي مذهبي؟ أم له علاقة بالعامل الاقتصادي المتمثّل في أزمة اقتصادية خانقة ضربت مصر والعالم الإسلامي في شقّه الشرقي؟ وكذلك الحال في الجهة الغربية، هل حال الرّخاء التي شهدتها إفريقية والمغرب أطمعت تلك القبائل في غزو مجالات المغرب؟ فإنّ النتيجة كانت اجتياح كبير للقبائل العربية لبلاد المغرب.

سنحاول هنا تتبّع الظاهرة الهلالية في بعدها الاقتصادي، من خلال النظر في الحالة الاقتصادية لمصر وكذا البعد الاقتصادي لهجرة المجموعات القبليّة إلى المغرب.

إنّ التتبّع والاستقراء لمختلف المصادر التي وصفت حالة مصر في تلك الفترة ممّا كتبه: المقرئزي، وجلال الدين السيوطي، وابن تغري بردي وغيرهم، تبين بكل تأكيد الحالة الاقتصادية

المزرية التي بلغتها مصر، كما أشار إلى ذلك حسين مؤنس بأنّ الخلفاء الفاطميين قد حالت الظروف المحيطة بهم في إحكام قبضتهم على إفريقية، " فقد غرقوا في شئون مصر ومشاكلها"¹، ويمكن تلخيص مظاهر الأزمة الاقتصادية الخانقة في مصر في نقاط كنّا قد ذكرناها في مقال لنا نُشر من قبل، أهمّها:

- توقف حركة القوافل، سواء التجارية أو قوافل الحجيج، وذلك بسبب القبائل الهلالية
- الأوبئة والمجاعات: مثل مجاعات 444هـ، 446هـ، 448هـ وغيرها، ولا يستبعد أن يكون ترحيل الهلاليين فيما بعد بسبب تلك الأزمات ولتخفيف شدة الأزمة.
- إرهاب خزينة الدولة المصريّة: جرّاء الحروب والفتن الحاصلة، ممّا يعني نفقات كبيرة على ذلك².

ولهذا فإنّ انطلاق الهجرة الهلالية من صعيد مصر نحو إفريقية والمغرب، تبدو عليها ملامح الفرار من العجز الاقتصادي التي عانته بلاد مصر وما جاورها، وحتى خطاب الوزير اليازوري لتلك القبائل يبيّن حالة تلك القبائل من الفقر وضيق المعاش، فقله "فلا تقتفرون" يدلّ على فقر كبير كانت تعانيه القبائل العربية، ويؤيد ذلك ما ورد في بعض النصوص من أنّ الهلاليين لم يجدوا حتى العلف لدوابّهم مع ندرة حادة في الأطعمة، مع ما كان من جذب الأرض والكوارث الطبيعية والأوبئة والمجاعات، زيادة إلى غلاء الأسعار والمعيشة، ولعلّ المنتبّع لنصوص المقرئ في اتعاظ الحنفا وابن تغري بردي وغيرهم من المؤرخين الذين وصفوا حالة مصر

1 حسين مؤنس: السابق، ص 162.

2 بن بلخير أحمد، بوعقادة عبد القادر: القبائل العربية بالمغرب الإسلامي في القرن (05هـ - 11م): التواجد الهلالي بين القطيعة السياسيّة والأزمة الاقتصادية، مجلة الإحياء، العدد 30، المجلد 22، جانفي 2022، ص ص 948-949.

الاقتصادية في تلك الفترة، يعلم الضيق الشديد التي عاشته ساكنة مصر ومنهم القبائل العربية الهلالية، هذه الأخيرة التي رأت في المغرب وإفريقية الملجأ والمسلك الوحيد للهروب من الحالة السيئة بمصر، مستغلين في ذلك بؤادر الأزمة الحاصلة بين صنهاجة والخلفاء الفاطميين، وهكذا لما تم فتح المجال لجواز العرب الهلالية إلى غرب النيل، جاز هؤلاء مع إعطائهم مبلغ معين - ليس المهم مقدار - ليجدوا الأراضي الفسيحة والصالحة لمرعى مواشيهم التي كانت تمثل لهم رأس المال، إذ كانت تقدر بأعداد كبيرة، وربما التحفيز الذي وجده المازون إلى برقة وما جاورها من بلاد إفريقية من عرب تلك المنطقة جعلهم يتحملون الصعاب ويدفعون أضعاف ما أخذوه من سلطة مصر في سبيل عبور من بقي بأرض مصر (ولعل من بقي كان يمثل نساءهم وأبناءهم ودوابهم)، مع ملاحظة عنصر آخر نرى فيه إغراء لتلك القبائل للعبور ألا وهو وجود أرض برقة وطرابلس من أرض إفريقية خالية من ساكنيها نتيجة الصراعات الصنهاجية الزناتية، وكذا إرسال مصر لحملات عسكرية في تلك المنطقة للنيل من الحركات المناوئة بها.

على الجهة المقابلة رأت سلطة مصر في التخلص من القبائل الهلالية أحد المخارج من أزمة اقتصادية أعجزت خزينة الدولة المصرية، نظراً للعدد الهائل لأفراد القبائل العربية مع امتلاك هؤلاء لرؤوس الماشية، مما يعني أثقالا اقتصادية كبيرة، علما أن حكام مصر جعلوا مساحة محدّدة للعرب ومراعي معيّنة لمواشيهم (والتي تعتبر في نظر العرب مراعي ضيقة لا تتسع لأغنامهم ومواشيهم)، كما أنّ الفتن داخل المجتمع القبلي الهلالي بصعيد مصر أرقق كاهل من كانوا في دوايب الحكم بمصر.

3- القטיعة بمنظور اقتصادي:

وقعت القطيعة بين الفاطميين بمصر وصنهاجة بالمغرب منتصف القرن 05هـ - 11م في خضمّ الأحداث بين الطرفين، ولو أن حسين مؤنس يرى أن نية أمراء بني زيري بالانفصال كانت قبل ذلك بكثير، وكان تعامل الخلفاء بمصر متنوع فتارة إتباع سياسة لا تتعارض مع أطماع الزيريين كالخليفة المعز الفاطمي، وتارة أخرى يكون بخلق الفوضى كالعزيز الفاطمي إذ قام بإثارة كُتامة على المنصور¹، كما أن استغاثة حكام صقلية بالزيريين لردّ عادية بيزنطة عليهم (1038م) بدلا من الخلافة الفاطمية² تعدّ شكلاً من أشكال الرغبة في الاستقلال عن الخلافة بمصر، وبالرجوع إلى حالة مصر الاقتصادية فقد عانت من المجاعات والأوبئة وغلاء الأسعار، كما يُضاف إلى ذلك الحروب الخارجية والفتن الداخلية ومنها إفساد القبائل الهلالية التي منحتها السلطات المصرية منطقة الصعيد شرقي النيل، يحدّثنا ابن تغري بردي بتلك الحالة فيقول: "... وعاش المستنصر سبعاً وستين سنة وخمسة أشهر في الهزاهز والشدائد والوباء والغلاء والجلأ والفتن، وكان القحط في أيامه سبع سنين مثل سني يوسف عليه السلام"³، ووافقه المقرئ بأنّ الأزمة مسّت حتّى من هم في سُدّة الحكم، فقد آل الأمر إلى أن باع المستنصر كلّ ما في قصره من ذخائر وثياب وسلاح، وصار يجلس على حصير، بل أكثر من ذلك باع حلية قبور آبائه⁴، كما أنّ القبائل الهلالية قطعت طرق التجارة ونهبت قوافلها وكذا قوافل الحجيج، فقد ذكر السيوطي في سنة 355هـ/966م غنمت تلك القبائل قافلة للحجيج فيها 20 ألف بغير بأحمالها وعليها من

1 حسين مؤنس: السابق، ص ص 164-165

2 أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارة في حوض البحر المتوسط، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ط، د.ت، ص 362.

3 جمال الدين ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992، الجزء 05، ص 05.

4 تقي الدين أحمد بن علي المقرئ: إغاثة الأمة بكشف الغمّة، تحقيق: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط2007، ص ص 98-99.

الأموال والأمتعة مالا يستطيع أحدٌ تقويمه، وهلك الحجاج في البوادي¹، وكذلك كان الحال سنة 363هـ/974م وانقطع الحج ذاك العام²، ومما زاد من أعباء الخزينة ما كان من فتن داخلية مثل ما حدث لجيش المستنصر إذ صار فئتين، فئة الأتراك وفئة العبيد والعربان، كان نتيجتها مقتل 40 ألفاً من العبيد وغرقهم، قال الذهبي: "... فزادت كلفة أرزاقهم وخلت الخزائن واضطربت الأمور"³، أما الحروب الخارجية فقد أنهكت كاهل الدولة على مستوى الموارد البشرية وكذا المالية على حدّ سواء، مثل ما حدث مع بني قرّة في وقعة البحيرة (443هـ/1051م)⁴، ولعلّ محاورة اليازوري وزير الخليفة المستنصر فيه بعدُ اقتصادي في قوله: " وما تنتجه الأرض يكاد لا يكفي لعلف الماشية لشدة قحطها، والنّاس لا يشكون فيها قلة الأماكن للسكنى فحسب، وإنّما يعانون أيضاً قلة الطعام، لهذا فإنّهم سيهاجرون إلى إفريقيا إن أذنت لهم، فأذن لهم بالهجرة"⁵.

تمّ حدوث القطيعة على اختلاف في تاريخها، مع أنّنا نرجّح سنة 441هـ/1049م لذلك، إذ وردت إشارة قويّة لدى ابن عذاري من ضرب بني زيري للدينار المسمّى النجاري، وبُثّ في النّاس

1 جلال الدين السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط1، 1968، الجزء 02، ص279.

2 نفسه، ص 280.

3 تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين الذهبي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993، جزء 31، ص 18.

4 عزّ الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987، مجلد 08، ص ص 302-303، جاء عند ابن ميسّر: أن بني قرّة والطلحيين اجتمعوا للخروج عن المستنصر، وذلك أن اليازوري عيّّن على عرب البحيرة رجلاً يدعى المقرّب، فأنفوا من ذلك وطالبوا بعزله وتنحيته فلم يفعل، فاجتمعوا على شقّ عصا الطاعة، فأرسل جيشاً فكسروه ثم ثاب فكسروهم وقتل منهم خلقاً كثيراً، وحمل رؤوسهم إلى القاهرة وكذا الأموال، فلمّا كثُر فيهم القتل فرّوا إلى برقة فهم فيها إلى اليوم، بفرقة آخر وطن للعرب غرباً. أنظر: تاج الدين محمد بن علي بن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر (انتقاء المقرئزي)، تحقيق: أحمد فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ص ص 12-13.

5 الحسن بن محمد الوزان: وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ج2، ص45.

قطع العمل بسكة بني عبيد وكذا إزالة أسمائهم من الدراهم والدنانير والبنود والأعلام¹، وهي علامة اقتصادية قوية تدلّ على الانفصال التامّ عن الفاطميين، إذ لا يكفي القطيعة في الجانب السياسي بل لابدّ من إظهار قوة وهيبة الدولة في الجانب الاقتصادي، على أن هناك من يرجعها إلى سنة 407هـ/1016م وما جرى من تقتيل للشيعة تحت أنظار الأمير الشاب المعزّ بن باديس الذي لم يبلغ عمره حينئذ 09 سنوات، وأعطيت لها صبغة مذهبية²، خاصة إذا علم أن الأمير الصنهاجي تلقى تربيته الدينية من ابن أبي الرجال المتمذهب بمذهب مالك وأهل السنة³، كما أشار ابن عذاري إلى ما كان في نفوس الناس من كره لبني عبيد حتّى تعطلت الجمعة دهرًا⁴.

كان الهلاليون يعيشون في ضيق وفقر شديدين بصعيد مصر، وكانت كثيرا ما تتشب بينهم قلاقل وفتن ممّا زاد في قلق الخلفاء الفاطميين، إضافة إلى الأزمة الاقتصادية السالفة الذكر، ولعلّ حكومة مصر بحثت عن سبب لترحيل الهلاليين، وكان من مخاطبة المعز لليازوري بالفلاح⁵

1 ابن عذاري: السابق، ص 278. اختلفت المصادر في سنة القطيعة جعلها كلّ من ابن خلدون وابن الأثير سنة 407 هـ، على إثر حادثة تقتيل الشيعة في درب المعلى بالقيروان، ليرجع ابن خلدون ويضع تاريخا آخر سنة 437 هـ، وابن تغري بردي وابن عذاري يؤرّخون للقطيعة بلبس السواد وهي علامة تدلّ على أتباع الدولة العباسية وذلك سنة 443 هـ

2 ابن خلدون: السابق، مجلد 06، ص 29، وقد أورد ابن خلدون هنا حادثة تقتيل الشيعة، قال: " وأئخنوا فيهم القتل، وقطعوا الصلة بالشيعة ونادوا بشعار الإيمان وقطعوا من الأذان حي على خير العمل، كما ذكر في موضع آخر أن السبب في مخاطبة الوزير اليازوري الذي ولي الوزارة بمصر سنة 336 هـ، أمّا راضي دغفوس فيجعل من السبب في الحادثة يرجع إلى الأحوال الاجتماعية والظروف الاقتصادية، بدليل مقتل عناصر أخرى من غير الشيعة، كما تمّ حرق الأسواق والحوانيت وغيرها، راضي دغفوس: السابق، ص ص 275-276.

3 ابن عذاري: السابق، ص ص 273-274

4 نفسه، ص 277.

5 ينظر ابن خلدون: السابق، مجلد 06، ص 29، وقد نعت ابن خلدون في العبر: أن أبوه كان ملاحا-فلعله يكون تصحيف-. المقرئ: اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط2، 1996، ج2، ص ص 212-213. ابن الأثير: السابق، ج 8، ص 295.

السبب المباشر في إرسال تلك المجموعات القبليّة بعد أن قام المستنصر ووزيره بخطوة تُعدّ مهمّة من إصلاح ومحاولة التّأليف بين فروع القبائل العربيّة، كالصلح بين زغبة ورياح¹، وأرسل الوزير إلى المعزّ الصنهاجي خطاباً يتوعّده ويُهدّده فيه : " أمّا بعد، فقد أنفدنا إليكم خيولاً فحولاً، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً"²، فكان عبور رؤوس من بني هلال للجهة الغربيّة للنيل، وكان قبل ذلك ممنوعاً عن العرب، أمر لكل جائز دينار وبعير³ فجاز خلقٌ كثير، وممّا يدلّ على حالة الانهيار الاقتصادي المصري، لمّا جاز العرب إلى برقة استباحوها ورغبوا إخوانهم في العبور، فأجازوها بعد أن أعطوا لكلّ رأس دينارين فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه⁴، فما الذي رآه الهلاليّون عند عبورهم إلى جهة الغرب ممّا أغراهم بأن يرغبوا إخوانهم في العبور؟ وكذا إعطاء دينارين؟ قد يحيينا المليّ بآن عبورهم إلى جهة كان سببه طلباً للرزق بالتقلّب في بوادي المغرب بين التّل والصحراء⁵، ولهذا لما رأى رؤساء الهلاليين ما وجدوه من مراعي فسيحة وأرض خصبة وقد كانوا في ضيق شديد وحاجة ماسّة للتقلّب والترحال (فقد ضيّقت عليهم الحكومات المصريّة وحجّرت عليهم) أُعجبوا بتلك الأراضي ودعوا إخوانهم إليها.

يورد ابن خلدون نصّ مخاطبة الوزير اليازوري للعرب بقوله : " قد أعطيتكم المغرب ومُلك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقرون"⁶، وهو دليل على حالة الانحطاط الاقتصادي الذي بلغته الخلافة الفاطمية من إقطاعها لأراضي المغرب للهلاليين كما أشارت إلى ذلك فوزية

1 ابن الأثير: السابق، ج8، ص 296.

2 المقرئزي: اتعاط الحنفاء، ج 2، ص 216

3 ابن عذاري: السابق، ج1، ص 288، ابن خلدون: السابق، مجلد06، ص31.

4 ابن خلدون: السابق، مجلد06، ص 31.

5 مبارك بن محمد المليّ: السابق، ج2، ص 184

6 ابن خلدون: السابق، مجلد 06، ص 31.

كرراز، إذ اعتبرت أن من العادات السياسيّة للدول حال الانحطاط إقطاع الأراضي لبعض القبائل الموالية لها، أو تسليطها على قبائل مُعادية لجباية الأموال وجمع الضرائب كيف يشاءون¹، ولفظة " فلا تفتقرون" هو دليل على الحالة المزرية التي كانت عليها تلك القبائل من الفقر، كما أنّه ترغيب لها بما سيكون عليه حالها في بلاد المغرب من حالة الرغد وخصب الأرض والمراعي الفسيحة لمواشيهم، وهذا من باب إعطاء ما لا تملك، فقد أوهم المستنصر الفاطمي ووزيره اليازوري تلك القبائل بأن ملك المغرب صار لهم وأنّ كل ما تقع عليه أيديهم فهو غنيمة حرب يتصرفون فيها كيف ما شاءوا .

4-برقة، إفريقية والمغرب إقطاعات للعرب الهلالية:

يذكر ابن خلدون أنّ برقة كانت آخر مواطن العرب غرباً²، فقد توطّنت بها قبائل بنو قرّة من هلال بن عامر، وكانت لهم في دولة الفاطميين ثورات خاصة في أيام الحاكم ومبايعتهم لأبي ركة وبنو أميّة، وربّما هذا يعطينا صورة عن الجواز الأول لرؤساء العرب لما أعطوا دينارا وبعيراً، إذ لا يستبعد اتّصال هؤلاء بإخوانهم من بني قرّة فرغّبهم في القدوم ومن ثمّ الزحف على إفريقية والمغرب، وإذا سلّمنا جدلاً أن عبور تلك القبائل كان مُتزامناً مع قطيعة المعزّ مع خلفاء مصر، وكنا قد رجّحنا سلفاً أن القطيعة بمعناها الحقيقي (السياسي والاقتصادي) كان سنة 441هـ/1049م، فإنّ ابن خلدون يضع سنة 443هـ/1051م كأول دخول للهلاليين إلى إفريقية³، وهو ما يدلّ على أنّ الانتقال كان بطيئاً وهو ما يتناسب مع الحياة القبليّة، إذ تستلزم النقلة

1 فوزية كراز: السيطرة الاقتصادية الهلالية في المغرب الإسلامي، دورية كان التاريخية، العدد 12، يونيو 2011، ص 52.

2 ابن خلدون: تاريخ الدول الإسلامية، ص 39.

3 ابن خلدون: العبر، مجلد 06، ص 31.

الجماعية ذلك البطء نظرا لما تتكوّن منه تلك المجموعات القبلية إلى جانب الشباب والقادرين على حمل السلاح، نجد الشيوخ والنساء والأطفال والماشية والدواب والمتاع¹.

وكنتيجة لكلام اليازوري من إقطاعه العرب الهلالية لأراضي المغرب، فقد اقتسم الهلاليون الرقعة بينهم، ذكر ابن خلدون الاقتصام الأول بأن قبائل من سليم وهم: هيب وأحلافها من رواحة وناصره وغمرة توطّنت برقة، وأمّا بطون هلال فاستمرت في اتجاه الغرب نحو إفريقية ومنهم: دياب وعوف وزغبة وجميع بطون هلال²، ثمّ اقتسموا إفريقية: طرابلس لزغبة وباجة وما يليها لمرداس من رياح، ثمّ إنهم اقتسموها ثانية بحيث تملّك هلال من تونس إلى الغرب وبتونها: رياح، زغبة، المعقل، جشم، قرّة، الأثبج، الخلط وسفيان³، إنّ كثرة عدد القسمات منذ الوهلة الأولى لدخول المغرب، دليل أولاً على الطبيعة البدوية الخشنة لتلك المجموعات القبلية، كما يفسّر محاولة تلك القبائل التموّقع وفق مُعطيات الواقع المعاش، وهو ما سيؤدّي فيما بعد إلى فتن بينها، أدّت إلى انزياح بعض القبائل عن أماكنها لتتّخذ حيّزا ومجالاً جغرافياً آخر، كما حصل بين مرداس وعلاق، وكذا الكعوب مع مرداس لتخرج هذه الأخيرة من إفريقية إلى القفر البعيد⁴، كما يعتبر البحث عن الأراضي الرعوية من أهمّ أسباب تلك القسمة، والبقاء للعصبية الأقوى، خاصة إذا علمنا أنّ من القبائل من دخل المغرب في قلة مثل قبائل المعقل الذي لم يتعدّى أفرادها المائتين عند الدخول ممّا أدى إلى انزياحهم إلى القفار الموجودة بالمغرب الأقصى فيما بعد⁵، أمّا العبور إلى المغرب الأوسط

1 عبد الله خورشيد البري: السابق، ص 68.

2 ابن خلدون، العبر، مج 06، ص 31.

3 نفسه، صفحات 33-35

4 نفسه، ص ص 147-148.

5 ابن خلدون: العبر، مجلد 06، ص ص 118-119

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

فكان بعد موقعة سببية 457هـ/1065م حيث انتشرت فيه العرب انتشاراً رهيباً، وقد أورد الملي
الجهات التي دخل منها العرب، وذلك من ثلاث جهات:

- جهة الساحل حيث قبائل كُتامة: ولم يُذكر أن نشبت مناوشات بينهما، ربما لأن قبائل كُتامة كانت لهم مُعاملات مع العرب كما قال الإدريسي " وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات مع العرب ..."¹، أو لأنّ الفاطميين أوصوا بعدم التعرّض لكُتامة.
- جهة ما بين الأطلس التلي والصحراوي حيث دافعهم صنهاجة.
- جهة الصحراء حيث قبائل زناتة²، حيث جرت بينهم ملاحم وحروب خلّدتها التغريبة في شكل أشعار وحكايات أصبحت في كثير من الأحيان مثل الأساطير الخرافية.

كما أشارت نصوص إباضية ومنها الشماخي إلى وصول قبائل المعقل إلى ورجلان في النصف الأول للقرن 05هـ/11م، أي في نفس الوقت الذي وصلت إليه قبائل رياح وزغبة والأثنج إلى قلعة بني حمّاد (قبل نهاية 461هـ)³، فانظر إلى هذا الانتشار السريع للهلاليين.

وهكذا فإن اقتسام العرب واجتياحهم لأراضي إفريقية والمغرب كان أساسه ظهير التملك الممنوح لهم من قبل السلطة بمصر، "قد أعطيتكم المغرب ومُلك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الأبق فلا تقتفرون"، وبغضّ النظر عمّا إذا كان ذلك طاعة للفاطميين أو بحثاً عن المراعي أو كُرهاً لصنهاجة، فقد استغلّ الهلاليون ظهير التملك وإقطاعهم لأرض المغرب

1 أبو عبد الله الشريف الإدريسي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص166.

2 الملي: السابق، ج1، ص 182

3 أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي: كتاب السير، تحقيق: أحمد بن سعود السيابي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ط2، 1992، ج2، ص 119.

أحسن استغلال، وبممارستهم لأسلوب الحراية تمّ لهم حيازة المجال مع رضوخ صنهاجة لمطالب الهلاليين فيما بعد ومصالحتهم على ملك البوادي والضواحي.

5- النشاط الحرابي للهلاليين وأثره الاقتصادي في المغرب الإسلامي:

مارست القبائل الهلالية منذ الوهلة الأولى نشاطا حرابيا واسع النطاق، فقد شتّوا الغارات وقطعوا الطريق وأفسدوا الزروع وحاصروا المدن¹، وهو ما يظهر جليا بعد اقتسام العرب لبرقة وأحوازاها بين سليم وهلال، فخرّبوا المدينة الحمراء وأجدابية وأسمر وسرت²، كما خرّبوا القيروان بعدها، ونُهبت من قصور بني باديس الخيام والغدد والآلات وأُرسلت إلى القاهرة³، ولكن إبراهيم جدلة له رأي آخر فيما يخصّ هذه الحيثية، إذ يعتبر أن القيروان لم يكن لها سور منذ عهد الأغالبة، كما خرّبت القيروان بترحيل الزيريين للسّاكنة منها إلى مدينة صبرة سنة 405هـ/1014م⁴، وعلى إثر هزيمة المعز بحيدران 443هـ أمر الناس بانتهاب المزروعات والمحاصيل حول مدينة صبرة.

أدى تزايد النشاط الحرابي على إثر الانتصار المحقق للهلاليين في موقعة حيدران 443هـ وهزيمة المعز بن باديس، ثمّ هزيمة الحمّاديين في موقعة سبيبة 457هـ، أدّى ذلك إلى التحكّم الكامل للهلاليين على الطرق الواصلة بين مدن ومجالات إفريقية والمغرب، أمّا أمراء صنهاجة فكان لهم دور في تخريب أشكال العمران بإفريقية والمغرب، فقد كان للموقف الذي وقفه المعز من

1 ابن الأثير: السابق، ج8، ص ص 296-297

2 ابن خلدون: العبر، مجلد 06، ص31.

3 المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 215.

4 إبراهيم جدلة: دراسات حول تاريخ بعض مدن إفريقية وقبائلها في العصر الوسيط، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2018، ص ص 33-35

زعيم رياح مؤنس بن يحيى الأثر الكبير على تخريب مدينة القيروان¹، كما أن سياسة التحالفات المبنية مع العرب، ففي سببية 457هـ/1065م تحالف الناصر بن علناس مع قبائل عديّ والاثبج، واستخدم بعضا من بني هلال لإعانتته على محاصرة بني عمومته، ولكن المعزّ أمر رياح وأمدهم بالسلاح والمؤونة لتحريض بني هلال على الانسحاب من جيش الناصر، ففعلوا وانتصر الهلاليون بمعونة المعز على ابن عمّه²، ولعلّ إلقاء اللوم بالكلية على العرب في تخريب المدن وتشويه صورة العمران لبلاد المغرب الوسيط يعدّ خطأ فادحاً، إذ نستشف ممّا كتبه إبراهيم جدلة أن الصورة السلبية التي تركها تخريب القيروان (سواء على يد الهلاليين أو بأمر أمراء بني زيري) أثّرت في نفوس النخبة القيروانية من أدباء وعلماء ورجال البلاط، فهزيمة الأمير الصنهاجي وفقدانه السيادة على المدينة كانت هي المأساة³، فمأساة المغرب عندهم هي مأساة القيروان فقط، فنجد كتابات ابن سعدون (ت 485هـ/1092م) في كتابه تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلّب الزمان، وكذلك ابن شرف الذي نقل عنه ابن عذاري نصوصاً توضّح ما ألمّ به من فاجعة في خراب مدينة القيروان⁴ تبين ذلك، كما أنّ القصيدة التي في أول كتاب معالم الإيمان تبين حجم

1 الميلي: السابق، ج1، 181. لقد حذر مؤنس المعز من مغبة دخول العرب إلى إفريقية، فقام المعز باتهام مؤنس بتأليب العرب عليه، فقبض على أخيه وأهله ووضعهم بالسجن، قال مؤنس: " بعد أن بسط لهم رداءه، هل يستطيع أحد أن يبلغ وسطها دون أن يطاء حواشيها؟"، قالوا: لا، قال: كذلك القيروان لا نملكها إلّا إذا ملكنا ضواحيها.

2 ابن الأثير: السابق، ج8، ص ص 372-373

3 إبراهيم جدلة: السابق، ص36.

4 يُنظر مثلاً النصّ الذي نقله ابن عذاري إذ يقول: "... قال ابن شرف: أخبرني من أثق به، قال: خرجت من القيروان وسرت ليلاً، فكنت أكنم النهار، فلم أمر بقرية إلّا وقد سُحقت وأُكلت. أهلها غُراة أمام حيطانها من رجل وامرأة وطفل يبكي جميعهم جوعاً وبرداً، وانقطع المير عن القيروان، وتعطلت الأسواق" ابن عذاري: السابق، ج1،

معاناة الشعراء حينئذ بخراب المدينة¹، يضيف الطاهر بونابي سببا آخر يراه مُحجفاً في حقّ الهلاليين وهو استتلاف مؤرّخ المناقب السلطانية عن كشف جرائم مولاه أو تحميله تبعات التخريب²، كما أنّ الملي يضيف سببا آخر في التحامل على العرب الهلالية، إذ لم يكن للهلاليين من اهتمّ بالدعاية السياسيّة تنشر لهم وأنّ جلّ من أرخ عنهم إنّما كتب لدول بربريّة³.

الأثر الاقتصادي الأوّل الظاهر للعيان عند دخول الهلاليين إلى المغرب، ظهور ما يُسمّى نظام الخفارة⁴، خاصّة إذا علمنا أنّ أول من طبّق عليه هذا النظام المعز بن باديس نفسه لما خرج من القيروان وصبرة متّجهاً إلى المهدية فاتّخذها عاصمة لدولته⁵، إذ يرى جورج مارسيه أنّها من الأشياء التي قدّمها العرب وتعني السهر على أمن المسافرين، ولو أنّه يُعقّب على ذلك بقوله "ولو أنّ وجودهم في المنطقة سبب هذه الحاجة"⁶، ولعلّ هذا النظام لم يستثني غير المسلمين فابن

1 أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الدبّاغ وأكمّله ابن ناجي: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة بتونس مكتبة الخانجي بمصر، ط2، 1968، صفحات 18-19-20، والتي يبتدئها بقوله:

كم كان فيها من كرام سادة بيض الوجوه شوامخ الإيمان
متعاونين على الديانة والتقى لله في الإسرار والإعلان
ثم يقول بعد ذلك:

نظرت لها الأيام نظرة كاشح ترنو بنظرة كاشح معيان
حتى إذا الأقدار حمّ وقوعها ودنا القضاء لمدة وأوان =
أهدت لها فتناً كليل مظلم وأرادها كالناطح العيدان

2 الطاهر بونابي: السابق، ص173.

3 الملي: السابق، ص 186.

4 جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة خفر، قال: وخفر الرجل وخفر به وعليه يخفر خفرا أجاره ومنعه وأمنه، وكان له خفيرا يمنعه وكذلك تخفّر به، وخفّره: استجار به وسأله أن يكون له خفيرا وخفّره تخفيرا، قال أبو جندب الهذلي:

ولكنني جمر الغضا من ورائه يخفّرنني سيفي، إذا لم أخفر

انظر أبو الفضل بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، المجلد 04، ص 253

5 ابن خلدون: العبر، مجلد 06، ص ص 33-34

6 جورج مارسيه: السابق، ص 245.

سعيد حينما ذكر مدينة طلميثة قال: " وبها قصر فيه اليهود الذي تحت خفارة العرب"¹، ونعتقد أنّ الأثر الثاني للنشاط الحربي للهلاليين السيطرة على طرق المواصلات والتجارة في الدّاخل وهي نتيجة حتمية لتزايد نشاط العرب وبالتالي السيطرة على الضواحي والمدن والطرق الموصلة إليها، فالوزّان عند وصفه للقيروان ذكر أن العرب تقيم في ضواحي البلدة صيفاً، ممّا يؤدّي إلى نقص في القمح والماء ولكنّه بالمقابل يزيد من كثرة اللحم والتمر المجلوب من المغرب الأوسط²، وكنتيجة لهذا الوضع تمّ الاتجاه نحو الساحل وبالتالي تحوّل نمط التجارة من تجارة بريّة إلى تجارة بحرية، واتّخذ أمراء صنهاجة عواصم ومدن محصّنة جديدة للتأقلم مع هذا الوضع، وهذا ما أدّى بالناصر بن علناس إلى هجران القلعة واختطاط مدينة بجاية بالساحل³ 461/1069م، وكذا اتّخذ المعز الزيري للمهدية عاصمةً لدولته، هذه تعتبر أولى النتائج الاقتصادية لدخول القبائل الهلالية إلى إفريقيا والمغرب، والتي سنتوسّع في شرحها في الفصول القادمة، ولعلّ محمد القبلي يلخّص ذلك بنموّ البحرية الملاحية الإيطالية ببعض موانئ الشمال، فترتّب عليه قفزة في النشاط التجاري وانتعاش اقتصادي في مختلف الأسواق الأوروبية، وفي مقابل ذلك بوادي العالم الإسلامي قد أصبحت مهدّدة من طرف تلك الحركات البدويّة فكانت النتيجة وخيمة على النشاط الاقتصادي المغربي فاضطربت شبكة المواصلات وانقطع التواصل بينها وتضرّر العمران بتضرّر الاقتصاد⁴.

وكنتيجة لما سبق يمكن القول بأنّ حالة المغرب الاقتصادية قبل دخول الهلاليين كانت أحسن حالاً من مصر، رغم ما يظهر من استمرار السياسة الاقتصادية التي شرّعتها الدولة

1 أبو الحسن بن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1970، ص 146.

2 الحسن بن محمد الوزان: وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ج 2، ص 90.

3 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص 43.

4 محمد القبلي: السابق، ص 13.

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

الفاطمية بالمغرب (297هـ-362هـ)، إذ أنهكت كاهل الناس بأنواع الضرائب والمكوس، ويبدو أن خلفاء الفاطميين بالمغرب قد ساروا على نفس المنهاج على إثر وصية المعز لدين الله لخليفته بلكين بن زيري وأهمّها عدم رفع الجباية عن أهل البادية، وأهل البادية كما تقول بوبة مجاني هم: أهل الشاة والزراعة، ولئن لانت هذه السياسة عند الحمّاديين بالمغرب الأوسط في بدايات دولتهم، إلّا أن تكليف القبائل الهلالية بوظيفة جباية الأموال على إثر السيطرة الميدانية على مجالات المغرب والتي وصفها الطاهر بونابي بـ: "أقبح الصور" في جبي المال، كان له الأثر السيئ في زعزعة العلاقة بين الراعي والرعيّة،

كما شهد النسيج القبلي للمغرب في الفترة السالفة الذكر انهيار كبريات العصبية القبليّة نتيجة السياسة العسكرية للفاطميين من تصفية أفراد تلك القبائل الموالية لبعض الثورات المضادّة لهم، كما استنزفت قوى بعض القبائل نتيجة نشر دعوة الفاطميين، أدّى هذا الوضع إلى بروز أولياء جدد للفاطميين وهم قبيلة صنهاجة التي تمكّنت من دحر أعداء الفاطميين من زناتة وهوارة وإجلانهم نحو المغرب الأقصى وبلاد السودان، وما فتئت أن أصاب صنهاجة بما يعرف بـ: فساد العصبية في القرن 05هـ/11م، كان سببها دخول القبائل الهلالية والسيطرة على مجالات المغرب، وكذا الانتقال إلى بجاية والمهدية.

ولعلنا وضعنا الأصبع على الجرح بتناول القطيعة التي كانت من أهم أسبابها الأزمة الاقتصادية الخانقة بمصر والفقر والضيّق الشديدين للقبائل العربيّة، فتّم انتقال العرب وفق ظهير التملك الممنوح من طرف المستنصر ووزيره، وبالتالي أقطعت أراضي المغرب لصالح القبائل الهلالية، تمكّنت القبائل الهلالية والتي كانت طبيعتها تنافي التحضر، إذ توطّنها بالحجاز ونجد ومن ثم بادية الشام وكذا صعيد مصر جعلها على هامش الحضارة، تمكّنت من السيطرة على

الواقع الاقتصادي للمغرب قبيل الهجرة الهلالية (القرن 04 - 05هـ / 10 - 11 م

الطرق الموصلة بين البوادي والمدن وبالتالي شلّ حركة القوافل التجاريّة مع ممارستها للنشاط الحرابي من قطع للطريق وإخافة النّاس، مما أدّى إلى ظهور نمط جديد في النشاط الاقتصادي بالمغرب وهو نظام الخفارة التي أشرف عليه العرب، كما أنّ السيطرة الاقتصادية الهلاليّة أدّت إلى تحول النشاط الاقتصادي من الداخل نحو السّاحل، أي التجارة البحريّة، بتبدّل الخارطة السياسيّة من انتقال عواصم الصنهاجيين إلى المهدية وبجاية .

الفصل الثاني

الهاليون والنشاط الاقتصادي ببلاد المغرب

المبحث الأول: طبيعة الدول القائمة بالمغرب الإسلامي

1-صنهاجة وسياسة التعاطي مع القبائل الهلالية

2-الدولة الزيانية وتجارب توطين العرب الهلالية

3-المريونيون ودورهم في نقض استقرار الهلاليين

4-الحفصيون وصعوبة التعامل مع القبيلة الهلالية

المبحث الثاني: صعوبات في طريق الاستقرار الاقتصادي الهلالي

1-المشروع الفقهي: شروط تعجيزية وحلول متشددة

2-الشخصية الخشنة والتكوين الأنثروبولوجي للهلاليين

المبحث الأول: طبيعة الدول القائمة في المغرب الإسلامي:

1-صنهاجة وسياسة التعاطي مع القبائل الهلالية:

تظهر جلياً ومنذ بداية دخول الهلاليين إلى إفريقية والمغرب ملامح سياسة صنهاجة اتّجاه العرب الهلالية، فمنذ وصول مؤنس الرياحي إلى المعزّ بن باديس، حاول هذا الأخير استمالته ومن معه من عصبينّه وإغرائه بالانضمام إلى جيش صنهاجة، وهذا ما أشار إليه الهادي روجي مُعلّلاً ذلك بنقص القوات المسلّحة لصنهاجة¹، ورغم تحذير مؤنس للمعزّ من مغبة هذا الفعل إلّا أن المعزّ قام بسجن أخ مؤنس وأهله، ممّا أدى إلى انتفاضة العرب" فعاثوا في البلاد وأظهروا الفساد في الأرض ونادوا بشعار الخليفة المستنصر"²، وأدّى هذا في الأخير إلى انهزام المعز بحيدران سنة 443هـ وتخريب القيروان والكثير من المدن، والانزياح بالعاصمة الزيريّة لتصبح المهدية 449هـ على ساحل البحر المتوسط، إنّ تصرّف المعز مع العرب ينمّ على التسلّط وحبّ الذات، إذ رأى بأنّه سيمكّنه انضمام الهلاليين إلى جيشه من السيطرة عليهم، وكان من المفروض أن يبادر إلى كسب ثقة رؤساء العرب ومنهم مؤنس ومعالجة مسألة جموح أفراد القبائل العربيّة بنوع من الحكمة قد تكون باقّطاعهم بعض الأراضي لتكون مرعى لماشيتهم، إذ كانت هذه غايتهم الكبرى، إنّ تصرّف المعزّ قد مسّ كبرياء العرب ورأوا بأنّهم قد أهينت كرامتهم، وهذا ممّا لا يقبله العربيّ، فأدّى هذا التصرّف الغير مفهوم من أمير صنهاجة إلى إشعال نار الغيرة داخل نفوس الهلاليين، ومن ثمّ الجنوح نحو التخريب والإفساد، فكانت النتيجة وخيمة على النشاط الاقتصادي من إتلاف للأراضي الزراعية والمحاصيل المتنوّعة وتشويه لصورة المدن بالمغرب، ولعلّ الدافع وراء تصرّف المعزّ فعله

1 الهادي روجي إدريس: السابق، ص 245

2 ابن خلدون: العبر، مجلد 06، ص 32.

قبل ذلك من شراء العبيد وتجنيدهم في قوّاته الصنهاجية فاجتمع له 30 ألفاً منهم، وذلك عند فساد عصبية صنهاجة في القرن 11/هـ، فرأى أن يُعامل العرب بمثل معاملة العبيد، وهو ما لم يتقبّله العرب، كما أنّ مُصاهرة المعز لثلاث رؤساء من قبائل العرب تُعدّ من سياسات أمراء صنهاجة للتخفيف من هيجان العرب¹، ولكن هذا بعد تجاوز الزمن للمعزّ الذي أمر ساكنة القيروان بالانتقال إلى المهديّة لعجزه عن حمايتهم، فبدأت العرب بهدم الحصون وقطع الثّمار وتخريب الأنهار.

هذا الهيجان للعرب لم تستطع الدولة وضع حدّ له، ونتيجة لذلك تمّ السيطرة على طرق القوافل وقطع السّبل بين المدن، ممّا أدّى إلى تعطلّ سير القوافل التجارية والحجيج، وانظر لو أنّ الأمر كان تقبّل المعزّ للعرب ومحاولة استئلافهم، ربّما لكان الأمر عكس ما كان.

إنّ غزو العرب لمجالات إفريقية والمغرب جعل صنهاجة في موقف حرج، إذ لم تستطع مدافعة العرب عن مجالاتها، أدّى هذا الوضع الخطير إلى عقد الصلح مع العرب بتملّكهم للضواحي دون المدن والأمصار²، وهي سياسة اتّبعها صنهاجة لتخفيف حدّة هيجان الهاليين، ولو أنّنا نرى بأن سيطرة الهاليين على الضواحي والأرياف شكّل خطراً على المدن وخنقاً عليها، كما أنّه أعطى الحقّ للعرب في التصرف في الأراضي الزراعية والمحاصيل والغابات التي كانت محيطة بالمدن تصرفاً مطلقاً، وهو ما أثّر على نمط النشاط الزراعي، كما أشار إلى ذلك محمد

¹ الهادي: السابق، ص 266.

² نفسه، ص 42.

قويسم من أن في فترة دخول الهاليين شهد المغرب تراجع اقتصاد البادية وظهر ما يعرف باقتصاد البستنة على مشارف المدن وداخلها¹.

إن سياسة التحالفات التي انتهجتها صنهاجة بفرعيها منذ وصول الهاليين تُعدّ من أهم السياسات المتبعة، وهو ما ظهر جلياً في موقعة سببية 457هـ/1065م، وكذلك تكليف العرب بجباية الضرائب فأصبحت وظيفتهم في عهد الدولة الحمادية، حيث يشير الطاهر بونابي من أنه تتجلى ظاهرة الجباية في أقبح صورة حينما كُلف الهاليون بها وما انجر عنه من انعكاسات سلبية على الراعي والرعية²، قال ابن خلدون: " وملكوا عليهم الضواحي يتحيقون جوانبهم ويقعدون لهم بالمرصد ويأخذون لهم الإتاوة على التصرف في أوطانهم"³، فانظر إلى هذه السياسة وما نتج عنه من ازدياد سيطرة العرب على المعابر وأخذ الإتاوة على كل داخل وخارج للمدن، ويقرّر ذلك ابن خلدون في موضع آخر بقوله " وغلّبوا عليها صنهاجة وقهروا من بها من البربر وأصاروهم عبيداً وخولاً للجباية"⁴، كما حاولت صنهاجة التفريق بين قبائل العرب وذلك بخلق الفتن والإغراء بينهم⁵ وكذا مظاهرة قبيل على حساب قبيل آخر مثل ما حصل بمظاهرة الأثبج على حساب رياح وزغبة⁶، وكذا استعمال تميم بن المعز لقبائل زغبة ورياح في حربه ضدّ الخارج حمو بن ومليل صاحب صفاقس⁷، ولعلّ السياسة التي انتهجها تميم بن المعز الصنهاجي تدور حول قاعدة "فرّق تسد" أي

1 محمد قويسم: السابق، ص ص 101-102

2 الطاهر بونابي، السابق، ص ص 50-51.

3 ابن خلدون: السابق، مجلد 06، ص 43

4 نفسه، ص 35.

5 نفسه، المجلد 07، ص 290.

6 نفسه، المجلد 06، ص 42.

7 ابن الأثير: السابق، ج 8، ص 363.

فرّق بين الناس تكن سيّداً عليهم وما أبياته الشعريّة التي نظمها تحريضاً لرياح بأخذ الثأر من عديّ
إلاّ دليلٌ على ذلك إذ يقول:

متى كانت دماؤكم تُطلّ أما فيكم بثأر مستقلّ¹

ومما يبيّن فشل مختلف السياسات الصنهاجية في التعامل مع العرب ما كان من تقاسم
المنصور الحمّادي (481هـ-498هـ/1088-1104م) للمنتوج من محاصيل الأرض وغلاته
نصفاً بنصف مع العرب²، وكذا قيام الناصر بن علناس بتغيير عاصمة دولته سنة
461هـ/1069م نحو بجاية نتيجة الضغط الهالي المغروض عليه³، وفعل قبل ذلك ابن عمّه
المعز مثله بالاتجاه نحو المهدية سنة 449هـ/1057م ممّا نتج عنه عناية صنهاجة بشئون البحر،
فقام أمراء صنهاجة على انحصار رقعة دولتهم بتأسيس أسطول بحري ضخم قام بغارات بحرية
على سواحل جزيرة صقلية وإيطاليا، ولكن المشاكل لا تأتي فرادى كما يُقال، فإن نتائج ذلك كانت
عكسية على بلاد المغرب من غزو النورمان لجربة (531هـ/1136م) وصفاقس (538هـ/1143م)
و بونة والمهدية (543هـ/1148م) وزويلة (552هـ/1157م)⁴، وهو - انحصار رقعة صنهاجة
ببجاية والمهدية - ما يُعدّ رضوخاً للواقع واستسلاماً ضمناً لما آلت إليه الأمور من السيطرة
الهالية، ولو أنّ بني حمّاد في المغرب الأوسط كانوا نوعاً ما أحسن حالاً من الزيريين بإفريقية،

1 أبو البركات الراجكوتي: ابن رشيق، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، مصر، 1343، ص 21.

2 شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات الجزائر-المغرب الأقصى-موريتانيا-السودان، دار المعارف، القاهرة،
ط1، دت، ص38.

3 مع أنّ النويري في نهاية الأرب يجعل سبب بناء بجاية ما كان من وزير تميم المدعو ابن الببع وهو الذي
أشار على الناصر ببناء بجاية. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري،
تحقيق: عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، الجزء 24، صفحات 124-126

4 السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع،
الاسكندرية، مصر، 1999، ص ص 579-580.

نظرا لعدم تعرّض القلعة للتخريب الذي طال مدينة القيروان ومدن إفريقية، ربّما للحواجز الطبيعية وكذا الموقع الحصين للقلعة¹، ومع حلول القرن 06هـ-12م كان الهاليون قد توسّعوا بالمغرب الأوسط بحيث تقدّموا نحو الأطلس التلي وجبال الباور وامتدوا شرقا إلى سهول بونة²، ليدخل بعد ذلك المغرب مرحلة جديدة تحت حكم الموحدّين (515هـ-668هـ/1121م-1269م) والتي عرف حكامها كيفية التعامل مع العرب، لتشهد مرحلتهم نوعاً من الاستقرار والتي سنتكلّم عنها في الفصل القادم.

ومن هنا يمكن القول بأنّ سياسة صنهاجة من بني زيري وبني حمّاد لم تُجد نفعاً في محاولة استقرار الهاليين، فقد أدّى استخدام العرب الهالية إلى جانب هذا الطرف أو ذاك في كثير من الأحيان إلى ازدياد النشاط الحربي لتلك القبائل، ممّا أثر سلباً على النشاط الاقتصادي بشكل خاص.

2-الدولة الزيانية وتجارب توطين العرب الهالية:

تتجلى سياسة بني زيّان اتّجاه العرب في ثلاث محاور أساسية هي: إقطاع الأراضي، إعادة توطين القبائل العربية، وأخذ الرهن.

يرى محمد الشريف أن الدافع وراء تحرّك القبائل العربية نحو الغرب هو السيطرة على المسالك الصحراوية الرابطة بين مصر وبلاد السودان الأوسط والغربي³، أهمها سجماسة و درعة

1 عبد العزيز الفيالي: قلعة بني حمّاد الحاضرة الاقتصادية والثقافية للمغرب الأوسط خلال القرن 05هـ-11م، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، المجلد 04، العدد 07، 2006، ص 09.

2 شوقي ضيف: السابق، ص 39.

3 محمد الشريف: الهجرات الهالية من خلال بعض الكتابات الفرنسية المعاصرة، مجلة المغرب والأندلس، جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عدد 01، 2006، ص 91.

وتلمسان، فهي تعتبر منافذ الذهب والعبيد وأسواق تجارية تلتقي فيها مختلف البضائع والسلع، ومنه اكتست تلمسان أهمية تجارية بالغة نظرا لموقعها الجغرافي إذ هي همزة الوصل بين أوروبا وإفريقيا جنوب الصحراء¹، ولعلّ هذا ما جعل الوزان يصف تجّار المدينة بأنّ أهم أسفارهم هي التي يقومون بها إلى السودان²، وهذا ما أدّى إلى نشوب الصراع في القرن 07 و08 هـ/13-14م بين قوى المغرب الزيانيين والمرينيين تارة، ومع الحفصيين تارة أخرى ومع إمارة بني توجين ومغراوة أحيانا أخرى، فقد زحف يعقوب بن عبد الحق المريني إلى سجلماسة وافتكّها من يد آل يغمراسن سنة 673 هـ/1274م وعادت لبني مرين³، أدّى هذا الوضع ببني زيّان إلى محاولة تقريب بعض القبائل العربية واستمالتها لتكون لها عوناً وشيعةً لهم، مثل ما حدث مع ذوي عبّيد الله من المعقل⁴، كما أن تلك القبائل لها معرفة بمسالك الصحراء ومفازاتها، ويطلعنا ابن خلدون على سيطرة العرب على تلك المنافذ فقصور تيكورارين التي قبلة تلمسان كانت مجالات للعرب من بني عبّيد الله من المعقل وكذا بنو عامر بن زغبة⁵، ولقد كانت هذه القصور يتّاجر منها إلى بلاد السودان.

ومن هذا المنطلق كان على الدولة الزيانية انتهاز بعض السياسات الكفيلة بتسيير الوضع الآني للمملكة وكذا التخفيف من وطأة هيجان تلك القبائل وجعلها في صفّها، فتتوّعت السياسة المتبعة في هذا المجال لعلّ أهمّها:

1 بوداية مبخوت: العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيّان، مذكر لنيل دكتوراه دولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، 2005-2006، ص 266.

2 الوزان: السابق، ج2، ص 21.

3 ابن خلدون: العبر، مج 07، ص 176.

4 نفسه، ص 175.

5 ابن خلدون: العبر، مج 07، ص 118-119.

*توطين القبائل الهلالية : فاتخذت لهم الدولة القصبات¹، والتي كان يوضع فيها الرهن، وعادة ما تكون هذه القصبات خارج المدينة أو على حواف المدينة، وهو ما فعله أمراء بني زيّان، فكانت بالقرب من تلمسان قسبة جُمعت فيها الرهن فامتلات بهم، وأذن لهم بابتداء الدور والمنازل، واختط لهم المساجد، واتخذوا فيها الأسواق وكثرت الصنائع، وهو ما أثر في طبيعة الأنشطة الاقتصادية بتلمسان الزيانية، وأدى إلى شيوع أنماط اقتصادية بدوية، فقيام يغمراسن أول الأمراء الزيانيين بإنزاله لعرب بني عامر بجوار تلمسان، نكاية في عرب المعقل لما كثر فسادهم² تُعدّ من سياسات توطين الهلاليين، والتي كان لها أثر اقتصادي من انتشار لحرفة الخياطة والحياكة والنسيج وغيرها من الأنشطة البدوية، ولعلّ ابن مرزوق كان ممّن أجلى لنا تلك الصورة، حيث يذكر بأنّ جدّه كان يمتهن عمل الحاكة من الصوف الرفيع "... التي كانت تلمسان تختص به"³، وهو ما جعل أبي الحسن المريني(731-749هـ/1331-1348م) ينتقي من ثياب الصوف التي كانت ترد إلى مملكته، فكان يتخيّر لجلسائه أجودها، ويتخيّر لنفسه أدناها⁴ (كناية على تواضع الأمير، ولعلّ أدناه هذا مما يُتخيّر على أحسن الثياب في مناطق أخرى من العالم)، ومثلها حرفة الخياطة فذكر ابن مرزوق، صاحب جدّه الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن علي " .. وكان من كبار المُعظّمين بتلمسان

1 يعرفها ابن خلدون بأنها الغور الفسيحة الخطّة تماثل بعض الأمصار العظيمة، واتخذت هذه القصبات لجمع الرهن، حتى شحنها بالأمم بعد الأمم، وشبّها ابن خلدون بالسجن في قوله: ... وكان حال هذه البنية من أغرب ما حكى في العصور عن سجن. أنظر ابن خلدون: العبر، مج 07، ص 215.

2 ابن خلدون: العبر، مج 07 ص 387.

3 أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني: المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط1، 2008، ص 188.

4 أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريّا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 129.

وكان يتعشّ بالخياطة وكانت له حانوت يجلس فيه للخياطة...¹، حرفتا الخياطة والحيّاكة من الحرف المعروفة والمتداولة لذلك العهد بتلمسان، وهي تحتاج إلى أنواع معيّنة من الأدوات والمواد الأولية المتمثلة في الصوف والقماش والجلد وغيره، وهذا ربّما ما وفّره العرب الهلالية، إذ امتلاكهم للماشية والإبل يجعل للمواد الأولية الوفرة في السوق ممّا أدّى إلى انتشار مثل هذه الحرف، وتوسّع ابن مرزوق في ذكر الحرف فذكر منها حرفة الخطّ والنسخ والتي اشتهر بها بعض الصوفيّة كالشيخ الصالح أبو عبد الله ابن البلد .. وكان من كبار الأولياء المتعبّدين يتعشّ بالنسخ²، وهي مهنة تحتاج إلى مادة أولية تتمثّل في القصب لجعلها أقلاما للكتابة، وكذا الحبر الذي يمثّل الصّوف مادته الأولى وهو معروف متداول إلى عهد النّاس هذا، وهو ما استطاعت قبائل العرب أن توفّره حينئذ، وهذا ما جعل الطاهر بونابي يُطلق على هذا النمط من الاقتصاد بـ "الدورة القصوى للاقتصاد البدوي"³، إذ كانت مدينة تلمسان تلبي حاجياتها من المواد الأولية من خلال توفير القبائل العربية لتلك المواد، وهو ما جعل عرب بني عامر يبرعون في صناعة البرانس وهي الغفارات⁴، ولعلّ ما يزيدنا تأكيدا على حاجة المدينة للصناعات والحرف اليدويّة ودخولها خاانة الاقتصاد البدوي، ما كان من تخريب للرأس المال التلمساني على يد الحفصيين، فابن مرزوق يتكلّم عن والد جدّه وكيف أنّ رأس ماله ذهب نتيجة الدخول الحفصي لتلمسان 646هـ/1248م⁵ إذ يقول "وفي هذه الدّخلة ذهب أكثر ما كان بيد أبي عبد الله الأكبر والد جدّي رحمة الله عليهم"،

1 ابن مرزوق: المناقب، ص 180.

2 نفسه، ص 185.

3 الطاهر بونابي: السابق، ص 180.

4 ابن مرزوق: المناقب، ص 276.

5 محمد بن عبد الله التنسي: تاريخ بني زيان - مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان-، تحقيق:

محمود آغا أبو عياد، موفم للنشر، الجزائر، 2011، ص 117.

وكذلك حصل لأرباب الأموال والتجارات في تلمسان على يد الحفصيين، ومنهم: أبو عبد الله المدخس وإخوته، وبني اللجام القاضي والخطيب وإخوانهما وابن حسّون وابن الجلاب وغيرهم¹، ويضاف إلى الأسباب السالفة الذكر سبب آخر وهو الطاعون الجارف لسنة 749هـ/1348م، والذي أودى بحياة الكثير من العلماء والصنّاع والحرفيين وأرباب الصناعات²، وهو ما أثر على الأنشطة الاقتصادية بالمغرب ككل .

*إقطاع الأراضي، وسياسة التحالفات وأخذ الرهن:

يعتبر إقطاع الأراضي من سياسات أمراء بني زيان للعرب الهلالية وذلك استئلافا لهم ودرءاً لفسادهم، وهو ما فعله أبو موسى حمّو الثاني من إقطاعه القلعة (قلعة بني سلامة) وبني يدلتن لبني عريف ثمّ أقطعهم بني مادون ومنداس³، وكذلك فعل مع عرب المعقل وأقطعهم بمواطن تلمسان وأخى بينهم وبين زغبة⁴، وكذلك فعل الأمير الزياني مع عرب أولاد حصين، العمارنة والمنبات حين استجاروا به فأكرمهم وأكبر إقطاعاتهم⁵، وحينما وفد عليه رجال من المعقل مستصرخين مطالبين بأراضي المغرب، قال يحيى: "... فأكرم نزلهم وسهّل لهم قصدهم ووعدهم

1 ذكر ابن مرزوق قصة عثور الحفصيين على هذه الأموال، إذ بعد دخولهم المدينة اختفى أكثر التجار وأهل الأموال في القنوات والمطاهر وغيرها، فدلّهم عليها تاجر أندلسي، وبعد تهديده قال: لا تهدّدوني ولا نهّدكم، جميع ما رزقني الله وأهل هذا الزقاق المغابن في هذا الموضع وأشار إلى الموضع، فاحتمل جميعها وكانت فيها أموال لا تحصى كثرة. أنظر ابن مرزوق: المناقب، ص ص 172-173.

2 عبد الرحمان بن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غريباً وشرقاً، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1979، ص 20.

3 ابن خلدون: العبر، مج 07، ص 338.

4 نفسه، ص 260.

5 أبو زكريا يحيى بن خلدون: بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ج 2، ص ص 420-421.

إبلاغهم مناهم... فانصرفوا لإثارة الحرب بسجلماسة وما إليها¹، كما انتهج أبو حمو موسى الثاني سياسة التحالفات مع العرب من خلال تحالفه مع بني عامر ورياح وكان يهدف من هذا القضاء على أولاد عريف الموالين لبني مرين²، وكذلك حالف أول الأمراء الزيانيين قبيلة المنبات من عرب المعقل وكان يبعث ابنه لضبط جباية سجلماسة³ وكان العرب عوناً له في ذلك، فانظر إلى استخدام العرب في جمع الجبايات والضرائب لصالح الدولة، ولعل قبائل بني عامر كانت لهم اليد الطولى في تجديد دولة بني زيان بمشاركتها في اقتحام تلمسان وطرده الحامية المرينية 760هـ/1359م⁴، فسياسة أخذ الرهن هي بدورها أدت إلى عدم الاستقرار الهالي وبالتالي عودة القبائل العربية إلى أسلوب الحراية، والرهن أن يأخذ الأمير أحد إخوة أو أبناء رئيس القبيلة ويجعله عنده كرهينة ضماناً لعدم قيام تلك القبيلة بأعمال تضر بالدولة، أو يأخذ الرهن مقابل عمل معين، وهو ما حصل ليحيى ابن خلدون الذي أمره أبو حمو بالتفاوض مع شيوخ رياح، فحمل معه أربعة من بنين لهم اثنان كرهن واثنان للتفاوض، ولحقه شيوخ القبيلة فأكرمهم أبو حمو بأنواع الهدايا والثياب والعطايا والأموال، قال يحيى: "فانصرفوا مأمورين بمضايقه حصين"⁵، فانظر إلى تلك السياسة التي تجعل العرب في صراع دائم مع بعضهم البعض لفائدة الدول القائمة.

كما أن بعض الأمراء الزيانيين نقضوا استقرار العرب بملاحقة فلولهم إلى الصحراء والقفرة، مثلما فعل ثاني الأمراء أبو سعيد عثمان من تتبّع العرب إلى تغالين في الصحراء،

1 يحيى بن خلدون، السابق، ص 322.

2 نفسه، ص ص 62-64.

3 علي بن أبي زرع الفاسي: النخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1972، ص ص 139-140.

4 عبد الحميد حاجيات: أبو موسى الزياني حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 89.

5 يحيى ابن خلدون: السابق، ص ص 386-387.

فاقتحموا البلاد المتلفة فراراً منه¹، وكذلك فعل أبو تاشفين عبد الرحمان سنة 719هـ/1319م مع قبيلة رياح لما نهض إلى يوسف بن محمد التائر على أبيه، قال التنسي: "وأخذ رياحاً في طريقه أخذة رابية"²، وبالرجوع إلى إقطاع بني زيان العرب للأراضي، استغلّ العرب بعض الفتن والحروب الداخلية للظفر بمساحات كبيرة من الأراضي طوعاً أو كرهاً على الدولة، وهو ما حصل خلال الفتنة بين أبي حمو موسى وابن عمّه أبو زيان ومساندة عرب حُصين له سنة 767هـ/1366م، استغلّت زغبة ذلك وتملّكت سائر البلاد بالإقطاع عن السلطان طوعاً وكرهاً³.

3- المرينيون ودورهم في نقض استقرار الهاليين:

يبدو أن تعامل المرينيين مع العرب الهاليتية منذ البداية لم يكن ليناً، فقبل توطيد حكم المرينيين كانت المواجهة عنيفة بينهم بقيادة عبد الحق بن محيو سنة 614هـ/1217م من جهة وعرب رياح من جهة أخرى، قال صاحب الذخيرة: "... فنُصرت بنو مرين وهُزمت رياح، وقتل مرين منهم خلقاً عديداً وفرّ من بقي منهم مهزوماً خائفاً شريداً، واحتوت مرين على جميع ما كان في خللهم من الأموال والخيول والعدد والشباب والإبل والدواب"⁴، وهذه الواقعة قُتل فيها الأمير المريني، وهو ما دعى ابنه أبو سعيد عثمان بالندر أن يقتل من شيوخ رياح مائة شيخ، فقتل منهم خلقاً عديداً وأذاقهم وبالاً شديداً⁵، ما أدى برياح إلى الإذعان للطاعة وتأدية الضريبة كل عام على

1 التنسي: السابق، ص 130.

2 نفسه، ص 143.

3 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص 101.

4 ابن أبي زرع: السابق، ص ص 33-34 وأنظر ص 50.

5 مجهول: الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1979، ص 172. وأنظر كذلك: ابن أبي زرع: السابق، ص 35.

مال معلوم¹، وهو ما أشار إليه ابن خلدون في قوله: "وفي سنة 637هـ/1239م انتشر بنو مرين انتشاراً كبيراً في بسائطه وقاتلهم رياح، فهزموهم بنو مرين وقتلوهم قتلاً ذريعاً"²، ولعلَّ اشتداد بني مرين على العرب وعلى رياح خاصّة أثر في ديموغرافيا تلك القبائل، فأدى ذلك إلى تناقص أعداد أفراد تلك القبائل، وهو ما نقله ابن خلدون "...تتبع السلطان أبي ثابت حفيد يوسف بن يعقوب سنة 707هـ قبائل رياح فقتلهم، فصاروا بالعدد القليل ولحقوا بالقبائل الغارمة، ثم دثروا وتلاشوا"³، وفرّ شيوخ العرب من بطش المرينيين كما فعل شيخ عرب المعقل يوسف بن علي بن غانم لما فرّ من السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم سنة 793هـ/1391م، ولم يستطع دخول المغرب إلّا بعد شفاعة الظاهر برقوق صاحب مصر له⁴، وأكثر من هذا كانت المبايعات تتمّ على السمع والطاعة وقاتل قبائل العرب، كما حدث في مبايعة الأمير أبي بكر بن عبد الحق ومبادرته بعد ذلك في أول عمل بعد استلامه لزامام الإمارة قتله وتنكيله بقبيلة رياح (643هـ/1245م)⁵، وتواصلت سياسة بني مرين في اجتثاث أصول العرب طوال حكمهم، وما تسيير الحملتين العسكريتين الكبيرتين في القرن 8هـ - 14م إلّا دليل على ذلك، حملة أبي الحسن المريني سنة 749هـ/1348م، وحملة ابنه أبي عنان 758هـ/1357م، وما كان من نتائج أُعتبرت وخيمة على استقرار الهالبيين، رغم أنّ بعض شيوخ العرب تقلّد مكانة في بلاط حكم بني مرين مثل عريف بن يحيى بن عثمان السويدي الزغبى، إذ كان مُقرّباً عند السلطان أبي الحسن ووصل إلى مرتبة رفيعة⁶.

1 ابن أبي زرع: السابق، ص35. وأنظر: ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن، ص 112.

2 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص 537.

3 نفسه، ص 79.

4 ابن خلدون: ابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص 375.

5 ابن أبي زرع: السابق، ص64.

6 ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن، ص 367.

أدت سياسة بني مرين المبنية على التقتيل والتهجير ومحاولة تصفية شيوخ العرب إلى انقراض الاستقرار الذي عرفته بعض القبائل العربية في زمن الموحدين، عهد الموحدين الذي ارتبط ببناء قصور العرب في بلاد الزاب والصحراء، خربت تلك القصور والرباطات وأصبحت أثراً بعد عين، فقيام وزير السلطان عبد العزيز المريني المدعو ابن غازي بعد ملاحظته للسلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني بتخريب قصور بني عامر حلفاء بني عبد الواد دليل على ذلك¹، وكذلك كان الحال في حملة أبي الحسن وفرار بنو عامر إلى القفر بعد أن كانوا مُستقرين²، ولما افتتح الأمير المريني أبو علي بن أبي سعيد قصور توات وتيكورارين وتمنطيت وبلاد السوس بعد مساعدة العرب من المعقل، تغلب على ضواحيها وأثنى في عرب ذوي حسان والشبانات وزكنة بالقتل حتى استقاموا على طاعة بني مرين³، كما قام الأمير أبي ثابت حين تقبض على 60 من أشياخ العرب من عرب جشم من قبائل الخلط وسفيان وبنو جابر والعاصم، فقتل منهم بالمكان المسمى أنفى 20 ممن اشتهر عليه قطعه الطريق وإفساد السابلة وممارسة الحراية، ثم فعل بعرب رياح مثل ذلك بالهبط وأزغار⁴.

فهذه السياسة المعتمدة من طرف أمراء بني مرين تكاد تكون عادة في ملكهم وحكمهم يتواصلون بها أميراً بعد أمير، وهو ما أدى بالكثير من عرب هلال الرجوع إلى وضع النشاط الحراي التي انخفضت حدته في ظل دولة الموحدين، ما انعكس على اقتصاد الدولة من إتلاف للأراضي الزراعية، وتهديم وتخريب للقصور التي كانت مأوى العرب واستقرارهم ومارسوا خلالها

1 ابن خلدون: ابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص 148.

2 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص 99.

3 ابن خلدون: العبر، مج 07، ص 508.

4 نفسه، ص 491.

أنوعاً من الأنشطة الزراعية، فعُرفت هذه القصور بالحدائق الغناء والأشجار وأنواع الثمار، وكانت في نفس الوقت رباطات للمتصوفة، إذ عمد الأمير أبو الحسن وابنه أبي عنان إلى تخريبها، وهو ما سنحاول تبينه في الصفحات القادمة.

• الحملات العسكرية المرينية في القرن 14هـ-14م:

شهد القرن 14هـ-14م تسير أعظم حملتين عسكريتين بالمغرب الإسلامي، الأولى بقيادة الأمير المريني أبي الحسن والثانية بقيادة ابنه أبي عنان، ولئن حاولت الاسطوغرافيا التاريخية المغربية إظهار تلك الحملات في صورة المسير إلى الحج وتأديب القبائل العربية، إلا أن النتيجة كانت كارثية على تلك القبائل أدت في الأخير إلى نقض الاستقرار الذي عرفته هذه القبائل في ظل حكم الموحدون.

أ- السبب في مسير الحملات العسكرية:

تعددت دواعي تسير الحملات العسكرية المرينية، فقد سارت الحملة الأولى تحت إمرة أبي الحسن المريني إلى إفريقية سنة (748هـ/1347م)، فالكفيف الزرهوني حاول تزيين صورة تلك الحملة وجعل سبب خروج الأمير هو تأمين طريق الحج، قال في قصيدته:

وأعظم من ذا وأجلّ تفتح طريق الحجّ للحجاج¹

1 الكفيف الزرهوني: الملعب، تحقيق: محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1987، ص 70. يورد الزرهوني في قصيدته الممّدة لأبي الحسن ومسيره إلى إفريقية العديد من الأسباب الداعية لخروجه ومنها القضاء على قطاع الطرق من العرب المفسدة فيقول: وتنقيها من العدوّ الببسا حتى تمشي فيها المرأ بالتاج -نفسه، ص 70، كما أنه من ضمن أسباب الخروج تغيير المناكر ولعلّ أهمّها انتشار الخمر ببجاية ومنع تصدير القمح عبر موانئها فيقول: صاب في بجاية من الثلث خمر كلّ خليع عند منا وادي فأهرقها في النهر حتى صار خطأ يعدّها العادي ووجد رومي يوسق على الحفرا قرقر قمح قد تزران=

ولعلّ السبب الرئيس في خروج أبي الحسن ومن بعده أبي عنان¹ هو محاربة قبائل العرب، إذ لما أقطعت بنو عبد الواد والحفصيين العرب الأراضي إعتزت قبائل العرب على الدولة لكثرة إقطاعاتهم من الضواحي والأمصار، كما اشتكت الرعيّة من الجور والظلم من أفعال العرب بسبب الإتاوة المسمّاة الخفارة، فقبض أبو الحسن على أيديهم فكان من اجتماع العرب لمحاربة بني مرين، وخاصة أولاد أبي الليل وأولاد مهلهل وأحياء بني كعب وحكيم بتوزر²، ونفس السبب دعى أبي عنان للخروج من كثرة ما رأى من إقطاعات العرب واعتزازهم على الدولة، فعزم على محاربتهم والإيقاع بهم، وطالبهم بالرهن فأعرضوا فكان من حملته التي أسفرت عن إجفال عرب رياح نحو بلاد الزاب ومنها إلى القفار تاركين قصورهم خراباً³، فانظر إلى سياسة بني مرين في انتزاع

=فسخ بيع وملك الفقرا ودفع لو من مخازن الأثمان -نفسه، ص 75. ويورد سيبا آخر من نزاع الظلم والغرامات والإتاوات وتغيير المنكر، ولعلّ الغرامات والإتاوات المقصودة ما كانت تأخذها القبائل العربية من السكان ظلماً وجوراً، يقول صاحب الملعبة:

صبت ظلماً وبحر من خمرا من حدّ إفريقية لمزغنان
وطريق الحج عطلوا المجرا تحلب فيها مصارن الركبان
كان يأتي الحبيج بالرحيل والزداد ويردّو قبل يعقد الحجّا

مع ما كان جرى من شراب وفساد والمسجون يسجن اربعين حجا -نفسه، ص ص 108-109.

1 ابن الحاج النميري: فيض العباب وإفاضة قذاح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص70، وانظر ص 282

2 ابن خلدون: العبر، مج 07، ص ص 569-570، مجهول: السابق، ص 170.

3 نفسه، ص 619، كما ذكر ابن خلدون في العبر أسباباً أخرى في خروج حملات بني مرين، أهمها: الدور الذي لعبه حاجب الحفصيين ابن تافراكين في ترغيب أبي الحسن للاستيلاء على إفريقية - ص 557-، وكذلك استتجاد عرب الكعوب بالأمير المريني لما ساء لهم الأمير عمر بن أبي يحيى الحفصي من الظلم - ص 569-، ويشير إلى سبب آخر وهو رفض سلطان الحفصيين مصاهرة أبي الحسن - ص ص 556-557-، كما تطرّق ابن خلدون إلى الجانب النفسي للأمير المريني من كونه يحبّ الفخر يتناول به إلى مناغة الملوك الأعظم ومما يدلّ على ذلك هداياه إلى ملوك الأرض: ملك مصر الناصر قلاوون، وملك مالي منسا سليمان- نفسه، صفحات 552-555. وكان أبو الحسن قد قوّض استقرار العرب قبل ذلك بعد أن أشار عليه يحيى بن العز من بني يزناسن بامتلاك قصور العرب من بني عبيد الله في الصحراء فكان من امتلاكها وتخريبها- ابن خلدون: العبر، مج 06،

الهاليون والنشاط الاقتصادي ببلاد المغرب

الأمصار من أيدي العرب ومنعهم من أخذ إتاوة الخفارة وتشريدهم في القفر من الصحراء، مما أدى إلى انتقاضهم والتنكر لهم والرجوع إلى حالة الهيجان مما أثار سلباً على الطرق التجارية وقوافل الحجيج، ولعلّ أبو الحسن المريني نفسه كان ممّن يعطي الأموال والهدايا للعرب درءً لفسادهم وضماناً لعدم تعرّضهم للقافلة، فابن مرزوق وفي معرض حديثه عن القافلة التي كانت تحمل الهدايا الكثيرة لملك مصر الناصر بن قلاوون قال: "... وبرسم العطاء للعرب في الطرقات 3000 دينار من الذهب ومن الكسّى مائتان و..."¹.

ب- نتائج حملات المرينيين على العرب الهلالية

تظهر النتيجة الأولى في عودة العرب من بني هلال إلى وضع النشاط الحرابي وبقوة، إذ أحسّ العرب أنهم مُسوّا في امتيازاتهم التي أصبحت حقاً، من جمع الجباية والضرائب والإقطاعات المختلفة²، فكانت النتيجة عودة العرب إلى أسلوبهم القديم المتمثّل في الحراية، فحاربوا السلطان وكانت هزيمة أبي الحسن مدويّة، قال الزرهوني:

في عرب يصبح وفي عرب يمسي منهم يرحل وبينهم ينزل³

كما زاد اعتزاز العرب على الدول "... واستطالوا في طلابهم بعد أن كانوا مكبوحين بحكمة الغلب على التطاول إلى مثلها"⁴.

1 ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن، ص454. ولعلّ ابن مرزوق نفسه كان ممّن أشار على الأمير أبي الحسن في السير إلى إفريقية، إذ أنّه يحبّ هذا من وجه، لاتصال طريق الحج والحجاز واتّحاد البلاد، ويكرهه من وجه آخر لما في بلاد إفريقية من الشغب والبعد عن الوطن وتحمل المشاقّ-نفسه: ص355.

2 ابن مرزوق: المناقب، ص39.

3 الكفيف الزرهوني: السابق، ص77.

4 ابن خلدون: العبر، مج06، ص160.

أما النتيجة الثانية فتخريب قصور ورباطات العرب الدالة على استقرارهم وممارستهم لبعض الأنشطة الاقتصادية كالزراعة، ولعل النميري لم يستطع إخفاء إعجابه بقصور العرب ومنها قصر عثمان بن علي بن أحمد الرياحي: "وكان قصرا منفسح المساحة منخرق المساحة قد ارتفعت حيطانه من جهاته الأربع بالحجر المنجور المعروف بالعيسوي ... لا ترميه المجانيق إلا كاد يعدو عليها شرره..¹"، وكدليل على ممارسة العرب للزراعة يقول النميري مواصلاً وصف القصر "وحقت بهذا القصر جنّات تعرف في وجوها نضرة النعيم، وحدائق تسهل ألفت أغصانها السنة النسيم، وتنسي حمائم شجراتها الزائقة غناء رائقة، وخصلة تتخذ ذرّ السخاب من ذرّ السحاب.. وخضرة تسبي بالأنفاس العطرية..²"، وانظر ماذا فعل المرينيون بهذه القصور والحدائق "فعمّوا شجرها قطعاً وأعدموها أصلاً وفرعاً وقرعوا كبد أرضها قرعاً ... وخزّت حيطانها إلى الأدقان وانسلّت أرضها من ربة الغصب والعدوان"³، ولم يستثن التهديم القصور الأخرى فخربت معها: قصر باينة وهو قصر بناه سعيد بن موسى بن أحمد الرياحي، وكذا القصور التي شيدت على أنقاض المدينة الرومانية لميس، وازداد الأمر سوءاً بإضرار النار في تلك القصور والقلاع فكانت أثراً بعد عين⁴، كما نستشف من بعض النصوص الواردة في فيض العباب استخدام بني مرين لسياسة أخذ الرهن والتي أنف منها العرب مما دعاهم إلى "ولم يكن بأسرع من إخافتهم للسبل وقطعهم للطرق الذلل وشنّوا الغارة على الضعفاء واختلسوا ما وجدوه في الخلاء"⁵.

1 النميري: السابق، ص 413

2 نفسه، ص 414.

3 نفسه، ص ص 415-416

4 نفسه، ص 416-418.

5 نفسه، ص 388

ومما يزيدنا يقينا على أنّ استقرار العرب كان في عهد الموحّدين، ما كان من حملة أبي الحسن إذ بعد محاصرتهم له نصّبوا عليهم أحمد بن عثمان بن إدريس وتمّت مبايعته، وهو كما قال ابن خلدون: " من بقيّة آل عبد المؤمن من عقب أبي العباس إدريس الملقّب بأبي دبّوس آخر خلفائهم بمراكش"¹، وكذلك بلاد الزاب بعد أن اقتحمها أبو عنان المريني وتفقد أحوالها وجد بها المخازن مملوءة بأنواع الأطعمة والحبوب والزرور، وعيشة أهلها في رغد وآخارهم للتمور المختلفة، وهو ما حمل الأمير إلى تعطيل الزراعة بتلك المناطق والاقتصار على ما تنتجه الغابات، كما أصدر مراسيم لأهل الزاب بحجز ممتلكات العرب ورفع الغلّات في جملة جبايات الدولة²، وقول صاحب الملعة عن العرب وامتداحهم لعبد المؤمن بن علي بقوله:

فتلاطت العرب وزاد أمرا حتى قالوا عجب لذا الانسان

ما راد يخلف دنانير الصفرا غير منّا في الزكا وفي أمر هان

نحن هنا من زمان عمر وعلي وكثرنا من سلاله الصحبا

ودركنا عبد المؤمن بن علي وملكها من سلا لأرض سبأ

ما فخر قط بنوق ولا بزلي من دبّاب والكعوب مع زغبا³

كما يبيّن هذا عدم استطاعة العرب القيام بأعباء الحكم والتنظيمات السياسيّة للدولة دون اللجوء إلى أطراف أخرى، أي أن الظاهرة الهلالية كانت تابعة لسياسات الدول القائمة آنذاك.

1 ابن خلدون: العبر، مج 06 ص 155 وأنظر كذلك مج 07 ص ص 572-573

2 النميري: السابق، ص 452.

3 الزرهوني: السابق، ص 90.

4-الحفصيون وصعوبة التعامل مع القبيلة الهلالية

لم تخرج سياسة الحفصيين اتجاه العرب عن إطار سياسات باقي الدول الأخرى، إذ حاولت إرضاء بعض العرب بإقطاعهم للأراضي، كما فعل الأمير أبي اسحاق بن أبي زكريا (678هـ-683هـ/1279م-1284م) سنة 679هـ/1280م لما استولت العرب بتونس على الدور والقرى ونهبوا الأموال والحريم، وهو أول من كتب البلاد الغربية للعرب بالظواهر وزاد لهم في العوائد¹، وكذلك فعل قبله الأمير أبو زكريا يحيى (634هـ-647هـ/1237م-1249م) لما اعتز عليه عرب الدواودة استجلب عرب بني سليم من مضاربهم بطرابلس وأنزلهم بالقيروان وأقطعهم بإفريقية²، وكما سبق ذكره فإن السلطان أبي اسحاق يُعدّ أول من كتب للعرب بظهير التملك للإقطاعات بإفريقية الحفصية، فصارت تلك الأراضي ملكا للعرب بوثيقة رسمية من الدولة، وعلى خطى سلفه قام السلطان أبو حفص المستنصر (647هـ-675هـ/1249م-1276م) بمكافأة العرب بإقطاعات كبيرة وجعل المغارم لهم نظير قيامهم معه بقطع ثورة الدعي ابن أبي عمار³، ويبدو أن هذه الاقطاعات الممنوحة للعرب من طرف الدولة أدت إلى اعتزاز العرب أيما اعتزاز جعل ابن خلدون يعلّق على عطايا الدولة للعرب بقوله: "وكان لهم اعتزاز هؤلاء العرب على السلطان والدولة لا ينتهي إليه اعتزاز ولهم عنجهية وإبائية وخلق في التكبر والزهو غريزة..."⁴، كما تميّزت سياسة سلاطين بني حفص بموالاة بعض القبائل على الأخرى مما أدى إلى انزياح بعض القبائل عن أوطانها ومجالاتها إلى مجالات أخرى وإلى القفر من الصحراء أحيانا أخرى، مثل مناصرة المستنصر الحفصي

1 أبو العباس أحمد بن القنفذ القسنطيني: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: محمد الشادلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968، ص 139.

2 ابن خلدون: العبر، مج 07، ص 568.

3 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص ص 696-697.

4 نفسه، ص 158.

للكعوب الذين حاربوا مرداس وأخرجوهم من إفريقية إلى القفر، فإذا انحدرت الكعوب إلى مشاتهم بالقفر أجفلت مرداس إلى القفر البعيد¹، وكذلك كان الحال مع بني عوف وسيطرتهم على الضواحي بإفريقية وإزاحتهم لرياح والدواودة إلى بلاد الزاب وبجاية وذلك بمناصرة السلطان²، كما أنّ من أسباب تهجير وإعادة توطين تلك القبائل يرجع إلى مساندتها لبعض الحركات المناوئة للدولة، فقيام السلطان أبي زكريا الحفصي بإخراج رياح من إفريقية وإتيانه بقبيلتي مرداس وعلاق من عوف كان كنتيجة لمساندة رياح وخاصة الدواودة لحركة بني غانية الخارجة عن الدولة³، أو بسبب الفتن داخل البيت الحفصي، فقد قام السلطان أبي اسحاق (678هـ-683هـ/1279م-1284م) بتولية الفضل بن علي من بني مزني على ولاية الزاب ولأخيه عبد الواحد على ولاية الجريد، نظير مظاهرتهم له على أخيه السلطان المستنصر (647هـ-675هـ/1249م-1276م)⁴، وهما كما نعلم إمارتين حساستين في المغرب واسعتي المجال، ويبدو أن فقدان الامتيازات أو الإحساس بتهميش الدول للهاليين يدفع بهم إلى إعلان الثورة أو تأييد الثائرين، وهو ما حصل مع عرب المعقل من الثعالبية بمتيجة من تأييد ابن علّان الذي ثار على الحفصيين وأعلن استقلاله عنهم بمدينة الجزائر، إذ رأى الثعالبية تراجع امتيازات كانت تمنح لهم في ظل حكم الموحدين⁵، وهو ما يزيدنا تمسكاً بأنّ العرب وجدوا نوعاً من الاستقرار في عهد الموحدين.

1 ابن خلدون، العبر، مج 06، ص 148.

2 نفسه، ص 146.

3 نفسه، ص 145.

4 مصطفى أبو ضيف أحمد: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية في عصري الموحدين وبني مرين، مطبعة دار

النشر المغربية، ط1، 1982، ص 135.

5 عبد المالك بكاي: الحياة الريفية في المغرب الأوسط من القرن 07هـ-10هـ، النشر الجامعي الجديد،

الجزائر، 2018، ص 75.

هذه السياسة الحفصية أفضت كسابقاتها من سياسات بني مرين وبني زيان إلى عدم استقرار العنصر الهالي، ولعلّ نصوص الرحلة المغربية للعبدري (ت720هـ/1320م) تبين مدى سيطرة الأعراب على الطرق والمجالات بإفريقية، فعند رجوعه من الحج وفي طريقه بين القيروان والساحل وصف تلك المنطقة بالمعطلة لفساد البلاد واستيلاء العربان عليها، وكانت قبل ذلك متصلة بأشجار الزيتون¹ على حدّ تعبيره، وسيطرة العرب الهاللية تعدّ ظاهرة جليّة في نصوص العبدري في وصفه لبرقة² وباجة³ وغيرها، ومهما قيل في نصوص العبدري التي تدلّ على حالة نفسيّة غير مستقرّة للرحالة المغربي، الذي لم يعجبه أي شيء في المغرب الأوسط وإفريقية ومصر، بحيث يصف جلّ المدن والأمصار بعدم وجود أهل العلم ودروس العلم بها، وأنّ جلّ ساكنيها يغلب عليهم الجهل، فإننا نستشف من خلال تعامل الدولة مع العرب جنوح الهالليين إلى أسلوب الحرابة، خاصة إذا علمنا معاملة سلاطين الحفصيين مع أشياخ العرب مثلما فعل السلطان أبي حفص (683هـ-694هـ/1284م-1295م) من تقبّضه على أشياخ رياح فضرب أعناقهم وانتهب أسلابهم ونُصبت أشلاؤهم بزرابية، حيث كانت بيعتهم لأبي القاسم ابن عم السلطان والخارج عليه، وبعث برؤوسهم إلى بسكرة فنُصبت، ولم يقنعه ذلك بل أغدّ السير غازياً إلى أحيائهم بالزاب⁴.

1 محمد العبدري البلنسي: الرحلة المغربية، منشورات بونة للبحوث والدراسات، ط1، 2007، ص 152

2 نفسه، ص ص 133-134

3 نفسه، ص 66.

4 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص 662.

المبحث الثاني: صعوبات في طريق الاستقرار الاقتصادي للهاليين

1- المشروع الفقهي: شروط تعجيزية وحلول متشددة

أشار الهادي روجي إلى امتعاض وغضب فقهاء القيروان من أساليب العرب في البيع والشراء، وذلك لما فتح لهم المعز بن باديس أسواق المدينة وأباح لهم دخولها لممارسة البيع والشراء¹، ويعلل ذلك بأن كل ممتلكات العرب المعروضة للبيع كالمواد الزراعية والأمتعة جاءت من طريق غير شرعي، فهي على حدّ تعبيره مصدرها النهب²، وربّما يعود ذلك إلى نقض العرب للاتفاق المبرم مع فقهاء القيروان الذين أخرجهم المعز لتدارك الموقف³ (إذ أخرجهم لملاقاة الهاليين وردّهم عن دخول المدينة، فأعاد لهم عيالهم وأبنائهم خاصة بعد موقف المعز مع مؤنس الرياحي)، كما وردت بعض الفتاوى من فقهاء المالكية تضع العرب الهالية في خانة الكفرة بل أشدّ من ذلك، مثل فتوى ابن عرفة لما سألته أبو العباس أحمد المعروف بالمريض سنة 796هـ عن قتال العرب من الديلم ورياح وسويد وبني عامر، فأجابه بأنّه يجب قتالهم بل قتالهم أرجح من قتال الكفار، ويلزم من ذلك استباحة أموالهم وإتباعهم والإجهاز عليهم مستدلاً بفعل الصحابة وعمل أبي بكر رضي الله عنه مع مانعي الزكاة⁴، وكذلك أجاب على نفس السؤال القاضي أبو المهدي سيدي عيسى بن أحمد

1 أبو البركات الراجكوتي: السابق، ص 20.

2 الهادي روجي ادريس: السابق، ص 262.

3 عبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب (جائزة المغرب 1968)، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1968، ج 1، ص 392.

4 أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب من فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامي بالمغرب ودار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ج 06، ص ص 153-155.

بن محمد الغبريني، وأردف قوله مؤكداً فتيا ابن عرفة من ترجيح القول بقتال العرب والإجهاز على الهارب منهم وأخذ أموالهم وأمتعتهم، ببيت شعر يقول فيه:

وليس يصحّ في الأفهام شيءٌ إذا احتاج النهار إلى دليل¹

هذه الفتوى من فقهاء المالكية من أشدّ الفتاوى على العرب الهلالية، إذ تعتبر العرب أشدّ على المسلمين من الروم وغيرهم من الكفرة، فكيف سيكون ردّ الفعل من العامة عند سماعهم للفتوى وانتشارها بينهم، كما أن أفراد القبائل الهلالية سيكون ردّهم أقوى بكثير وأعنف، وبالرجوع إلى نصّ الفتوى أو بالأحرى نصّ السؤال يمكن ملاحظة أنّ ليس كلّ الفقهاء كانوا يرون هذا الرأي، فقول السائل: "... فأنكر علينا بعض المنتمين للعلم بهذه البلاد، بل كلّهم، فاستظهرنا عليهم بنصوص أهل المذهب كنصّ المدونة ..."²، كما أنّ نصّ سؤال الفتوى يؤكّد أنّ العرب تمكّنوا من غزو والسيطرة على مجالات إفريقية والمغرب، وأن ظلّ السلطان قد تقلّص في قوله: "... مع أن أحكام السلطان أو نائبه لا تنالهم بل ضعّف عن مقاومتهم، فضلاً عن ردّهم"³، ولكن السؤال المطروح هو: كيف استطاعت مثل هذه الفتاوى أن تخترق الآفاق، رغم أن من أفتى بخلافها كثير؟

نعتقد أن شهرة الفتوى من شهرة صاحبها، فابن عرفة (ت803هـ/1400م) من أكبر علماء المذهب المالكي في القرن 08هـ/14م فقد ذكره صاحب الديباج المذهب بأوصاف تتمّ عن شهرته ورياسته في علم الفقه⁴، كما جاء لابن عرفة (ت803هـ/1400م) إباحة أموال العصاة من

1 الونشريسي، السابق، ج06، ص ص 155-156.

2 نفسه، ص 153.

3 نفسه، ص 153.

4 قال ابن فرحون: هو الامام المقرئ الأصولي البياني المنطقي شيخ الشيوخ وبقية أهل الرسوخ، ... انتشر علمه شرقاً وغرباً فإليه الرحلة في الفتوى والاشتغال بالعلم، والرواية، حافظاً للمذهب ضابطاً لقواعده، ... أجمع على

العرب في البوادي، ولعلّ انتشار هذه الفتاوى في القرن 08هـ - 14م كان مُصاحباً لرغبة الكثير من أفراد القبائل الهلالية في الدخول تحت مسمّى التوبة، وفي الحملة العسكرية لأبي عنان المريني على معاقل الهلاليين بالزاب والمغرب الأوسط، ذكر النميري أنّ أبي عنان في رسالته المبعوثة إلى أهل مملكته في شرح سبب المسير، فإنّه رأى أنّ جهاد الهلاليين أعظم عنده من جهاد الرّوم مُستندا في ذلك على فتاوى الفقهاء في مثل هذه النازلة، فيظهر أنّ الأمير المريني قد استشار الفقهاء في ذلك فأعطوه الضوء الأخضر¹، ويرى محمد حسن اعتياد الفقهاء منذ القرن 05هـ - 11م أن يطلبوا من الهلاليّ التائب تقويم كلّ ما عنده فيُخرج منه قدرًا معيّنًا في الحال وباقي الدّين يكون بأقساط، كما يضيف نفس الباحث بأن مسألة التخلّص من الأموال المغصوبة من المحاربين والهلاليين التائبين أصبحت أمراً مُلحاً منذ منتصف القرن 05هـ/11م وإلى أواخر العصر الوسيط، ولهذا ورد سؤال وظلّ مطروحا طوال تلك المدّة الزمنيّة وهو: إذا تاب هؤلاء الأعراب وبيده أملاك لا يعلم مالکها ولا وراثته، لمن يكون هذا للفقراء أو لبيت مال المسلمين؟ وهل يجوز التمسك بشيء منها إن كان التائب فقيراً؟² وهذا ما يمكن إدراجه في خانة الحلول المتشدّدة للفقهاء اتّجاه الهلاليين التائبين، كما نقل نفس الباحث عن المازري بأنّه كان يُفتي بتخلّص المُستتاب من جميع ماله إلّا ما يكفيه في يومه³، وممّن تأثّروا بدخول العرب إلى القيروان واغتّم لذلك التخريب الفقيه محمد بن سعدون بن

اعتقاده ومحبّته الخاصة والعامة" ومما يدلّ على شهرته قول ابن فرحون: "... حج سنة 792هـ فتلقاه العلماء وأرباب المناصب بالإكرام التام، واجتمع بسلطان مصر الملك الظاهر، فأكرمه وأوصى أمير الركب بخدمته، ولما زار المدينة نزل عند ابن فرحون". ابن فرحون المالكي: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص ص 419-420.

1 أنظر النميري، السابق، ص ص 482-483.

2 محمد حسن: المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، سلسلة التاريخ 04، 1999، ج3، ص 663.

3 نفسه، ص 663.

علي أبي عبد الله (ت 485هـ/1092م) والذي هاله ما جرى للقيروان على يد العرب، فكتب مؤلفاً يصف حالة القيروان سمّاه "تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلب الزمان"، وقد ذكر إبراهيم جدلة حالة النخبة القيروانية ممّا جرى وذهاب ملك المعزّ، فكانت مأساة خراب القيروان عندهم هي كلّ المأساة ولعلّ شعر ابن رشيق دليل على حزن عميق مسّ النخبة القيروانية، فهو يقول:

حزنت لها كور العراق بأسرها وقرى الشام ومصر وخراسان

وتزعزعت لمصابها وتتكدت أسفاً بلاد الهند والسندان¹

كما جاء عن ابن شرف قوله: بعد خطوب خطبت مُهجتي وكان وشك البين إمرارها

ذا كبد أفلاذها حولها وقسمت الغربة أعشارها²

وبالرجوع إلى ترجمة ابن سعدون عند صاحب الديباج المذهب يتبيّن أن الفقيه مارس مهنة التجارة بالمغرب والأندلس، كما يتبيّن أنّ تجارته جابت الأقطار المغربية بدليل قول ابن فرحون "واشتغل بالتجارة فطاف المغرب والأندلس"³ ولعلّ تضرّر تجارته من حملات الهالبيين على القيروان وغيرها كانت دافعاً لتأليفه الكتاب، فكانت مأساته ضعفين.

1 ابن رشيق القيرواني: ديوان ابن رشيق، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1989، ص 210.

2 أبو البركات عبد العزيز الميمني: الننف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، مصر، 1443 هـ، ص ص 99-100.

3 نفسه، ص 369.

ويبدو أنّ تصرّفات العرب أدّت إلى سخط العامّة ممّا جعل الفقهاء في مواجهة مع العرب¹، مثل مسألة دخول المسجد بالنعل، إذ حدث سنة 705هـ/1305م أن دخل هذّاج أحد شيوخ الكعوب إلى المسجد بنعله، فتبادرت إليه العامّة فقتلته في صلاة الجمعة²، وكمنع النساء من الميراث³، وأورد الونشريسي عن الفقيه السيوري بعدم معاملة الأعراب⁴ وكذلك فتوى المازري⁵، وأفتى الوغليسي (ت 786هـ/1384م) بعدم شراء الإبل من العرب المعروفين بالغصب⁶، رغم أن هذا الفقيه كان قد بسّط مقدّمته الشهيرة بالوغليسية " الأحكام الفقهية على مذهب مالك " لتكون في متناول الطلبة من القبائل العربية الهلالية مُراعياً في ذلك المحيط الذي عاش فيه أولئك الطلبة المعروف بالتهب والسرقه والحراية، وكذلك كان ردّ الفقيه أبو الحسن علي بن عثمان على سائل عن بيع الدواب وغيرها لأمرأ الأعراب وممن عُرِفوا بالمكس والظلم، فأجاب بعدم البيع⁷، لكن هناك من الفقهاء من أجاز الشراء من العرب مع علمه باغتصاب وسرقه ذاك الطعام كالفقيه أبو محمد عبد الله بن بختي الزواوي⁸، كما أورد البرزلي في أحكامه فتاوى تبيّن ما كان العرب يأخذونه ظلماً وجوراً من الزرع والثمار وغيرها⁹، كما كان لفقهاء ومشايخ تونس دورٌ في تسليم البلدة - تونس - لعبد المؤمن أثناء حصاره لها سنة 554هـ/1159م، فقد خرج إليه اثنا عشر فقيه من فقهاء تونس

1 سعيدي شخوم: موقف فقهاء المالكية من القبائل الهلالية بالمغرب الأوسط، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 05، 2013، ص 17.

2 الونشريسي: السابق، ج1، ص 22.

3 نفسه، ج11، صفحة 293 وما بعدها.

4 الونشريسي، السابق، ج09، ص543.

5 نفسه، ج09، ص602.

6 نفسه، ج05، ص88.

7 نفسه، ج05، ص93.

8 نفسه، ج05، ص68.

9 أبو القاسم بن أحمد البرزلي: فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 2002، ص 546.

- ذكر أسماءهم صاحب الحل السندسية والتجاني في رحلته- وسلّموا له البلدة مع شروط اشتراطها عليهم الموحّدون ومنها خروج ابن خراسان عن المدينة، ولا نستبعد أن يكون التسليم نكاية في العرب من بني خراسان وكذا بني هلال¹.

هذا بالنسبة لفقهاء المالكية وتعاملهم مع الظاهرة الهلالية، ولنحاول أن نستقري رأي فقهاء الإباضية، فقد جاء في طبقات المشايخ أنّ الفقيه يوسف بن سديمان رافق عرباً من درجين إلى توزر فلم يأكل من طعامهم ولا شرب من شرابهم- وبقي على هذه الحالة ثلاثة أيام- حتى التقى بأناس من درجين فعرفوا ما به من جوع وعطش، وهذا كلّ تحرّزاً من أكل الطعام والشراب لاعتقاده بحرمة مصدره²، وأنظر إلى زمن قطع مسافة قصيرة لا تتعدى الكيلومترات في ثلاثة أيام، وكأنّ العرب قد مكّرت به فأبطأت خفارته لما رأوا من آرائه المذهبية المتشدّدة³، وهو ما أشار إليه صالح باجيّة، ويضيف ذات الباحث بأن بعد ذلك حصل تقارب بين الإباضية والعرب وأهل السنّة، برأيه لضعف المذهب الإباضي وحدد ذلك ابتداء من القرن 12هـ-12م⁴، وعند الدرجيني أن الشيخ أبي يحيى زكرياء اليراسني خرج مع صحبة له من سجماسة إلى ورجلان ومنها إلى جربة، وعند المكان بين ورجلان ونفزاوة التقوا بالعرب الذين كانت لهم من الماشية والإبل ومراعي كثيرة، فأمنهم رئيس الحي بحيلة احتالوها⁵، وهو دليل على تغيّر المعاملة بين الإباضية والعرب، وكذا الفقيه يخلف بن

1 أبو عبد الله محمد بن محمد الأندلسي: الحل السندسية في الأخبار التونسية، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط1، 1287 هـ، ص 250. وأنظر التجاني: الرحلة، ص 345.

2 أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1974 ص ص 522-523.

3 صالح باجيّة: الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، ط1، ص 93.

4 نفسه، ص ص 93-95.

5 الدرجيني، السابق، ج2، ص 502-503.

يخلف فقد ذكر الدّرجيني أن قبائل العرب والبربر ومذاهب أخرى كانت تقصده للقضاء بينها في الجراحات وغيرها، كلّهم راضون بحكمه¹.

ولكن هذا ليس على إطلاقه فقد أشار العربي بن علي بن ثاير محقق رسالتين تعودان إلى القرن 10-09هـ / 15-16م لكل من المالكي صولة الغدامسي والإباضي أبي العباس أحمد بن سعيد الشماخي، إلى أنّ المذهب الإباضي ومنذ القرن 05هـ -11م دخل فيما يُعرف بمرحلة الكتمان والمسالمة، واكتفى ببعض المناطق المنعزلة لنشر تعاليمه، مع ملاحظة موافقة الإباضية للدول القائمة في المغرب دون الدخول معها في صراع وإن خالفت مبادئ المذهب².

وعلى كلّ حال فقد أثبت المشروع الفقهي عد نجاوته أيضاً بعد فشل سياسات الدول القائمة في جذب القبائل الهلالية نحو الاستقرار الذي يضمن توجّه تلك القبائل نحو إنتاج اقتصادي، ففتاوى الفقهاء المالكية كانت شديدة على أفراد الهلالية ولم تُعر اهتماماً للبيئة التي انحدر منها هؤلاء، فكانت فتاواهم التي تحرّض في الكثير إلى عدم التعامل مع العرب ببيع ولا شراء، وأكثر من ذلك محاربتهم وعدم الإشفاق عليهم كما هو حال ابن عرفة (ت 803هـ/1400م)، أدّت في كثير من الأحيان إلى نفور تلك القبائل والابتعاد أكثر فأكثر عن حياة الاستقرار، ومما يمكن ملاحظته عدم تحرّك فقهاء المذهب المالكي لتسهيل شروط التوبة أو محاولة تكييف تلك الفتاوى على حسب نمط المعيشة الاجتماعية والاقتصادية لتلك القبائل، وكذلك كان المذهب الإباضي فرغم أنّه ليس بحدّة فتاوى المالكية التي تجعل من قتال العرب أولى من قتال الروم، فإنّنا نعتقد أنّ المذهب الإباضي قد مرّ كما أسلفنا بحالة ضعف وانعزال - أو كما سمّاها البعض حالة الكتمان والمسالمة-

1 الدرجيني، السابق، ص 513.

2 صولة الغدامسي، أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي: الحوار الإباضي المالكي، تحقيق: العربي بن علي بن ثاير، وزارة التراث والثقافة بسلطنة عمان، ط2، 2014، ص ص 05-06.

جعلت من بعض فُقهائه يميل إلى المداهنة وعدم التصريح بآراء المذهب التي من شأنها أن تؤدي إلى فقدان مجالات أخرى، قد لا يستطيع أنصار المذهب استرجاعها من جديد.

2- الشخصية الخشنة والتكوين الأنثروبولوجي للهاليين

كما رأينا سالفا فإن للبيئة الجغرافية تأثير على عادات وتقاليد الإنسان، وكذلك الحال بالنسبة للهاليين الذين يعتبر موطنهم الأول الحجاز ونجد من أجذب المجالات، خاصة إذا علمنا أن بني هلال وسليم عاشوا في الضواحي وحواشي المدن، ممّا يعني ابتعادهم عن كلّ ما هو حضاري، بالإضافة إلى أنّ الدول القائمة حينئذٍ سامتهم بكل أنواع التهميش، كما حصل زمن الدولة العباسية، وكذلك عند تحالفهم مع القرامطة في القرن ٥-10م، ومن ثمّ نقلهم إلى صعيد مصر، نقلهم العزيز بن المعز لدين الله مع تركه لكلّ عاجز عن الحرب بنجد.

اتّسمت القبائل العربية بالبداوة والتي تعتبر أقدم نمط اجتماعي للحياة عرفه الإنسان وشكل من أشكال التكيف البيئي بين الإنسان والظروف الطبيعة المحيطة به¹، ووصفتها جلّ المصادر بهذه الصفة، فابن خلدون يقول عن العرب الهلالية: "يُغيرون على الضواحي ويُفسدون السابلة ويقطعون على الرفاق، وربّما أغاروا على الحجّاج أيام الموسم وأيّام الزيارة إلى المدينة"، وهذه الصّفات التي ذكرها ابن خلدون تدلّ على نمط معيشة العرب الهلالية الذي يدلّ بدوره على التبدّي والتوحّش، وأشار محمد بن ساعو أنّ البداوة حالة تشمل الرّحل وأنصاف الرّحل وحتى بعض المستقرّين، حيث تتّسم حياتهم اليومية بالبساطة وعدم التعقيد، وبالتالي الحكم على قبيلة معيّنة بأنّها

1 محمد عبده محجوب، فائق محمد شريف: الثقافة والمجتمع البدوي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2006، ص12.

بدو رَحْل يرجع إلى تحديد نمط المعيشة التي تمارسه¹، ورغم أن إبراهيم جدلة يقرّر بأن القبائل الهلالية لم تكن مصدراً للفوضى إلا بتحالفها مع القرامطة أي ابتداء من القرن 04هـ-10م²، إلا أنه وبالرجوع إلى نصوص ابن خلدون وهو المصدر الرئيس للتأريخ للهلالية، يرى أن الهلاليين كانوا مصدراً للفوضى والفساد قبل ذلك، إذ كانت الخلافة العباسية تجهز الجيوش والكتائب للإيقاع بهم، وتحاول صون الحجاج من معرّات إفسادهم، ثم يردف القول بأن العرب لم ترتح حتى بعد عقد التحالفات مع القرامطة، إذ دخل هؤلاء في حروب مع الدولة الفاطمية أفضت إلى هزيمتهم وبالتالي نقل العزيز الفاطمي للعرب إلى صعيد مصر وأجلى القرامطة إلى البحرين، وحتى بعد انتقالهم إلى الجهة الشرقية بالصعيد كان لهم إضرار بالبلاد، يقول ابن خلدون: " ... نظراً لطبيعتهم البدوية الخشنة"³، واستناداً على نص آخر لابن خلدون " بطون بني هلال وسليم لم يزلوا بادين منذ الدولة العباسية"⁴ أي أن توطنهم الأول كان بقفر الحجاز ونجد أي صحاريها، وعلى حسب التقسيم المقرر عند بن ساعو، فيمكن أن نضع بعض القبائل الهلالية في خانة " البدو الرَحْل - رَحْل الإبل" أي المغرقين في البداوة وتقتصر فيهم صفة التوحش⁵، وهذا التقسيم يقرّه ابن خلدون في المقدمة⁶، ولعلّ محمد عابد الجابري يفصّل أكثر فيجعل من اختلاف الجماعات البشرية نتيجة لاختلاف طبيعة الأرض من حيث الخصب أو الجذب، فتنقسم الجماعات البشرية عنده إلى أربعة أقسام: قسم أول

1 محمد بن ساعو: الحضور الهلالي في المغرب الأوسط وأثره في النشاط الزراعي والحرفي والتجاري بين القرنين 05-07 هـ-11-13م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم تخصص تاريخ وسيط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، 2021-2022، ص ص 29-30.

2 إبراهيم جدلة، السابق، ص 97.

3 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص 28.

4 نفسه، ص 27.

5 محمد بن ساعو: السابق، ص 30.

6 ابن خلدون: المقدمة، ص 136.

هم سكان البادية الذين يكسبون الإبل ويتنقلون معها طلبا للرزق وهم العرب كما أسلفنا، وقسم ثان بالمناطق الخصبة والسهول والجبال وجلّ مكسبهم الغنم والبقر، كما يعيشون من الفلح ومما تُدرّه الأرض، أما القسم الثالث فهم الذين صلحت أحوالهم نوعا ما فسكنوا المدن والأمصار، ومعيشتهم من الزراعة وامتهان بعض الحرف والصناعات، أما القسم الرابع فهم الذين يعيشون في رغد العيش وترفه¹.

ممن ناقش أفكار ابن خلدون بحدّة طه حسين وخاصة فيما يتّصل ببداءة العرب، فجعل مميّزات للحياة البدوية التي عاشتها القبائل الهلاليّة خصوصا، إذ يجعل نمط معيشتهم من فقر وتقشّف وخشونة يفضي إلى أن يجعلهم أقوى بنية وأنفذ عزائم وأبقى في العادات وأقلّ انحرافا في الأخلاق²، ولعلّ العزيز الفاطمي نقل منهم إلى مصر من يحمل السلاح³ فقط معرفةً منه بهذه الصفات وخاصة أنّهم ذوو بنية جسديّة قويّة، ففعل ذلك ليتقوى بهم في حروبه أو لاستخدامهم في بعض الأعمال الشاقّة، وربّما رأى الهاليّون في خوضهم للحروب حقّ مشروع كلّما دعت الضرورة إلى ذلك وليست مجرد تعبير عن نزعة تأصّلت في نفوس هذه الجماعات البدويّة على حدّ قول عبد الحميد بوسماحة⁴، ولو أنّ معالجته للنزوح الهالي وآثاره في بلاد المغرب جاء من منطلق أدبي سردي تغلب عليه الميول الأدبيّة، فهو يعالج الهجرة على ضوء التغريبة التي هي أقرب للأسطورة منها للواقع.

1 محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان، ط2، 1994، ص ص 146-147.

2 طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية - تحليل ونقد-، ترجمة: محمد عبد الله عنان، سلسلة المؤنّيات، 2006، ص 86.

3 مبارك بن محمد الملي: السابق، ج2، ص 179.

4 عبد الحميد بوسماحة: رحلة بني هلال إلى المغرب وخصائصها التاريخية الاجتماعية والاقتصادية، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ج1، ص ص 174-175.

ويستمرّ طه حسين في سرد مميّزات الحياة البدوية للقبائل العربية فيجعل من مميّزاتها: التنقّل والترحال، فهم في حركة دائمة لا يستقرّون على حال معيّنة، " وهذا تنقّل يسير طبقاً لحاجات الإنسان الاقتصادية" على حدّ قوله، إذ أن البدو يعيشون من القطعان التي يربّونها فيأخذون منها ملابسهم وطعامهم وشرابهم وأقواتهم، وبالتالي فهم ملزمون بالتنقّل للبحث عن مراعي تلبي حاجيات قطعانهم، وعلى هذا فإن العرب البدو الذين يتكسّبون عيشهم بتربية الإبل يضطّرون إلى التوطّن بالصحاري والقفار، وهو المكان الملائم لحياة الإبل من : حرارة ورمال وأشواك وغيرها¹، وهذه الصفة (التنقّل) جعلت العرب لا يحترفون الزراعة ولا يفلحون الأرض ولا يمتهنون المهن المربحة كالتجارات والصنائع، فهي منافيةً لنمط عيشهم فحاجتهم محدودة جداً.

ويقرّر طه حسين في تحليله الرائق أنّ حاجات العرب محدودة من مأكل ومشرب، وكلّ ما يفكّرون فيه هو الحصول على قوت يسدّون به رمقهم، وهذه الحاجة المحدودة وكذا التنقّل الدائم، جعلهم يفكّرون في وسائل بسيطة يحمون بها أنفسهم من أذى الرياح والعواصف والأمطار ومن غارات الأعداء²، وبالتالي تمثّل سكنهم في الشكل البسيط لبيوت الوبر والشعر.

ولعلّ أهم ميزة تميز البدو والقبائل البدوية ومنها الهلالية وجود العصبية³ داخل القبيلة وخارجها، " إذا اضمحلّت داخل القبيلة ألفت نفسها فريسة للحروب الداخلية، وإذا تضاعلت في

1 طه حسين، السابق، ص 97.

2 نفسه، ص 97.

3 يُعرّف ابن خلدون في المقدمة العصبية بأنها " ومن صلتها النعرة على ذوي القرى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيّم أو تصيبهم هلكة، واستدلّ بقول النبي صلى الله عليه وسلّم: " تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم"، بمعنى أن النسب إنّما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة...، إذ النسب أمر وهمي (بمعنى رمزي) لا حقيقة له....، فإذا كان واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعرة (وهو ذات كلام طه حسين

الخارج فإنّ القبيلة تتعرّض لمهاجمة أعدائها الكثيرين المتأهبين دائماً لمهاجمتها"¹، ويُشترط لبقاء العصبية وبالتالي قوّة القبيلة داخليا وخارجياً نقاء النسل " وهو نقاء يفوز به بدو الصحراء أكثر من سواهم، وذلك لعزلتهم ومبالغتهم في التمسك بالأصول"²، وهو بهذا يُقرّ بأن العرب الهلالية أنقى نسلا ونسباً، وعلى العكس القبائل التي تقترب من المدن والأمصار أو تسكنها، فتضعف عصبيتها وبالتالي ينحطّ عندها نقاء النسل، وهو ما حدث لعصبية صنهاجة في القرن 5هـ - 11م، ما دفع ابن خلدون لأن يصف حالتها بـ : " فساد عصبية صنهاجة"³، فتقلّص ظلّ الدولة الصنهاجية إلى المهدية وبجاية والقلعة، وكذلك حدث للقبائل العربية ذاتها بعد توطّنها بالقرب من المدن كما حدث لبني عامر حين استوطنوا قرب تلمسان، فمارسوا بعض الحرف واشتغلوا ببعض الصنائع ذات الطابع البدوي.

كما أن الجابري يشير إلى أنّ تأثير الأرض من حيث الخصب والجذب يؤثّر في أخلاق الناس، فالعرب الذين توطّنوا الصحاري والقفار جعلهم هذا يمدّون أيديهم إلى ما في أيدي الناس، يسلبون أموالهم ومتاعهم، ولا يرون في ذلك ظلماً ولا عدواناً⁴، وهو ما غفل عنه الكثير من الفقهاء بالمغرب الإسلامي سواءً من المالكية أو الإباضية الذين لم يُراعوا مثل هذه الجزئيات.

وبالتالي فهؤلاء الأعراب ليسوا أشراراً بطبعهم، وإنّما الذي جعلهم يظهرون كذلك هو العامل الطبيعي بمعناه الواسع، أو الشروط الماديّة لحياتهم، ولكن هذا الجانب الشرير يزول بمجرد دخول

من نقاء النسل، فإنّ نقاء النسل يبقى على العصبية التي تحمل صاحبها على الانتصار ونصرة ذوي القربى". أنظر ابن خلدون: المقدمة، ص 143.

1 طه حسين، السابق، ص 100.

2 نفسه، ص 103.

3 ابن خلدون: المقدمة، ص 169.

4 الجابري: السابق، ص 148.

عامل آخر الذي يتمثل في الجانب الروحي، والذي يمثلّه الدّين أو ما يقوم مقامه من دعوات إصلاحية¹، ولعلّ خير مثال على ذلك ما كان من القبائل الهلالية بظهور حركة إصلاحية بقيادة سعادة الرياحي في بلاد الرّاب، إذ أنّ سعادة تفقّه على يد العالم أبي إسحاق التسولي، فصار له أتباع ومناصرين من قبائل الدواودة وأولاد سباع، فكان ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف، وتعدّى به الأمر إلى الإصلاح الاقتصادي وذلك بمطالبته لابن مزني صاحب الرّاب إعفاء الرعايا من المكوس والظلمات، وكمظهر لتدّين الهلالية بنى بجوار طولقة زاوية²، وكذلك العابد عامر بن أبي يحيى بن محيا من أولاد محيا، حيث رحل للحجّ فلقى شيخ الصوفية بمصر يوسف الكوراني وتلقّى طريقته، وبثّ هذه الطريقة في قومه، فاتّبعه كثيرون وقاتل المفسدين من العرب وغيرهم³، فانظر إلى تأثير الجانب الروحي على نفوس الهلاليين، فقد حارب عامر هذا العرب من بني هلال ممّن يُعرفون بالفساد وقطع الطريق.

وكاستنتاجات لهذا الفصل يتبيّن أنّ السياسات المتّبعة من طرف الدول القائمة بالمغرب الإسلامي، لم تستطع أيّاً منها كبح جماح الهلاليين، بل بالعكس من ذلك أدّت إلى نفور كبير، وبالتالي ملاحظة عدم استقرار القبائل العربية ممّا يعني عدم مساهمتها في الأنشطة الاقتصادية إلّا النادر اليسير، فقد قامت تلك السياسات على إقطاع الأراضي وتقريب قبائل على حساب قبائل أخرى، كما هو الحال مع الزيانيين والمرينيين والحفصيين وكانت قبلهم بنو زيري وبنو حمّاد، كما أن سياسة التصفية والتقتيل طالت الهلاليين ممّا جعل الكثير منهم يعودون إلى أسلوب الإغارة وقطع السابلة، وبالتالي إلى ممارسة الحراية بمعناها الحقيقي، مثل ما حدث نتيجة الحملات

1 الجابري: السابق، ص 148.

2 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص ص 81-82.

3 نفسه، ص 56.

العسكرية المرينية، حيث خربت قصور الزاب التي كان العرب يستوطنونها وخربت معها تلك الحقائق والبساتين التي كانت شاهدة على نوع من أنواع الاستقرار مارسته تلك القبائل في ظل دولة الموحدين، والتي سنحاول إلقاء الضوء على سياسة خلفائها اتجاه العرب.

ومما زاد الطين بلة فتاوى الفقهاء المالكية التي صعبت هي الأخرى في تذليل الصعوبات أمام أفراد القبائل الهلالية، فكانت فتاواها سهماً تُضرب بها كل محاولة للاستقرار، فإن وضع الهلاليين في مرتبة الروم أو الكفار وجواز محاربتهم وملاحقتهم والإجهاز عليهم لم يترك للهلاليين سوى طريقاً واحداً يسلكونه وهو الميول إلى الحراية، أما الإباضية فقد كانوا أقل مواجهة مع العرب نظراً لكون مجالاتهم انحصرت في بعض المدن والأمصار كوارجلان وجربة وميزاب نتيجة سقوط أهم عاصمة لهم في المغرب الأوسط تيهرت (296هـ/909م)، ودخول المذهب الإباضي في مرحلة الكتمان والمسالمة والخضوع لسياسة الدول القائمة حتى وإن خالفت تعاليم المذهب.

وبالتالي من أهم العوامل التي أدت إلى عدم الاستقرار الهلالي بإفريقية والمغرب: سياسة تعاطي الدول مع الظاهرة الهلالية والمشروع الفقهي الذي لم يعط حلولاً معقولة وكانت فتاواه مُتشددة، كما يُضاف إلى العاملين السابقين عامل مهم وهو الشخصية الهلالية الخشنة التي نقشت فيها جغرافيا الحجاز ونجد والشام وصعيد مصر رسوماتها، رغم وجود استثناءات هلالية في قيادة حركات إصلاحية بالمغرب على غرار حركة سعادة الرياحي بأرض الزاب.

الفصل الثالث

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءً

من القرن 06 هـ -12م

المبحث الأول: الموحّدون ودورهم في استقرار الهلاليين

1- حيازة المجال والنشاط الحرابي للقبيلة الهلالية -اقتصاد المغنم-

2- معركة سطيف 548هـ ومصير القبائل الهلالية

3- استعمال العرب الهلالية في الجهاد بالأندلس: نورد اقتصادي

المبحث الثاني: التصوّف والتوبة (الإقلاع عن الحاربة) الهلالية

1- دور المدرسة المدينية في توجيه الهلاليين نحو أنشطة اقتصادية

2- مظاهر الاستقرار الاقتصادي: بناء القصور والرباطات

3- من الإصلاح الروحي إلى الإصلاح الاقتصادي

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

نروم في هذا الفصل التطرّق إلى الظاهرة الهلالية وتعامل الدولة الموحّدية معها، وخاصة بعد معركة سطيف 548هـ/1153م، كما نحاول إمطة اللثام على الدور الرئيس الذي لعبته المدارس الصوفية في إطالة أمد الاستقرار النوعي الذي عرفه أفراد القبائل الهلالية، فقيام الموحّدين بتوحيد رقعة المغرب والأندلس الكبيرة تحت راية واحدة جعل التعامل مع الجماعات القبلية الهلالية أمراً حتمياً، فكان لزاماً على خلفاء الموحّدين إيجاد سياسة تراعي أولاً حيازة المجال من طرف تلك القبائل، وثانياً الحدّ من أسلوب الحراية التي مارسته تلك القبائل منذ ولوجها إلى بلاد المغرب، فهل استطاع الموحّدون احتواء القبائل العربية وإدماجها ضمن مشاريعهم السياسية والنفعية؟

كان للتصوّف دورٌ مهمٌّ في حياة الأفراد وتأطير الجماعات، فالقبائل الهلالية تأثرت كغيرها من القبائل بالتصوّف مع انتشار نمط جديد منه في القرن 08هـ-14م (التصوّف القبلي، أو البدوي)، فهل استطاع شيوخ الصوفيّة في المغرب الإسلامي كبح جماح أفراد العرب، وبالتالي تأطيرهم في منفعة البلاد والعباد؟ أم أنّ تشديد الحلول صار سمة كلّ من يتعامل مع الهلاليين؟

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ - 12م

المبحث الأول: الموحدون ودورهم في استقرار الهلاليين:

1- حيازة المجال والنشاط الحربي للقبيلة الهلالية - اقتصاد المغنم -

توحي النصوص العديدة التي أوردها ابن خلدون في كتابه العبر إلى مدى السيطرة الهلالية على مجالات إفريقية والمغرب إلى حدود القرن 06 هـ - 12م، وعلى غرار ابن خلدون نجد أبو بكر الزهري (المتوفي حوالي 550هـ/1155م) ينقل لنا صورة إفريقية بأنها خراب بسبب العرب، كما وصف الحالة الاقتصادية بأنه غلب على طعام الساكنة هناك التمر أولاً لتعدد أنواعه وثانياً لأنّ الزرع عندهم قليل بسبب إفساد العرب للأراضي الزراعية والمحاصيل من القمح وغيره¹، ومع قيام دولة الموحدين ونقل أمرائهم للعرب وإعادة توطينهم نحو المغرب الأقصى ازداد التوسع الهلالي وعمّ ربوع المغرب، بل تعدّى ذلك إلى الأندلس مع جواز أفراد القبائل الهلالية للجهاد ضدّ النصارى ضمن جيوش الموحدّين، جاء في العبر: " وأقام المنصور قبائل رياح بالمغرب الأقصى ببلاد الهبط ما بين قصور كتامة المعروف بالقصر الكبير إلى أزغار البسيط الفسيح الأخضر هنالك إلى ساحل البحر واستقرّوا هنالك"²، ويقول أيضاً: " وأما الدواودة فملكوا ضواحي قسنطينة وبجاية من التلول ومجالات الزاب وريغ وواركلا وما وراءها من القفار في بلاد القبلة"³، " والكعوب ومرداس من بني سليم فقد ملكوا ضواحي الجانب الشرقي كلّها من قابس إلى بونة ونفطة"⁴، كما ذكر في موضع آخر أن قبائل زغبة في عهد الموحدّين استقرّت بالمغرب الأوسط واتّصلت مجالاتها ما بين المسيلة

¹ محمد بن أبي بكر الزهري: كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص 107.

² ابن خلدون: العبر، مج 06، ص ص 70-71

³ نفسه، ص 72.

⁴ نفسه، ص 72.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

وقبله تلمسان في القفار¹، ورغم المجالات الواسعة التي حازتها الكثير من هذه القبائل العربية إلا أننا نجد منها من رضخ للطاعة نظراً لقوة الموحدّين من جهة وسياسة أمراء بني عبد المؤمن مع العرب من جهة أخرى، وهو ما نستشفّه من كلام ابن خلدون على قبائل المعقل والتي شكّلت قوّة ضاربة في المجالات الغربية للمغرب، يقول ابن خلدون: " ولم يكن - المعقل - يستبيحون أطراف المغرب ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد السودان بأذية ولا مكروه لقوّة دولة الموحدّين"²، وهذا رغم ما تمثّله المنطقة من ثراء تجاري وسيطرة على أهمّ المواقع التجارية بالمغرب، ويرى الطاهر بونابي أن القبائل الهلالية مارست نشاطاً حاربياً واسع النطاق ابتداء من منتصف القرن 05هـ/11م تلتها سيطرة كليّة للمجال وافتكاك المجال الرعوي والزراعي من صنهاجة في: الزاب والحصنة والسهول الداخلية والساحلية وجنوب الصحراء³، ولعلّ أندري جوليان يضعنا في الصورة، بحيث يرى أن مع منتصف القرن 06هـ-12م كان عرب بني هلال قد سيطروا كليّاً على إفريقية وتوغّلوا كثيراً في المغرب الأوسط، في حين كانت قبائل المعقل بصدد التوغّل إلى صحراء المغرب الأقصى⁴، كما أنّ توطين العرب كما أسلفنا ببلاد المغرب الأقصى زاد من اتّساع رقعة الوجود الهلالي، فقد توطّنت العرب بالسهول الأطلنطية التي خلت من أهلها بعد إبادة قبيلتي برغواطة ودكالة⁵.

نجد نصوص الرحالة الجغرافيين في القرنين 06-07هـ / 12-13م تدلّ على ذلك، فالعبدري - الذي ابتدأ رحلته إلى البقاع المقدّسة سنة 688هـ/1289م - عند ذكره لبرقة وصف أنّ

1 ابن خلدون، العبر، مج06، ص 86.

2 نفسه، ص 120.

3 الطاهر بونابي: السابق، ص ص 124-125.

4 شارل أندري جوليان: السابق، ج02، ص 168.

5 نفسه، ص 145.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ - 12م

معظم سكانها من الأعراب الغلاظ، حيث فرض هؤلاء الأعراب التبايع بالمعاوضة وتبادل المثلونات¹، كما أن الطريق بين الساحل والقيروان والذي كان امتداداً لغابة الزيتون أصبح معطلاً لاستيلاء العربان عليها على حدّ قوله²، أمّا ابن سعيد (ق07هـ/13م) فأشار إلى أن مدن: واركلان، بسكرة، والمسيلة والبلاد التي حولها مجالات لعرب رياح³، أما دياب فمجالاتها من حدّ قابس إلى المكان المسمّى بئر السدرة من برقة⁴، وتوضّح نصوص الإدريسي في النزهة والذي ابتداءً تأليفه منتصف القرن 06هـ/12م (حوالي سنة 548هـ)، فتبيّن سيطرة العرب على مجالات المغرب الأوسط وإفريقية، يقول الإدريسي: "وسوق الإثنتين وهو قصر حصين والعرب محدقة بأرضه"⁵ "وحصن بادس والعرب تملك أرضه وتمنع أهله من الخروج عنه إلا بخفارة رجل منهم"⁶، كما وصف أرياض مدينة باغاية خالية بإفساد العرب لها⁷، وكذلك القيروان: "وهي الآن خراب أفسدتها العرب واستولت على منافعها وعلى جميع أرضها"⁸، وكذلك كان حال باجة وطبرقة و من طرابلس - ورداسا - رغوغا - تاروغا - المنصف - قصور حسان - الأصنام - إلى سرت ملك لقبيلتي عرب عوف ودياب⁹، هذه نماذج من بعض الرخالة الذين وصفوا حالة المغرب خلال القرنين 06 و07 الهجريين/12-13م، وهي حالة تدلّ على حيازة القبائل الهلالية لمجال المغرب وإفريقية، هذا الوضع أدى إلى سيطرة العرب على الطرق التجارية الموصلة بين المدن، وبالتالي أشرفت تلك

1 العبدري: السابق، ص ص 133-134.

2 نفسه، ص 152.

3 ابن سعيد المغربي: السابق، ص 126.

4 نفسه، ص 146.

5 الإدريسي: القارة الافريقية، ص 163.

6 نفسه، ص 165.

7 نفسه، ص 177.

8 نفسه، ص 179.

9 نفسه، ص ص 198-199.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

القبائل على الجباية وجمع الضرائب المختلفة، وتحويل الأراضي الزراعية في البوادي والأرياف إلى أرض رعي لمواشيهم وإبلهم " فكان الحضر الذين أرهقتهم ضرائب البدو يفارقون المدن، وأصبحت المنصورة ورّادة أثراً بعد عين، وخرب العرب سهول الوسط وغربي إفريقية واستولوا على قرطاج وسهول باجة الخصبة ... وكان تزويد الجريد بالقمح رهن مشيئة البدو ...¹، وأنظر إلى وصف ريمون فيرون Rimon viron للعرب بأنهم أخذوا يمعنون في النهب والسلب وتدمير كل شيء في طريقهم، وكذلك وصفهم السيد عبد العزيز بـ: " وأتوا على معالم الحضارة بإفريقية من زراعة وتجارة ومنشآت ... واكتسحت كلّ بلاد إفريقية من طرابلس حتى حدود المغرب الأقصى موجة عاتية من الدمار تركت البلاد قاعاً صفصفاً"²، ولو أننا نختلف معه في كون الهلاليين قاموا بوقف حركة التجارة كلياً، بل بالعكس قاموا بتنشيط حركة القوافل التجارية والإشراف على أمن الطرق بما يُعرف بالخفارات، ويضيف ريمون بأن النتائج كانت سلبية -كعادة المستشرقين الفرنسيين - على الجانب الاقتصادي وخاصة على الزراعة، " فأخذوا يسوقون القطعان أمامهم ويدمرون المحاصيل الزراعية ويقطعون أشجار الفاكهة ويفرضون حصاراً على المدن"³، يوحى كلام ريمون بتغيّر نمط النشاط الاقتصادي من الفلح وخدمة الأرض إلى الرعي وتربية الماشية، أي أن العرب نشروا نمطاً معيناً هو النشاط الرعوي نظراً لطبيعتهم البدوية وترحالهم وعدم تمكّنهم من الاستقرار.

1 شارل أندري جوليان، السابق، ج02، ص ص 141-142.

2 السيد عبد العزيز سالم، السابق، ص 580.

3 ريمون فيرون: السابق، ص 66.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

2- معركة سطيف 548هـ ومصير القبائل الهلالية

تعتبر موقعة سطيف سنة 548هـ/1153م¹ حداً فاصلاً بين انتقال الكثير من قبائل العرب الهلالية من أسلوب الحراية إلى أسلوب الاستقرار وممارسة بعض الأنشطة الزراعية، يذكر البيهقي بأن عبد المؤمن بن علي بعد أن هزم العرب أخذ أموالهم وأمتعتهم ونساءهم وذريعتهم، وكذا بعض شيوخ العرب ومنهم: ديفل بن ميمون، حباس بن الرومية، وابن الزحامس، وغيرهم²، ولكن دهاء عبد المؤمن أدى به إلى أن يعيد لهم كل ما أخذ منهم من مال ومتاع وكذا نساءهم وأولادهم، وأنظر إلى ردّه عليهم بعدما قالوا له: "تأمرنا بالرجوع إليك، قال: نحن نصل إليكم"³، وأسكن بعض مشايخ العرب بمراكش⁴، وهذه السياسة الموحدية المبنية على محاولة استلطاف العرب ومجايلتهم، ربّما لا تخلو من حسابات سياسية ولعلّ ابن الأثير نبّه على جانب مهمّ لعمل عبد المؤمن من إطلاقه سراح من أخذوا بعد معركة سطيف، فيقول: "... ليستعين بهم على ولاية ابنه محمد

1 لما استقرّ الأمر للموحدين وغلّبوا صنهاجة على المغرب الأوسط اجتمعت قبائل العرب من بني هلال والأثبيج وعدي ورياح وزغبة وغيرهم من ارض طرابلس والمغرب، فقالوا: إن جاورنا عبد المؤمن أجلنا من المغرب وليس الرأي إلّا لقاء الجدّ معه، وإخراجه من البلاد"، فُدّر جيش الموحدين بـ30 ألفاً، أما العرب فكانوا أضعافاً، ولكن مفاجأة عبد المؤمن للعرب الذين لم يكونوا ينتظرون هجوم الموحدين، وكذا خطّة الموحدين حيث استمالوا العرب إلى موقع جغرافي صعب بين جبال، فكانت النتيجة وخيمة على العرب من انهزام مُذللّ لهم، كما اصطحب الموحّدون معهم نساء العرب وصبيانهم إلى المغرب الأقصى، وهي إهانة عظيمة لم يستطع العرب تجرّعها، ولكن بحنكته السياسيّة استطاع عبد المؤمن أن يجعل العرب في صفّه من خلال استلطافهم وإعادة كل ما أخذ منهم. أنظر ابن غلبون الطرابلسي: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص ص 125-126.

2 أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنّى بالبيهقي: أخبار المهدي بن تومرت، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1971، ص 76.

3 نفسه، ص 76.

4 عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني: رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981، ص 344.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

للعهد¹، " فلماً وصل إلى سلا انعقدت البيعة لابنه محمد على أوفى شروطها وربوطها..."² كما جاء عند ابن عذاري أنه لما فتح المهدية وظهر من سليم بعض المشاغبات بالتعدي على قابس، خاطبهم عبد المؤمن بأبيات شعر من قول القاضي ابن عمران :

أسليم دعوة ذي إخاء مُرشد هاد إلى الحقّ المبين المُسعد

ومذكّر ما كان أسلاف لكم فضلوا به أفعال كلّ مُسدّد³

ويبدو أن خروج جيش الموحّدين كان لتأديب العرب المفسدين بإفريقية والذين حاصروا القيروان واحتلوا باجة⁴، واستنّاداً إلى الرسائل الموحّدية (أنظر الرسائل 07-08-09) التي بعث بها عبد المؤمن وخاصة بفتح بجاية وقسنطينة 547هـ/1152م وهزيمة العرب 548هـ/1153م، فإن السبب في مسير الموحّدين ما كان من تجمّع العرب لمحاربة الموحّدين يقول عبد المؤمن في الرسالة 09: " يخاطبون جميع من ببلاد إفريقية وما يتّصل بها إلى جهات الإسكندرية من العرب المغمورين بغوامر الجهالة ... ويُراسلونهم مراسلة الاستعانة والاستمداد ويستدعونهم لمعنى الانتصار على الموحّدين والاعتضاد"⁵، وقد حاول روجار صاحب صقلية استمالة العرب ودعمهم وإمدادهم بخمسة آلاف من جنوده، وهذا حتّى يتمكّن من القضاء على العدو المشترك (عبد المؤمن والموحّدين)، فكان من العرب أن رفضت عرض روجار وقالوا: " ما بنا حاجة إلى نجدته ولا

1 ابن الأثير، السابق، ج9، ص 391.

2 ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب-قسم الموحّدين-، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985، ص 49.

3 نفسه، ص62.

4 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص 490.

5 ليفي بروفنصال: مجموع رسائل موحّدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، ج10، الرباط، المغرب، 1941، ص 29.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ - 12م

نستعين بغير المسلمين¹ أدت المعركة إلى تفكيك عصبية الكثير من القبائل العربية، وخاصة بعد أن تم إشراك العديد من أفراد تلك القبائل في الجهاد بالأندلس ضدّ النصارى، وكذا إعادة توطين العديد من القبائل مثل رياح وقبائل جشم، حيث تمّ إسكانها بالهبط وتامسنا من بلاد المغرب الأقصى²، ولقد كان من العرب من علت رتبته لدى أمراء الموحّدين كمسعود بن سلطان الرياحي المعروف بمسعود البلطي، هذا الأخير كان يُستشار في أمور الدولة مثل: تقديم أبو الفضل بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي على وظيفة الكتابة، كما كانت لمسعود هذا مزية، إذ كان يحضر مع أمير الموحّدين أكثر الأوقات في الخلوات، ممّا يعني استئمانه على أسرار وخبايا حكمه.

إذاً لقد كان لموقعة سطيف أثر نفسي على أفراد القبائل العربية والتي قدّر تعداد مُحاربيها بأضعاف جيش الموحّدين الذي قدّر بحوالي 03 آلاف، وإذا نظرنا إلى الجانب النفسي وخاصة من نقل الموحّدين لنساء العرب إلى مراكش، فإن العرب كانت هزيمتهم هزيمتين فالعربي لا يقبل على نفسه الذلّ والهوان، فمن صفات العرب الغيرة على نسائهم وأعراضهم، فلم يستطيعوا هضم تلك الخسارة، حتى وإن أعاد لهم الموحّدون ما أخذ منهم.

وعلى كلّ حال فإن ابن خلدون يلخص ذلك كلّ في قوله: " ثم راجعوا-أي العرب-بعد ذلك بصائرهم واستكانوا لعزّ الموحّدين وغلبيهم فدخلوا في دعوتهم وتمسّكوا بطاعتهم"³، ويؤكد ذلك عبد الواحد المراكشي بأنّ عبد المؤمن أزال ما كان بأيدي العرب من امتيازات-مثل جعل نصف غلّة

1 ابن الأثير: السابق، ج09، ص 390.

2 الغبريني: السابق، ص 54.

3 ابن خلدون، العبر، مج06، ص 44.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

البلاد من تمرها وبزرها بيد العرب-وصيرهم جنداً له، كما أقطع بعض رؤساء القبائل العربية أراضي¹.

3- استعمال العرب الهلالية في الجهاد بالأندلس: مورد اقتصادي

يرى عز الدين عمر موسى أنّ المرابطين استخدموا العرب في جيوشهم، ولكن كان عددهم قليل، وإنّما انضمامهم بأعداد كبيرة وبصفة منظّمة كان في عهد الموحّدين وخاصة بعد فتح المهدية وطرّد النورمان 555هـ/1160م²، وعلى عكس ذلك أشار القادري بوتشيش بأنّ المرابطين فكّروا في استقدام الوافد الجديد لبلاد المغرب - بنو هلال- واستعمالهم في ردّ عادية ألفونسو، غير أنّ أمراء المرابطين استبعدوا الفكرة خوفاً من تحوّل الإنقاذ إلى احتلال وخراب على حدّ قوله³، وممّا يدلّ على استخدام الموحّدين للهلاليين في الجيش بصفة منظّمة، ما جاء في رسالة عبد المؤمن بن علي إلى الطلبة والموحّدين والأشياخ والأعيان والكافة بقرطبة من قوله: "... وكنا وفقكم الله أعلمناكم أنّ العرب أصلحهم الله يُرجى لهم أن يتلافوا زللهم ويستدركوا خطلهم بغزو في جزيرة الأندلس - حاطها الله - يُكفّر الله خطاياهم ويُصلح عملهم ..."⁴.

ولعلّ السبب في ضمّ الهلاليين في جيوش الموحّدين يكمن في سببين اثنين هما:

-
- 1 عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، ص ص 294-295.
 - 2 عز الدين عمر موسى: الموحّدون في الغرب الإسلامي - تنظيماتهم ونظمهم -، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1991، ص ص 221-222.
 - 3 إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2000، ص 39.
 - 4 ليفي بروفنصال: السابق، ص ص 111-112.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ - 12م

*تقليص نفوذ أشياخ الموحّدين، وخلق قوة موازية يكون لها وزن في ترجيح الكفة للأمير الموحّدي عبد المؤمن، وهذا ما حصل بالفعل في أخذ البيعة لابنه محمّد فكانت كما أراد وبمعونة العرب¹.

*الاستفادة من طاقات العرب القتالية واستنزافها في الحروب الخارجية، ممّا ينتج عنه استتباب الأمن في إفريقية والمغرب (وهذه من أهم السياسات التي كبحت جماح الهلاليين، بل بالعكس من ذلك استقطبت هذه السياسة الموحّدية الأعداد الغفيرة من الهلاليين الذين توافدوا من أجل الجهاد بالأندلس، ولعلّ شعر عبد المؤمن في تحفيزهم دليل على ذلك، إذ درس عبد المؤمن نفسية العرب الهلالية، فحفّزهم أولاً من أجل الجهاد في سبيل الله، وثانياً من أجل المكاسب الماديّة والمغانم، وفي هذا يقول:

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر وشدّوا على الأعداء شدة صائل

إلى أن يقول:

فما همّنا إلّا صلاح جميعكم وتسريحكم في ظلّ أخضر هاطل
وتسويغكم نعمى ترفّ ظلالها عليكم بخير عاجل غير آجل
فلا تتوانوا فالبدارُ فضيلةٌ وللمدلج الساري صفاء المناهل²

1 ابن عذاري: البيان - قسم الموحّدين-، ص 49.

2 عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 294.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

ولعلّ أندري جوليان Charles-André Julien نظر إلى ضمّ الهلاليين إلى جيش الموحّدين نظرة طائفية، إذ يقول: "ولم يكتف عبد المؤمن وخلفائه بحشر البدو في الجيوش المقاتلة بإسبانيا، بل استعملهم شرطة في بلاد البربر"¹.

كما قام عبد المؤمن بتوطين العرب الهلالية في نواحي الأندلس، فجعلوا في قرطبة وإشبيلية وشريش وغيرها، وكانوا بأعداد ضخمة، وكما ذكر صاحب المعجب " فهم باقون إلى وقتنا هذا -621هـ/1224م- كما انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلق كثير"²، وهو ما يدلّ على توطن تلك القبائل - من رياح وزغبة وجشم وغيرهم، وهي سياسة تُضاف إلى السياسات السابقة لعبد المؤمن والموحّدين عموماً، وربّما أدّى ذلك إلى نوع من الأمن بالمغرب وخاصة في عهد الأمراء الأوائل للموحّدين، ما جعل المراكشي في المعجب يثني على سياسة أبي يعقوب يوسف ومدى كثرة الخراج في عهده ".. فلم يرتفع لملك من الملوك -أعني ملوك المغرب- قبل أبي يعقوب هذا وبعده ما ارتفع إليه من الأموال"³، ورغم أن بعض بطون العرب نقضت الطاعة، وساندت بعض الحركات الخارجة عن الدولة كحركة ابن غانية 581هـ/1185م، إذ ساندتها رياح وجشم، فكان من المنصور الموحّدي ومعه قبيلتي زغبة والأثيج من هزيمة هذه الحركة، فأجلى قبائل العرب من رياح وجشم إلى المغرب الأقصى، فتوطّنت جشم ببلاد تامسنا وأمّا رياح فببلاد الهبط⁴، ويعلّل عبد الوهاب بن منصور هذه الخطوة بأنّ المنصور قصد من ذلك كسر شوكة العرب بإفريقية من جهة، وتقوية

1 شارل أندري جوليان، السابق، ج2، ص 146.

2 المراكشي، المعجب، ص 295.

3 نفسه، ص 329.

4 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص ص 45-46.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

جيشه بالعرب المرحّلين إلى المغرب الأقصى¹، ولعلّ سياسته هذه لم تنجح، إذ نقل ابن أبي زرع قول المنصور "... ما ندمتُ على شيء فعلته في خلافتي إلّا على ثلاث وددتُ أنّي لم أفعلها : أولها إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب لأنّي أعلم أنهم أصل فساد، والثانية بنائي رباط الفتح ... والثالثة إطلاقي أسارى الأراك .."²، ولهذا فقد انتقد أندري جوليان Charles-André Julien هذه السياسة، حيث رأى بأن ذلك مكّن العرب من نشر نمط حياتهم بالمغرب الأقصى وإشاعة الفوضى فيه³ بعد ما كان في منأى عن أيدي الهلاليين - ولو أنّ الطائفية تبدو واضحة من خلال كلماته -، وهذه سياسة أخرى لإضعاف العنصر الهلالي وتفكيك عصبية قبائله وتفريق شمل القبائل العربية، ومما يؤكّد أن الاستقرار ربّما كان مع أمراء الموحّدين الأوائل تبعاً لسياستهم اتجاه العرب، ما كان من أمر الرشيد الموحّدي مع رؤساء الخط من تقتيلهم واستباحة حلّهم وأحياءهم بسبب مساندتهم لابن هود وابن وقاريط الخارجين عن دولة الموحّدين⁴.

وكنتيجة لما أسلفنا فإنّ اشتراك الهلاليين في جيوش الموحّدين والانتقال إلى الأندلس والتوطّن فيها، إضافة إلى استعمال أفراد القبائل العربية في أعمال الدولة كقبيلة كرفة من الأثبج حين استعملهم صاحب الزاب في تصارييف دولته من العسكر والخفارات المختلفة، زيادةً على اتّخاذ الشاة والبقر مثل عرب دريد - ومن بطونها توبة علي -الذين غلبوا على أولاد عطية على تلة بن حلوف بقسنطينة، فإنّهم عجزوا عن الرحلة واتّخذوا المواشي وصاروا من القبائل الغارمة تحت إمرة السلطان يستعملهم في شئون دولته، أدّى إلى ضعف العصبية لدى الكثير من قبائل بني هلال ممّا

1 عبد الوهاب بن منصور، السابق، ج1، ص 408.

2 ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1972، ص 230.

3 شارل أندري جوليان: السابق، ج2، ص 145.

4 ابن خلدون، العبر، مج 06، ص ص 533-537.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ - 12م

أدى إلى الاستقرار، كما استفاد الموحدون من توجيه طاقات وقدرات الهلاليين القتالية سواء في الجيش النظامي الموحد أو نقلهم للمشاركة في الجهاد ضد النصارى بالأندلس، وحتى هذه الأخيرة أعني الأندلس رأى فيها الهلاليون أرضاً خصبة لرعي مواشيهم، وهو ما حصل في كثير من الحملات العسكرية نحو الأندلس، فقد ثبت أنّ الهلاليون نقلوا معهم إلى بلاد العدو عدداً كبيراً من أغنامهم ومواشيهم برسم الجهاد، وبعد ذلك التفكير في الاستقرار هنالك، كما أدى الاستقرار النوعي للهلاليين إلى توجيه أفراد تلك القبائل إلى مجالس وحلق الصوفية مبادرين إلى التوبة، هذه المدارس الصوفية استقطبت عدداً كبيراً من الهلاليين واستطاعت تطهيرهم ضمن مشاريع إصلاحية داخل محيط القبيلة، وعلى العموم فإننا سنرى كيف أن التصوف كان له دورٌ في تهدئة حدة النشاط الحرابي لتلك القبائل.

المبحث الثاني: التصوف والتوبة (الإقلاع عن الحاربة) الهلالية

يربط محمد حسن ظاهرة التوبة¹ لدى القبائل الهلالية بضعف العصبية داخل الكثير من تلك القبائل انطلاقاً من العصر الموحد، وتلقي المجموعات القبلية الهلالية لهزائم خلخلت ركائز وقوة العصبية للهلاليين "... ما يعني انتقالها من قبائل نابذة لا تنالها الأحكام الشرعية إلى مجموعات بدوية غارمة بدأت تعترف بالسلطة المخزنية"²، ويعتبر محمد حسن الزاوية الريفية هي الواسطة في هذه العملية الثقافية، ويفرق بين العرب التائبين قبل القرن 08هـ/14م والذين مارسوا

1 لعلّ محمد حسن يعرف التوبة لدى القبائل العربية البدوية بأنها تعني: نهاية فترة المعارضة والتمرد وبداية الاندماج في النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي، أنظر مقال: محمد حسن: الفقراء والزوايا بوسط إفريقية من أواسط القرن 06هـ إلى نهاية القرن 08هـ، ضمن كتاب المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي، بيت الحكمة، تونس، 1999، ص316.

2 محمد حسن، المدينة والبادية، ص 662.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

الفروسيّة وتصدّوا للخطر المسيحي كما أسلفنا سابقاً من مشاركتهم في ظلّ الدولة الموحّدية بالجهاد في الأندلس، والعرب الذين اندمجوا في المنظومة الصوفيّة خلال القرن 08 هـ -14م والذين اقتصر دورهم في محاولة تهدئة البوادي وحفظ الأمن في المسالك والطرق والسواحل¹، إذ لمّا عجز سلاطين الحفصيين عن إرضاء العرب من منحهم نصف الأعشار مما تنتجه المملكة نظراً لأنّ عدد العرب يفوق إمكانيات الدولة، وباستعمال الحيلة ورّعوا تلك الأعشار على طائفة منهم شرط الحفاظ على أمن البوادي²، ولقد أدى استقرار الهلاليين وبالتالي ممارسة بعض الأنشطة الزراعيّة اهتمامهم ببناء الزوايا -أو المدشر- والذي كان ملجأً للمسافرين³، وهنا يمكن أن نفتح قوساً للتساؤل عن علاقة السلطة بظاهرة انتحال الهلاليين للتصوّف، وهل ما إذا كان ذلك بإيعاز من الأمراء والحكّام محاولة منهم لاستتباب الأمن، أم أنّ توجّه الهلاليين نحو حلق الصوفية كان محض إرادتهم ورغبتهم في ممارسة التصوف المفضي للتوبة والابتعاد عن أساليب العنف التي كانت تمارسها تلك القبائل؟

لعلّ ما أدّى بالهلاليين بالتوجّه إلى مجالس الصوفيّة وانتحال طرقهم ما فقدّه هؤلاء لدى الفقهاء المالكية ألا وهو تسهيل شروط التوبة، فقد ذكرت نيللي سلامة العامري ما كان من الشيخ العبيدلي (ت748هـ/1347م) من طريقة لاستتابة العرب⁴، هذه الطريقة وجد فيها الهلاليون مخرجاً ممّا كانوا فيه من الحراية وتسهيلاً لهم للاندماج في المجتمع، ذكر ابن ناجي في ترجمة أبي يوسف الدهماني وهو ممّن لقي أبا مدين شعيب، أنّه تاب على يديه أممّ من الأعراب فنقلهم من اكتساب

1 محمد حسن، المدينة والبادية، ص ص 668-669.

2 الحسن الوزان: السابق، ج1، ص ص 47-48.

3 الطاهر بونايب: السابق، ص 129.

4 نيللي سلامة العامري: الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني لإفريقية في العهد الحفصي، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2006، ص 285.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ - 12م

الحرام والإضرار بالناس إلى ملازمة الطاعة والاشتغال بالعبادات¹، كما أنّ الوغليسي عبد الرحمان بن أحمد (ت786هـ/1384م) والذي كان يغشى حلقة الكثير من الطلبة الهلاليين، عمد إلى تهذيب مقدّمته في الفقه المالكي مُراعياً في ذلك ما كان عليه حال محيط هؤلاء الطلبة من العيث والفساد، وقد بسّطها لثَقَمهم وجعل أبوابها من الطهارة، والصلاة وغيرها سهلة لمن أراد الانتفاع بها، وجعل باباً سَمَّاه وجوب المبادرة بالتوبة وباباً آخر في التّفكّر في الموت وما بعده².

وبالعودة إلى نصوص التجاني في رحلته نجد إشارات ومظاهر عديدة لممارسة العرب الهلالية طرق الصوفية، بل تعدّى ذلك إلى إبتناء العرب للعديد من الزوايا التي كما أسلفنا الذكر أصبحت ملجأً للمسافرين وعابري السبيل سواء من البرد أو من قَطّاع الطرق، وما يلفت الانتباه عند قراءة نصوص التجاني ذلك النشاط الزراعي الذي يكون حول الزوايا والرباطات، فهي تدلّ على الاستقرار والتوجّه نحو نمط معيّن من المعيشة بعيداً عن الحراة والنهب وقطع السابلة، فقد ذكر التجاني زاوية بني سهيل وهي لصاحبها سهيل أبي عيسى (ت673هـ/1274م) وكانت وظيفة الزاوية : استقبال عابري السبيل وتزويدهم بما يحتاجونه من زاد وغيره وقد يُرجعون ما استلبه منهم العرب المحاربة³، ومن مظاهر ممارسة العرب للزراعة بهذه الزاوية ما قاله التجاني : "وهي رابطة حصينة يحفّ بها شجر كثير من التين والرمان والخوخ⁴، وزاوية أولاد سنان وهي أكبر من الأولى ترجع إلى عرب بني حميد بن جارية، وفي موضعها سوقٌ يجتمع فيه العرب يجلبون إليه أنواع

1 الدبّاغ وأكمّله ابن ناجي، السابق، ج3، ص 213.

2 عبد الرحمان بن أحمد الوغليسي: المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية، تحقيق: أمل محمد نجيب، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ط1، 2007.

3 التجاني: السابق، ص 213.

4 نفسه، ص 213.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

السلع والماشية¹، وفي الموضع المسمّى سواني خلف الله وهي لرجل من مرابطي العرب تتلمذ على يد أبي عيسى العموري، وكان ابتنى فيه مسجداً وأحى به أرضاً مواتاً، ولكن إفساد العرب أضّر بزراعته وخدمته للأرض²، واسم هذا الموضع يدلّ على ممارسة نشاط زراعي فالسّواني لها معنى السقي بالماء، فتدلّ على وجود آبار فيها الماء، ويبدو أن العرب الهلالية في أواخر العصر الوسيط قد أصبحت لهم عقائد في الأولياء فيخافون من نعمتهم، نستشف ذلك من نص أورده الوزان (القرن 10هـ/16م) من أنّ عرب تامسنا كانوا يتركون أدواتهم الفلاحية عند صومعة في وسط مسجد بمدينة النخيلة-التي خربها ابن تاشفين- يعتقدون أنّ ولياً دفن هناك، ومن خوفهم من ذلك الولي لا يأخذ أحد أدوات غيره³، وأورد التجاني في رحلته من تصديق العرب للكرامات أنّ بئر طشانة كان بقربها قبر رجل يدعى شهوان، وكان ذا رئاسة وكرم، فكانت العرب إذا نزلوا ذلك الموضع ولم يكن به زاد نادوا على قبره: يا شهوان أقر أضيافك، فيُتاح لهم صيدٌ أو ضالّةٌ يلقونها، ولم يبيتوا قطّ دون عشاء⁴.

1- دور المدرسة المدنية وتوجيه الهلاليين نحو الأنشطة الاقتصادية:

وقد استوطن أبومدين شعيب (ت594هـ/1198م)⁵ آخر حياته ببجاية في القرن 06هـ -

12م، ونقل صاحب أنس الفقير وعزّ الحقير بأن آلاف الطلبة تخرّجوا على يديه¹، وظهرت

1 التجاني، السابق، ص 214.

2 نفسه، ص 133.

3 الحسن الوزان، السابق، ج1، ص 199.

4 التجاني، السابق، ص311.

5 هو أبو مدين الغوث شعيب بن الحسن الأندلسي الفاسي البجائي، ولد بالأندلس وبالضبط قطنانية من أعمال إشبيلية سنة 509 هـ، وتوفي بعد طلب من الأمير الموحي يعقوب المنصور الحضور إليه بالمغرب الأقصى سنة 594هـ، دفن بالعباد بتلمسان، وترجمته مبسطة في المصادر والمصنّفات التاريخية، من أهمّ مشايخه الذين اخذ

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

الكرامات على أيديهم، وبطبيعة الحال فإن الكثير من الطلبة الهلاليين الذين جاوروا المدن كان لهم اتصال بخلق المتصوفة حينئذ، خاصة إذا علمنا الديموغرافيا الكبيرة لأفراد العرب الهلالية حول مدينة بجاية، من أهم تلاميذ أبي مدين نجد أبو يوسف يعقوب الدهماني (ت621هـ/1224م) والذي ترك أسلوب الحراة وانحاز إلى الصوفية، وقد ترجم له ابن ناجي بقوله: "وهدي الله على يديه أمماً كثيرة من الأعراب والبوادي، فنقلهم من اكتساب الحرام والإضرار بالناس إلى ملازمة الطاعة والاشتغال بالعبادات"²، وكنظرة شاملة نجد أن ابن قنفذ القسنطيني من خلال مؤلفه أنس الفقير وعزّ الحقيّر يجلي الصورة التي كان عليها المغرب الأوسط في القرن 08هـ/14م، وخاصة في بجاية وقسنطينة من انتشار التصوف والزوايا ذات التأثير المدني، ووجود مشايخ الصوفية ممّن عُرفوا بالصلاح فكانت أفكارهم تنتشر بين الطلبة انتشاراً واسعاً مثل الشيخ: أبو هادي مصباح بن سعيد الصنهاجي (ت748هـ/1347م)، والذي يرى المؤلف - ابن قنفذ - أنه من عرب برقة³، كما أن طاهر المزوّغي (ت646هـ/1248م) وهو أحد تلامذة أبي مدين كان من عرب مزوّغة، وبه انتفع كثير من الطلبة⁴ وأول المنتفعين منه

عنهم طريقة التصوف أبي الحسن علي ابن حرزهم والشيخ أبو يعزى يلنور الذي ألبسه الخرقة، ولمزيد ترجمته أنظر مثلاً: ابن الزيات التادلي: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 22، ط2، 1997، صفحات 319-326. وأنظر كذلك: عبد الله بن عبد القادر التليدي: المطرف بمشاهير أولياء المغرب، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط4، 2003، صفحات 64-81، وأنظر الغبريني: عنوان الدراية لمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 1979، صفحات 22-32.

1 أبو العباس أحمد بن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير وعزّ الحقيّر، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط، المغرب، 1965، ص 16.

2 ابن ناجي: السابق، ج3، ص 213.

3 ابن قنفذ، السابق، ص 49.

4 محمد بن محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، مصر، 1349هـ، ص 170.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

العرب أنفسهم، كما أنّ انتشار التصوّف بين أفراد الهلاليين جعل من العرب لا يتعرّضون لمن يُعرف من الصوفية، ففي ترجمة الشيخ علي بن محمد المراكشي نزيل بادس من ريف المغرب الأقصى، أنّه كان يمرّ على الأعراب بين عدوتي الصف والركيبة مجيئاً وذهاباً يمشي وسط العرب وعليه ثيابه فلا يناله منهم شيء¹، وهذا عند تغلب العرب على الريف سنة (635هـ/1237م)، ولو أن المؤلف يُرجع السبب إلى كرامات الشيخ، فإنّنا نرى أن انتشار التصوّف وعلوّ مكانة شيوخ المتصوّفة في قلوب العامة كان أحد الأسباب بعدم تعرّض العرب لهم.

وعلى حدّ قول مصطفى أبو ضيف أحمد أنّ المدرسة المدينيّة ومعها أقطاب الصوفية ظهوروا في ظل الموحّدين الذين شهدوا نهضة فلسفيّة على حدّ قوله، ولكن هذه المدارس لم تستطع فرض أفكارها وآرائها إلّا بعد تفكّك نظام حكم الموحّدين، وبالتالي انقسام المغرب إلى ثلاث دول مرّقتها الحروب والتطاحن من أجل حيازة مجالات أوسع، إذ استغلّ الصوفية هذا الظرف السياسي من أجل التوسّع قدر الإمكان وهو ما حصل بالفعل، وضرب أمثلة باعتراف القبائل العربية للمذهب الصوفي وبناء الربط والمداشر والزوايا² والتي كانت أدوارها تختلف بين الحماية وحفظ الأمن وإيواء المسافرين وعابري السبيل، ولعلّ هناك من يفرّق بين التصوف الذي انتحلته القبائل العربية فيسمّيه تصوف بدوي وعلى الجهة المقابلة نجد التصوّف الحضري، فهو بهذا ينقسم على حسب نمط السكن والمعيشة والقبيلة، إذ أن التصوّف البدوي الخاصّ بالقبيلة في البوادي وهو أن يدرس أحد أفراد القبيلة على شيخ من الصوفية

1 عبد الحق بن إسماعيل البادسي: المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق: سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ط2، 1993، ص 75.

2 مصطفى أبو ضيف أحمد: السابق، ص ص 252-254.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

فيحمل معه أفكار ذلك الشيخ إلى قبيلته فيُحاول نشرها¹، سواء في داخل القبيلة أو يتعدى ذلك إلى قبائل أخرى، ولعلنا نجد نماذج حيّة بالمغرب الأوسط خصوصاً، فسعادة الرياحي الذي رحل إلى المغرب والتقى بأبي اسحاق التسولي، كان يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل تعداه إلى أن يكون إصلاحاً اقتصادياً²، طالب برفع المكوس والضرائب والغرامات عن الناس بالزّاب، كما نجد نموذجاً ثان يذكره ابن خلدون وهو الشيخ عامر بن أبي يحيى بن محيا والذي سافر إلى مصر والتقى شيخ الصوفيّة هناك يوسف الكوراني وتلقّى طريقته، بل تعدى إلى أن بثّ هذه الطريقة في قومه فاتّبعه الكثير، كما حارب المفسدين في البوادي³.

حقيقة لقد لعبت المدرسة الصوفية دوراً كبيراً في جذب الهلاليين نحو التوبة مُبتعدين بذلك عن الأساليب الحرابيّة، ولو أنّنا نعتقد بأنّ كثير من قبائل العرب بقيت على حالها من الحراية فلا يمكن بحال إطلاق التوبة على جميع القبائل، بل وُجد في تلك الحقبة منها من ازدادت نشاطاته من النهب والسرقة وقطع الطريق، مثل ما حصل لابن بطّوطة حين نزوله بجاية بالمغرب الأوسط، فاضطرّهم الخوف من غارة العرب إلى أن أشار عليه أحد من كان معه - وهو أبو عبد الله الزبيدي - إلى أن يبيع دابّته ويخفّف من متاعه⁴، كان ذلك سنة 725هـ/1325م مبدأ رحلة ابن بطّوطة الشهيرة إلى بيت الله الحرام، وهذه الرحلة أملاها ابن بطّوطة من ذاكرته بعد عودته إلى المغرب الأقصى، كما أكثر فيها من التصدّوّف إذ كان مُغرّقاً

1 الطاهر بونابي: عصر المتصوفة بالمغرب الأوسط، سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، ج3، 2017، ص 372.

2 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص ص 81-82.

3 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص 56.

4 ابن بطّوطة: تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ج1، ص35.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

فيه بذكر كرامات الشيوخ، كما أنّ الخوف من غارات العرب جعل قافلة الرّحالة يصطحبون معهم فرساناً لحماية القافلة وذلك عند خروجهم من قابس قاصدين طرابلس، وكذلك حصل عند تجاوزهم مسلاتة ومسرّاتة وقصور سرت، قال ابن بطوطة: "... وكان بالركب قومٌ رماةٌ فهابتهم العرب، .. وعصمنا الله منهم"¹، والبلوي في رحلته إلى الحج والتي سماها التاج المفرق في تحلية علماء المشرق ابتدأها سنة 736هـ/1336م أي تزامناً مع رحلة ابن بطوطة، يصف خروجه من بونة بقوله: "... عن قطعة من العرب كقطع الليل، حملت علينا حمل السيل، فكان زوال كلّ ما ملكنا أسرع من لحسة الكلب أنفه..."²

2-مظاهر الاستقرار الاقتصادي: بناء القصور والرباطات

ينقل لنا ابن الحاج النميري نماذج من قصور ورباطات العرب الهلالية ببلاد الزاب والمغرب الأوسط، والّلافت للانتباه مدى ممارسة العرب للنشاط الزراعي حول تلك القصور، فهي نماذج حيّة لاستقرار القبائل العربيّة، كما أن التجاني في رحلته يصف بعض الرّوايا والأربطة بأنّها حصينة وتُمارس في محيطها الفلاحة والاعتناء بالأشجار المثمرة، إذ كما أسلفنا أن تلك الأربطة والقصور كانت مأوى للمسافرين وعابري السيل.

ويدلّ على حالة الاستقرار الهلالي في تلك المجالات ما نقله النميري - والذي كان مصاحباً لأبي عنان المريني في حملته سنة 749هـ/1348م - من أنّ أبي عنان لمّا تقدّد أحوال تلك المناطق من الزاب وجد المخازن مملوءة بالأطعمة والحبوب والزرّوع وادّخارهم لأنواع

1 ابن بطوطة، السابق، ص38.

2 خالد بن عيسى البلوي: التاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق: الحسن السائح، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ج1، ص ص 164-165.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

مختلفة من التمور¹، وهذه الحالة توجي باهتمام العرب بممارسة الزراعة من القمح والشعير وكذا الاهتمام بما يكون من غلة النخيل من التمور، والذي عدّه صاحب كتاب الجغرافية إلى عشرة أجناس مختلفة لا يشبه بعضه بعضاً لا في النعت ولا في الطعم²، وتعتبر زراعة النخيل الزراعة الشعبيّة التي اختصّت بها هذه المناطق³ ومنها بلاد الزاب وجلّ الرحالة والجغرافيون بيّنوا ذلك، وكذلك وجد أبو عنان المريني عيشة أهلها في رغد، فما كان من السلطان إلّا إصدار مرسوم بمصادرة أملاك العرب ورفع تلك المدخّرات من الأطعمة والزروع في جملة المجابي السلطانية، كما منع الحراثة وعطلّ عمل الأرض إلّا ما يبدر من الغابات.

ولعلّ الداعي إلى استيطان العرب الهلالية مناطق مثل الزّاب ما تتوفّر عليه من مقوّمات الاستقرار كوجود الماء الذي يعتبر العامل الأساسي في توطّن القبائل، وهو ما نقله صاحب الاستبصار من أن بلاد الزّاب " في طرف الصحراء، في سمت بلاد الجريد، وهي مثلها في حرّ هوائها وكثرة نخيلها، وهي مدن كثيرة ... فيها المياه السائحة والأنهار والعيون الكثيرة"⁴.

وكما أسلفنا الذكر فإنّ النميري قد نقل لنا صورة كاملة متكاملة على الاستقرار الذي عرفته العرب، ولم يُخف إعجابه بتلك القصور والرباطات والقلاع، ولو أنّه في كثير من

1 ابن الحاج النميري، السابق، ص 452.

2 أبو بكر الزهري، السابق، ص 107.

3 صلاح الدين هُدّوش، المدينة ببلاد الزّاب من خلال المصادر العربية من القرن 05هـ-08هـ، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد 14، مارس 2015، ص 113.

4 مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص 171.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

الأحيان يحاول تبرير أفعال أسياده من المرينيين وتدميرهم لاستقرار العرب¹، فتارة يجعل من قصر عثمان الرياحي مرتعا للمفسدين وقطاع الطرق، وتارة أخرى يحاول اتهام عثمان بعدم الكرم، كما جعل من قصور باينة موطناً للإدّخار ورباطاً للتصوّف²، ولعل الطاهر بونابي كان واضحاً جداً في هذه الحيثية بقوله: "ولعلّ استنكاف مؤرخ المناقب السلطانية عن كشف جرائم مولاه أو تحميله تبعات تخريب البنية الحرفية، قد جعله ينصرف إلى تحميل العرب الهلالية مسؤولية التخريب"³.

ويبدو أن أولّ القصور التي أعجب بها ابن الحاج قصر عثمان بن علي بن أحمد الرياحي، سواء باتساعه وارتفاع حيطانه أو بالحجر المبني به، فقد بُني بالحجر المنجور المعروف باليعسوي، فهو بهذه المواصفات حصين له خمسة أبراج، ويفصل النميري أكثر فيصف دياره من الدّاخل وأجلّها دار عثمان: "... قد قامت من جهاتها الأربع على السواري الساميّة من الرخام"⁴، ويواصل النميري إعجابه بالحدائق والبساتين التي حول القصر وذلك بكثرة النخيل والزروع والمراعي⁵، ولو أنّه يتّهم عثمان الرياحي بجعل قصره مأوى ينطلق منه الأشرار للإغارة على الضعفاء على حدّ قوله⁶، ومن أهم القصور نجد قصر باينة وهو قصرٌ بناه سعيد بن موسى بن أحمد الرياحي، وهذا القصر على حدّ قول النميري جُعل للإدّخار وكذا رباطاً يجتمع فيه المتصوّفة من الأعراب، ومنها قصر شيّده ابي دينار سليمان بن علي بن

1 بن بلخير أحمد، عبد القادر بوعقادة: الحملات العسكرية المرينية وأثرها على استقرار عرب بني هلال، المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد 05، العدد 02، 2021، ص 422.

2 النميري، السابق، ص 415

3 الطاهر بونابي، السابق، ص 173.

4 النميري، السابق، ص ص 413-414.

5 نفسه، ص ص 422-423.

6 نفسه، ص 415.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

أحمد، ودائماً نجد الحجة نفسها في تدمير تلك القصور " جُعِلَتْ مُنْطَلَقاً لأهل الفساد وشنّ الغارات على الضعفاء"¹، ويذكر لنا ابن الحاج قصوراً أخرى منها: قصر يعقوب بن علي بالوطاية وحصنه المعروف بالجديد²، وقصر فلق " عالي البناء ذاهبا كل مذهب في الإباء متناسق الأسوار" ولكنه بعد هدم المرينيين له " وبقي ملاعب للضبع الضابحة والسراحين السارحة والرياح المتناوذة"³، وقصر فرفر⁴ وفيه من البساتين التي حولها الأنهار، وكما أن النميري لم يستطع إخفاء إعجابه من الهندسة العمرانية لتلك القصور، فإنّه كذلك لم يستطع إخفاء هول ما حصل من تدمير تلك الممتلكات والثروة الزراعية والغابيّة ببلاد الزاب، ولعلّ وصفه لتخريب وتدمير ما كان في قصر فرفر يؤكّد ذلك: " .. ما قطعت ألوف النخيل وصودم وصلها مصارمة جبل النخيل وألحقت بها أصناف الشجر مفضوضة بها أفواه الثمر، وتراكم البعض على البعض حتى انقطعت الطرق والمسالك وعميت السبل وخفيت المبارك..."⁵، ولعلّ كثرة القصور والقصبات والحصون الناشئة بفعل استقرار العرب، يؤكّده ابن خلدون من أن العرب نزلوا بلاد الزّاب "واتخذوا بها الآطام والمدن : مثل الدوسن، عريبوا، تهودة، وتومة وبادس"⁶، وكذلك يحيى بن العزّ الذي كانت له خدمة للأمير المريني أبي الحسن أغراه بتملك قصور العرب بالصحراء⁷، وعدّد ابن خلدون قصور العرب والتي هي رقاب السفر إلى بلاد

1 النميري، السابق، ص 416-418.

2 نفسه، ص ص 426-427.

3 نفسه، ص ص 428-429.

4 نفسه، ص 443.

5 نفسه، ص 448.

6 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص 54.

7 نفسه، ص 125.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

السودان ومنها: قصور توات وتمنطيت وتوكرارين وغيرها¹، وقد أطنب النميري في ذكر مواطن العرب وقصورهم، فذكر نقاوس وأمدوكال وما فيها من الأسوار والجناات، كما نستشف من بعض نصوص فيض العباب اتّخاذ العرب للقصبات كالتّي كانت بطولقة² وهي صورة أخرى لاستقرار العرب، وكما هو معلوم فإنّ تلك القصبات تحتوي الكثير من المرافق مثل الدّور للسكن وكذا الأسواق والمساجد وغيرها، فما الذي جعل من مظاهر الاستقرار تلك سبباً يّقلق أمراء بني مرين؟ اللهمّ إن كان ذلك يُخيف المرينيين من محاولة العرب السيطرة على مناطق نفوذهم، ثم لا نستغرب من فعل الأمراء المرينيين إذا علمنا أنّهم قبائل بدو جاءت من الصحراء وسيطرت على دواليب الحكم بالمغرب الأقصى بعد الضعف الذي دبّ لدى الموحدّين، ويذكر التجاني في رحلته عند مروره بقرية تاجورة أنّه رأى فيها قصراً لحמיד بن جارية أبو الجوّاري وهو الذي عمّر هذه القرية ونقل إليها أهلها³، وهي من مظاهر الاستقرار كذلك.

3- من الإصلاح الروحي إلى الإصلاح الاقتصادي

تعدّ حركة سعادة الرياحي نموذجاً حقيقياً لانتقال العرب من أسلوب الحراية إلى التّصوّف وسلوك طريق التوبة وإصلاح الذات والقبيلة ومنها الانتقال إلى الإصلاح السياسي والاقتصادي بالمطالبة برفع المغارم عن النّاس.

تقرّد ابن خلدون بنقل حوادث هذه الحركة التي قامت بأرض الزّاب من أعمال بجاية والتابعة للحفصيين، ولعلّ المشرب الأول الذي انتهل منه سعادة تصوّفه كانت أمّه التي سمّاها ابن خلدون

1 ابن خلدون، العبر، مج06، ص 123.

2 النميري، نفسه، ص435.

3 التجاني، السابق، ص 307.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

حُصِيبة ووصفها بأنها كانت في أعلى مقامات العبادة والورع¹، ثم ما كان من لقاء الصالح الفقيه أبي إسحاق التَّسُولي بالمغرب الأقصى، ويبدو أنه تأثر بخصال هذا الشيخ، فابن خلدون يصفه بـشيخ الصالحين والفقهاء² ولم يذكر من شيوخه الذين تتلمذ عليهم سوى التسولي، هذا الأخير كان فارساً شجاعاً³ على حدِّ قول النباهي المالقي، ولعلَّ ذلك كان دافعاً لسعادة في تقليد شيخه في ميدان الفروسية والشجاعة ومحاربة الشرِّ وأهله، ولذلك عند عودته إلى طولقة نجده يبادر إلى العمل في تغيير المنكر في محيطه وقبيلته، فاتَّبعه الكثير من قومه وغيرهم من القبائل الأخرى، ويبدو أن سعادة قد تطوَّر فكره في تلك المرحلة فبعد أن كانت دعوته منحصرة في إفشاء ونشر التصوِّف وسط محيطه القبلي، نراه ينتقل إلى مستوى أعلى وذلك بمطالبة ابن مزني صاحب الزَّاب برفع الظلَّامات والمكوس عن النَّاس ويعتبرها ظلماً في حقِّهم، ويبادر إلى محاصرة بسكرة عاصمة بلاد الزَّاب مرَّتين سنتي 703 هـ و 704 هـ/1303م-1304م⁴ وهو ما أثر في غلق مسالك الطرق التجارية من وإلى بسكرة، ونحن نعلم ما تنتجه من أنواع التمور ذات الجودة العالية، ويظهر جلياً أنَّ فعل سعادة بمحاصرته للزَّاب أراد من خلاله تضيق الخناق الاقتصادي والسيطرة على مصدر اقتصادي مهمَّ لبني مزني، ومن أهمِّ مظاهر الإصلاح الديني في حركته بناؤه لزاوية بطولقة والتي كانت وظيفتها تأمين البوادي والمسالك من قطاع الطرق من الأعراب، ولولا أنَّ العرب الهلالية كانت من عادتهم النزول إلى مشاتهم بالفقر البعيد لكان من أمر سعادة شأن آخر، ولكن حتى بعد وفاة سعادة استمرَّت الحركة في طريق الإصلاح واستمرَّت حتى الأربعينيات من القرن 08 هـ/14م

1 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص 81.

2 نفسه، ص 81.

3 أبو الحسن النباهي المالقي الأندلسي: تاريخ قضاة الأندلس المسمَّى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، دار الكاتب المصري، القاهرة، ط1، يناير 1948، ص 136.

4 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص ص 82-83.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

مع انتقالها إلى قبيل الدواودة وانقراضها من قبيلة رياح، فاستغلّ الدواودة هذه الدعوة وجعلوها أداة لظلم العامة بأخذ الزكوات والتظاهر بتغيير المنكر على حدّ تعبير ابن خلدون¹.

أمّا من عرب سُليم فنجد العابد الزاهد قاسم بن مرّا بن أحمد من عرب الكعوب، الذي تتلمذ على أبي يوسف الدهماني، فأخذ طريقته في العلم والورع واتّباع السنّة، فاجتمع عليه من عرب البوادي خلقٌ كثير، وسمّى أتباعه بـ "الجنادة"، وكان من عمله تأمين البوادي في إفريقية، قال ابن خلدون: " حتى صلحت السّابلة بإفريقية ما بين تونس والقيروان وبلاد الجريد"²، ولكن عرب بني مهلهل أجمعوا على تصفيته مع موافقة الحفصيين، ولعلّ هذه السياسة من الحفصيين أدّت إلى تفريق شمل العرب (فافترقت أحياء بني كعب) كما أدّت إلى تشجيع العرب على الرجوع إلى ممارسة الحراية وبالتالي إلى إشاعة الفوضى بالبوادي التي كان قاسم هذا يدعو إلى تأمينها.

وأما عامر بن أبي يحيى بن محيا من عرب بني قرّة فنذكره ابن خلدون كذلك بأنّه انتحل العبادة والحجّ، وسافر إلى مصر حيث التقى شيخ الصوفية حينئذ يوسف الكوراني (ت768هـ/1367م) والذي ترجم له صاحب طبقات الأولياء بأنّه ذو طريقة غريبة في الانقطاع³، فأخذ عنه طريقته واتّبعه خلق كثير فحارب المفسدين من العرب في بادية النضر، ومات في يوم صيد له⁴.

1 ابن خلدون: العبر، مج06، ص 85.

2 نفسه: ص ص 160-162.

3 ابن الملقن: طبقات الأولياء، تحقيق: نور الدين شريعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1994، ص ص 492-493.

4 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص ص 56-57.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

لم يتوسّع ابن خلدون في ذكر حركة عامر مثلما توسّع في سرد حوادث حركة سعادة، ويعود ذلك حسب رأينا إلى أنّ مشروع الإصلاح عند سعادة كان مبنياً على أسس علمية بدليل قول ابن خلدون عنه بأنّه " رجع بفقه صحيح وورع وافر"¹، فكان إتباع القبائل له في محاربة الجور الاقتصادي المفروض عليهم من بني مزني، فكانت له القوّة والقبيل في محاصرة عاصمة الزاب كما رأينا مرتين وهذا ليس بالأمر السهل، فقد كانت مبادئ حركته قائمة على أسس متينة تتجلّى فيها مرحلة أخذ العلم على شيخ الصالحين التسولي، كما أنّ سعادة سمّى أتباعه بالسنيّة نسبة إلى إتباع السّنة، فاستمرّت حركته ببلاد الزاب حوالي نصف قرن تقريباً - ولو أنّها بعد وفاته عرفت تميّعاً فيما يخص الاتصال بالسلطان ومداهنته وانتقال الرياسة فيها إلى الدواودة واستغلالها لأغراض أثقلت كاهل النّاس بأخذ الضرائب وغيرها -، أمّا عامر بن أبي يحيى فتتلمذ على الكوراني ذو الطريقة الغريبة في الانقطاع والتسليك، فكان انقطاع أمر حركته الإصلاحية بموته، ومن هنا يظهر لنا مدى تأثير مرحلة طلب العلم في تكوّن الحركات الإصلاحية فيما بعد واستمرارها أو انقطاعها، وهو ما أشار إليه علي الهطّاي بمُسمّى النشأة العلمية².

وكنتيجة لهذا الفصل يمكن القول أن استقرار العرب الهلاليّة كان في فترة ازدادت فيها تلك الجماعات القبلية هيجاناً، وخاصة بعد انكسارها في موقعة سطيف 548هـ/1153م التي كانت نتائجها وخيمة على عصبية القبائل العربية، زيادة على سياسة الموحّدين المبنية على محاولة تأطير تلك القبائل بإدراجها ضمن مشاريع الحكم الموحّدي وإشراكها في الجهاد ضدّ النصارى

1 ابن خلدون: العبر، مج06، ص81.

2 علي الهطّاي: حركة سعادة الرياحي صاحب طائفة السنية بنواحي بسكرة 703هـ-749هـ: دراسة في علاقة الديني بالمجتمع والسلطة في العصر الوسيط، مجلة مدارات تاريخية، المجلد 03، العدد 02، جوان 2021، ص 212.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

بالأندلس، فقد استغلَّ عبد المؤمن وخلفاؤه من بعده الوازع الديني للهلاليين وتمَّ ضمُّ أفراد الهلاليين ضمن جيش الموحَّدين، كما كانت لهم مشيخة للعرب ضمن برلمان الدولة، وكان الجميع يتقرب من شيوخ العرب كسباً لرضاهم.

ويبدو أن الاستقرار الحاصل في ظل هذه الدولة أدَّى فيما بعد - نتيجة لضعف الدول الثلاثة التي خلفت الموحدين - إلى اندماج العرب في المنظومة الصوفية بالمغرب، ولو أنَّ بوادر ذلك كان نتاجاً لجهود أبي مدين ومدرسته الصوفية التي حاولت تقريب مفهوم التوبة من الأفراد الهلالية، مراعيةً في ذلك المحيط الذي انحدر منه أولئك الطلبة والمحاربين، وهو ما نتج عنه وجود طلبة من العرب حملوا فكر المتصوّفة وحاولوا تطبيقه ونشره في محيطهم القبلي، بل تعدّى ذلك إلى أفراد القبائل الأخرى، فظهرت خلال القرن 08 هـ -14م حركات إصلاحية هلالية مثل حركة سعادة وعامر بن أبي يحيى، والتي حاولت تأمين البوادي ومطاردة المفسدين من العرب، بل تعدّى إلى الإصلاح الاقتصادي بالمطالبة برفع المكوس والظلامات.

إنَّ الاستقرار الهلالي ومعه الانضمام إلى حلقات الصوفيّة صاحبتّه ظاهرة تجلّت في بناء واتّخاذ الهلاليين للمداشر والزوايا وهي ظاهرة جديدة في حياة العرب الهلالية، ولعلَّ نصوص الرحلة التيجانية تزخر بالعديد منها كزاوية أبي سهيل وزنزور وأولاد سنان، وكذا عند ابن خلدون مثل زاوية طولقة التي بناها سعادة الرياحي، كما صاحب لجوء الطلبة الهلاليين إلى حلقات التصوّف ممارسة بعضهم لأشغال حرفية وهو ما نعتبره تطوّراً في طريقة تفكير وذهنيّة الهلاليين، رغم الطابع البدوي لتلك الحرف، إلّا أنّها جعلت من الهلاليين يتعقّفون عن فعل أشياء كانوا يرونها متاحة لهم ويحسبونّها من قبيل المباح.

الاستقرار الهلالي وأثره على النشاط الاقتصادي بدءاً من القرن 06 هـ -12م

أشار نصّ أورده ابن خلدون إلى الحالة التي أصبح عليه الكثير من الهلاليين في القرن 08 هـ -14م من ممارستهم لبعض الأنشطة الاقتصادية كالعمل على الأرض بالفلح والزراعة فقال: "... وصار العرب يزدرعون الأراضي في بلادهم بالتلّول ولا يحتسبون بمغارمها"¹، وهو ما سنحاول التعرّف عليه في الفصل القادم من إسهامات العرب في مجال الزراعة.

1 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص ص 900-901.

الفصل الرابع

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة

- توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

المبحث الأول: التوجّه نحو النشاط الرعوي

1-امتلاك قطعان الماشية مدعاة للرعي

2-الثروة الحيوانية

2-1-الخيول العربية الأصيلة

2-2-الإبل مطية الرحل من الصحراء

2-3-الغنم والماعز

المبحث الثاني: ملكية الأراضي الزراعية

1-العمل على الأرض

2-تقنيات الريّ وأساليب استخراج المياه

3-تقسيم ملكية الأرض بالمغرب

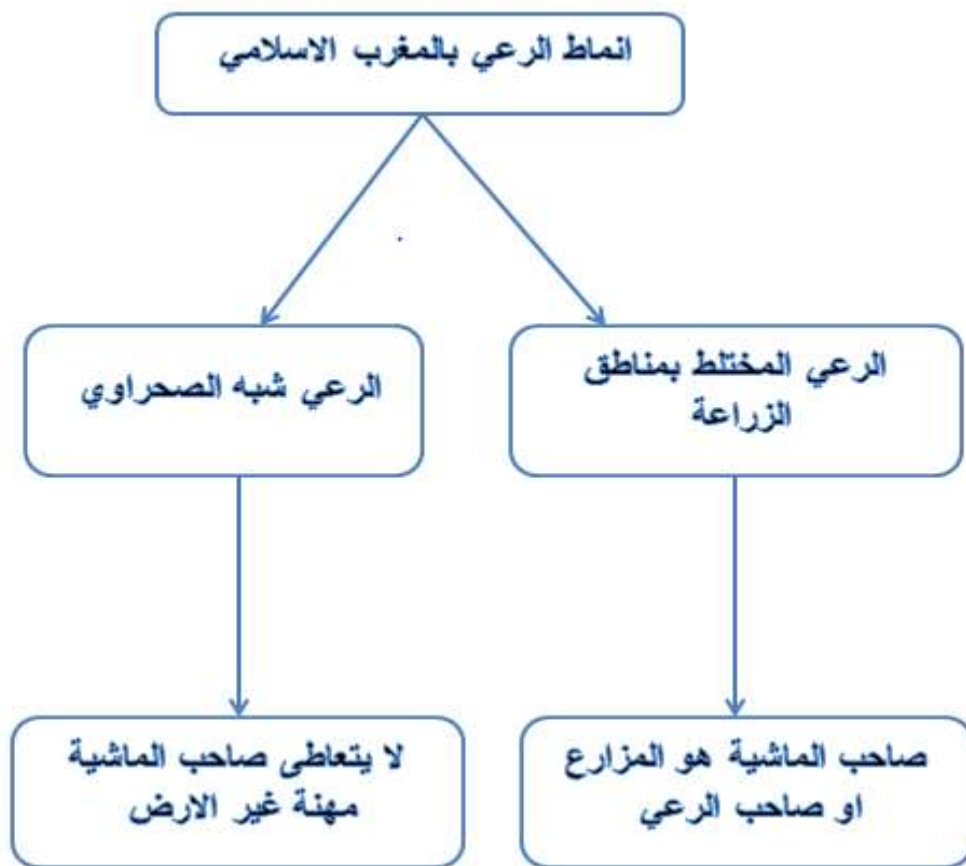
المبحث الثالث: الزراعات المحدودة

1-الزراعة بواحات المغرب

2-البستنة والزراعة في المدن وضواحيها

3-العرب الهلالية وحقيقة تخريب الثروة الغابية

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -



الشكل 01: أنماط الرعي بالمغرب الإسلامي

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

المبحث الأول: التوجه نحو النشاط الرعوي:

1- امتلاك قطعان الماشية مدعاة للرعي

احتدم النقاش - وخاصة بين المستشرقين المهتمين بدراسة تأثيرات دخول القبائل الهلالية إلى المغرب - حول انتقال أنماط الاقتصاد من ممارسة الزراعة إلى نشاطات الرعي، وهذا تبعاً للضجة التي أحدثتها ولوج المجموعات القبليّة الهلالية في القرن 05هـ-11م من أنها شكّلت كارثة حقيقية على حضارة المغرب الإسلامي مستنديين في أقوالهم إلى نصوص مؤرخين عرب لعلّ أبرزهم ابن خلدون في المقدمة، بحيث شكّل هذا الحدث - دخول الهلاليين - عند كثير منهم فيصلاً بين الحضارة والبداءة، ونقطة البداية لانحطاط الحضارة في جميع مجالاتها بالمغرب، وقد فصل علاوة عمارة أقوال المستشرقين وخاصة الفرنسيين ذوي النظرة أو الخلفية الاستعمارية في بعض المقالات التي شكّلت كتاباً سمّاه "دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي"¹، وخاصة المقال المعنون بـ "الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي"، كما أن دومينيك فاليريان Dominique Valérian قدّم في كتابه بجاية ميناء مغربي تفصيلاً لأهم الأطاريح بخصوص هذا الموضوع²، بحيث يرى هذا الأخير أن الدراسات التي تعتبر أنّ الهجرة الهلالية كانت بمثابة الكارثة بالنسبة للمغرب وعلى رأسها جورج مارسيه و إميل فليكس غوتيه، لها نظرة إيديولوجية ارتكزت على أسس منها: تفسير تاريخ المغرب بتعارض المستقر والراجل، إعطاء أحكام عنصرية على الجنس العربي (الجنس العربي مخزّب)، والتخريب الحاصل

¹ علاوة عمارة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، سلسلة الكتب الأساسية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، انظر ص ص 07-36.

² دومينيك فاليريان: بجاية ميناء مغربي، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ج1، 2014، أنظر مثلاً الصفحات من: 248-261

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

عمل على تراجع الحضارة بالمغرب¹، ومستند هؤلاء على حدّ قوله كتابات المؤرخين العرب من أمثال: ابن خلدون والإدريسي وغيرهم، وكامتداد للانهيّار الكبير في حضارة المغرب تأكّد معه انتقال الأنشطة الاقتصادية إلى النمط البدوي تبعاً لبدويّة القبائل العربية، فأصبح أهم الأنشطة بحلول العرب، النشاط الرعوي نظراً لطبيعة الترحال وعدم الاستقرار للقبائل النازحة إلى المغرب، وكذا امتلاكها لرؤوس الماشية والإبل بأعداد كبيرة، ممّا جعل صعوبة ممارسة العرب للأنشطة الزراعية.

وكرّد فعل على الأطروحة الاستعمارية نقل فاليريان نقيض الأطروحة الأولى والتي ترأسها جون بونسي John Bounsy والذي نشر أفكاره في مجموعة مقالات نشرت بين سنتي 1954-1967، إذ يرى بأن النصوص التاريخية التي تحدّثت عن إضرار العرب كانت متأخرة عن زمن الحادثة (ويعني بذلك ابن خلدون خصوصاً في القرن 8هـ-14م)، كما يرى أن التخريب كانت له أسباب أخرى مثل تنافس القوى السياسية بين الفاطميين وبنو زيّري وبنو حمّاد، وكذا إعطاء أولويّات لنفقات غير منتجة مثل البذخ الذي كان عليه أمراء بني زيّري، والنفقات العسكرية وغيرها، كما أشار إلى أنّ التخريب إنّما طال الجهات الهشة طبيعياً²، وهناك البعض ومنهم أندري واطسون Andrew Watson يرى أنّ تراجع الزراعة شهده العالم الإسلامي خاصة منذ القرن 5هـ-11م، إذ قرّنه بالهجرات البدويّة المختلفة³، أمّا كلود كاهن Claude Cahen فيرى أن حياة الترحال لم تكن دائماً سلبية على الزراعة، ويشير إلى التكامل بين نمطي الحياة، كما أن امتلاك

1 دومينيك فاليريان، السابق، ص 251.

2 نفسه، ص 253.

3 Andrew Watson: Agricultural Innovation in the Early Islamic World :The Diffusion of crops and Farming Techniques;700-1100, The journal of Economic History, Vol, 34, No 1, The tasks of Economic History(Mar , 1974), p 32-33.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

العرب لرؤوس ماشية بعدد كبير جعل سماء الأرض متوقراً مما يجعل الأرض غنية بعناصر مهمة فتزيد في إخصابها وزيادة قيمتها، كما يجعل زراعة واستصلاح الأرض أمراً في متناول الفلاحين¹، ويؤيد هذا الرأي محمود أحمد أبو صوة فهو يرى إضافة إلى تجانس سكان المنطقة - في حديثه عن جزيرة جربة وما والاها إلى طرابلس - تكامل نشاط سكانها الاقتصادي، وذلك في معرض رده على الأطروحة التي تفرق بين المستقر والراجل فيقول: " بل راحوا يزعمون بأن سكان الساحل، الذين يمارسون الزراعة والتجارة ويتمتعون بزيادة حضاري نتج في المقام الأول عن تواصل المنطقة بالعالم الخارجي، كانوا وعلى الدوام من الغزاة، أما سكان المغرب الداخل، فإن نشاطهم المحكوم بطبيعة مناطق حلفهم وترحالهم التي تقتصر إلى أهم مقومات الحياة، فإن نشاطهم اقتصر بالإضافة إلى رعي الإبل، على نهب المناطق الساحلية وغزوها"²، فهو بهذا يرى تكامل النشاط الاقتصادي بين سكان الساحل والصحراء، ويبدو أن عبد الله العروي حاول بكثير من التحليل والنقاش نقد النظريتين معاً، النظرية التقليدية والنظرية النقدية، فطرح السؤال: هل من المعقول أن ندعي تفسير منحنى التاريخ المغربي العام إن لم نحاول أن نفهم، ولو بكيفية تقريبية التطورات المذكورة ذات المغزى الكوني؟ وإذا تعمّدنا الإهمال ألا تعود اقتراحاتنا مجرد تمويلات؟³، وهنا يدعو العروي إلى ربط الحوادث وعدم الفصل بينها، فليس من المعقول دراسة تاريخ المغرب دون أن يبحث في التأثيرات المختلفة الحاصلة في المشرق أو أوروبا والأندلس وصقلية وغيرها، كما يرى أن الدارسين

1 Claude Cahen: Quelques mots sur les Hilaliens ET le Nomadisme, Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. 11, No. 1 (Mar., 1968), p 131.

2 محمود أحمد أبو صوة: دراسات في تاريخ البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط، منشورات ELGA، مالطا، 2000، ص 102.

3 عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط2، 2000، ج 02، ص 99.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

لتأثيرات البداوة على أنماط الاقتصاد المختلفة، خلطوا بين ظواهر ثلاث، فلم يميزوا في التحليل بين: الظاهرة الاجتماعية المتمثلة في مستوى القبيلة، والظاهرة المعاشية الاقتصادية المتمثلة في الانتاج والإنتاج الرعوي والكسب، والظاهرة العسكرية السياسية المتمثلة في العصبية كما هي عند ابن خلدون، ويشير إلى أنّ الخلط موجود عند غوتيه الذي كان جغرافياً في تكوينه ومتأثراً بآراء ألمانية¹، ليؤكد العروي أن ترجيح أحد النظريتين على الأخرى إنما يكون بامتلاك وثائق أصلية لتلك الفترة، وهو ما قام بدراسته شلومو غويطن Shelomo Dov Goitein عند حصوله على وثائق في جنيزة القاهرة تعود إلى بدايات القرن 11هـ/11م، وهي مجموعة رسائل بعث بها تجّار من القيروان إلى إخوانهم بالقاهرة، ليرجّح في الأخير لصالح النظرية النقدية التي رأت البداوة (بمعناها السياسي والعسكري) كنتيجة أكثر ممّا هي سبب وباعث².

إنّ امتهان الفلاحة عند العرب ارتبط بالمذلة على حدّ قول ابن خلدون³، حيث استند إلى حديث شريف، قال صلى الله عليه وسلّم وقد رأى السكّة وشيئاً من آلة الحرث: " لا يدخل هذا بيت قوم إلّا أدخله الله الذل"⁴، ولعلّ السبب في ذلك ما يتبعها من المغرم المفضي إلى التحكّم، وهو رأي ابن حجر العسقلاني في شرحه هذا الحديث من أن المتعاطي لهذه المهنة يطاله الذلّ جرّاء مطالبة الولاة لحقوق الأرض، كما أورد سبباً آخر وهو أنّ الذي يشتغل بالزراعة فإنّه لا يشتغل

1 العروي، السابق، ج2، ص ص 99-100.

2 نفسه، ج2، ص 103.

3 ابن خلدون: المقدمة، ص ص 411-412.

4 أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، ط1، 2002، ص 558.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

بالفروسية فيؤدّي هذا إلى تغلب العدو¹، وعلى هذا الأساس يرى محمد سعيد القشاط أنّ عرب التوارق - وكان قد زار مناطق التوارق بغدامس ودرج بين سنتي 1959-1962 وإلى وقتنا الحاضر - لا يحسنون احتراف الزراعة بل يحتقرونها، ويعتبرونها من عمل العبيد والطبقات السفلى، وإنّما اشتغالهم الأساسي بتربية الحيوانات من الإبل والأغنام والبقر²، وهو ما أشار إليه إسماعيل العربي عند ذكره لأهل البدو من الصحراء، إذ يحتقر هؤلاء الزراعة وغيرها من الحرف والمهن التي يمارسها أهل المدن، فيقوم هؤلاء باستئجار العبيد ويطلقون عليهم اسم الحرّاثين نسبة إلى مهنة الزراعة³.

ويشير عبد الحميد حاجيات وفي معرض حديثه عن هزيمة أبي حمو موسى الثاني ببجاية (767هـ/1366م)، إلى تطّلع القبائل العربية بالمغرب الأوسط إلى السيطرة على الأراضي الخصبة بالتّل، وترى فرصة الهزيمة سانحة لها للاستيلاء عليها وإنماء ماشيتها وأموالها، وقبائل زغبة على الخصوص رأّت أن وقت التدقّق على السهول الشمالية الخضراء قد حان⁴، يفهم من هذا كلّ محاولة العرب الهلالية توسيع نطاق أراضي الرعي لتكثير الماشية - من الغنم والماعز وكذا الإبل - ، و الابتعاد عن مناطق الشظف والعيش الخشن التي بدأت بعض القبائل تنفر منه.

كما أشار إبراهيم جدلة إلى سماح بنو الرند الذين أسّسوا إمارة عربيّة بقفصة في الفترة (445هـ-554هـ/1053م-1159م) وإقامة الصلح مع القبائل الهلاليّة الأخرى بالرعي في

1 أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1999، المجلد 05، ص05.

2 محمد سعيد القشاط: التوارق عرب الصحراء الكبرى، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، القاهرة، ط2، 1989، ص 75.

3 إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 35.

4 عبد الحميد حاجيات، السابق، ص 117.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

الأراضي خارج عمران المدينة، مقابل دفع إتاوة موسميّة سنويّة¹، وذكر ابن خلدون أنّ بنو يزيد من زغبة الذين أقطعهم الموحدون أرض حمزة، فكان من حلفائهم بنو عامر يظعنون معهم في مجالاتهم ويظاهرونهم في حروبهم، وكان لهم على مظاهرتهم وضيفة من الزرع تسمّى الغرارة وهي ألف غرارة من الزرع².

2-الثروة الحيوانية

2-1-الخيول العربية الأصيلة

نقل المقرئ قول الوزير اليازوري: "أما بعد، فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً"³، ويبدو أن القبائل الهلالية ساهمت في تنمية الثروة الحيوانية وخاصة ما يتعلّق بتربية الخيول العربية الأصيلة، حيث ترى إلهام حسين دحروج أن أفراد القبيلة الهلالية نقلوا السلالات الجديدة من الخيول، ويصطحب ذلك أساليب تربيتها والمحافظة على نسلها، إذ أن الهلاليين فرسان بدويّون لهم من الخبرة في هذا المجال ما يكفي، وحددت نفس الباحثة أماكن انتشار تربية الخيول الأصيلة من قابس إلى برقة ومنها إلى الإسكندرية⁴، وقد اشتهر من بين العرب بنو سليم بتربية الخيول والمحافظة على سلامة نسلها ممّا جعل العرب يُطلقون أسماءً عليها لعلّ أشهر خيولهم الأحزم والأزور، كما أن بني هلال من عامر لهم من الخيل

1 إبراهيم جدلة، السابق، ص 46.

2 ابن خلدون، العبر، مج 06، ص 89.

3 المقرئ: اتعاض الحنفا، ج 02، ص 216.

4 إلهام حسين دحروج: مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية (442-665هـ/ 1051-1247م)، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر، 2000، ص ص 58-59.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

الأعوج¹ وذو العقال²، ويذكر ابن سعيد أن قبائل دباب لهم غرام بحمل الخيل إلى الإسكندرية³، ويشير مصطفى أبو الضيف أحمد أن الفضل يعود للهلاليين في انتشار تربية الخيول فجعل مناطق انتشارها من برقة وحتى تلمسان، هذه الأخيرة التي كانت يُصنع بها السروج وألجُم الخيل وما يتبع ذلك ويُحمل إلى سائر المغرب⁴، واشتهرت من هذه السلالات الخيول العتاق التي تتلقّى تدريباً خاصاً عند العرب، كما أدّى ذلك إلى محاكاة البربر للعرب في هذا الميدان فكانت الخيول الفازانية بتادلا والخيول الحميدية عند قبائل غمارة، وذكر ابن خلدون قبائل ولهاسة من ورفجومة ببونة يركبون الخيل ويأخذون بمذاهب العرب⁵، ونفس الشيء بالنسبة لقبائل هواره⁶، كما أصبح ملوك المغرب والأندلس ومصر يتهادون بها⁷، وذلك بعد أن كانت أكثر الهدايا من الإبل كما قرّره ابن خلدون في المقدمة⁸، ومنها الهدية التي قدّمها أبي الحسن المريني لملك مصر الناصر قلاوون والتي تحدّث عنها ابن خلدون بأن منها: 500 من الخيل العتاق المقربات بسروج الذهب والفضّة وألجمها⁹، ويبدو أن العرب قد اهتمّوا بتقنيّات تربية الخيول وإطعامها، فكانوا يُطعمونها لبن النياق

1 أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي: أسماء خيل العرب وفرسانها، شركة نوابغ الفكر للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ط1، 2008، ص 24، وقد ذكر الأعرابي في مؤلفه هذا أسماء خيل العرب، فمن خيل بني سليم مثلاً الزعفران، العبيد، زرة، أمّا بنو هلال فلهم: الخلية، والصعود والغبوق وغيرها، أنظر صفحات 21 وما بعدها.

2 إلهام حسين دحروج، السابق، ص 129.

3 ابن سعيد المغربي: بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق: خوان قرنيط خينيس، مطبعة كريماديس، تطوان، المغرب، 1958، ص ص 79-80.

4 نفسه، ص 74.

5 ابن خلدون، العبر، مج06، ص 233.

6 نفسه، ص 288.

7 مصطفى أبو الضيف أحمد، السابق، ص 319.

8 ابن خلدون، المقدمة، ص 187.

9 ابن خلدون، العبر، مج 07، ص 552.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

مرتين في الليل والنهار ويتركونها ترعى العشب في فصل الربيع دون أن يركبونها¹، وقد لاحظ الوزان وهو من المتأخرين (ق 10هـ/16م) أنّ العرب وخاصةً أهل الصحراء وليبيا يملكون أعداداً كبيرة من الخيل وهم لا يستعملونها إلاّ للصيد على عكس البربر الذين تقلّ عندهم الخيول²، وربّما يرجع ذلك إلى عدم معرفة البربر بأساليب تربية الخيل والاهتمام بها عكس العرب.

ومن توابع الاهتمام بالخيول وتربيتها لدى الهلاليين، فقد اشتهروا بالفروسيّة والتي تترادف الشجاعة، وما القصيدة التي نظمها أحد رجال الدين المسيحيين سنة 480هـ/1087م، والموسومة بنصر البيزيين إلاّ دليل على شجاعة الهلاليين في القتال، هذه القصيدة التي تصف فروسية أفراد العرب الهلالية وشجاعتهم، أورد طرفاً منها عبد الحميد خالدي في كتابه الوجود الهلالي السليمي في الجزائر، يحسن أن ننقل بعضاً من أبياتها:

بينما كانوا ينظرون إلى وفرة الغنائم
إذ بالقبائل العربية الهلالية تدخل زويلة
ويجري مُشاتهم هنا وهناك بسرعة مذهلة
ويحارب فرسانهم بسرعة تفوق سرعة الريح الشرقيّة
كانوا مهرة محتكين في النظر إلى الوراء أثناء فرّهم
وهم أثناء فرّهم أسرع في قتل أعدائهم
ممتطين خيولا ضامرة يوجّهونها بأجسامهم
احتلّ مائة ألف من هؤلاء البواسل زويلة

1 الحسن الوزان، السابق، ج2، ص 263.

2 الحسن الوزان، ج2، ص 263.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

المدينة التي أخلاها البيزونيون

وتدفق هؤلاء العرب نحو الساحل وملئوا الشاطئ

وأوقعوا هزيمة ببقية البيزنيين الذين كانوا يحرسون المرسى¹

2-2- الإبل مطية الرجل من الصحراء:

يعتبر الجمل مخلوق جديد ودخيل على الصحراء، إذ دخوله إلى مصر كان مع غزو الفرس لها، ومن ثمّ تمّ انتقال الجمل بعد قرون إلى صحراء المغرب، ويرجع إسماعيل العربي أن دخول الجمل من الشرق كان مع الهكسوس الذين غزوا النيل وهزموا جيوش طيبة الفرعونية (الأسرة 14)²، وكما ذكرنا سالفا فإن الملوك كانوا يتهادون الإبل قبل أن يستبدلوا ذلك بالخيول العربية، ويبدو أن العرب الهلالية قد اهتموا بتربية الإبل كاهتمامهم بالخيول، يدلّ على ذلك امتلاكهم لأعداد كبيرة منها، يشير إلى ذلك مارمول - ولو أنّه من المصادر المتأخرة وجّل النصوص نقلها عن الحسن الوزان - إلى امتلاك العرب من المعقل وكرفة والخلط لأعداد كبيرة جدّاً من الإبل والتي يستعملونها في نقل البضائع³، مع أن التجار تتبع أغلبها بأثمان بخسة نتيجة خفة الحمولة في طريق الرجوع⁴، أمّا ما ذكره ابن حوقل من أن البربر يملكون إبلاً كثيرة

1 عبد الحميد خالدي، السابق، ص ص 147-148

2 إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، ص ص 33-34.

3 مارمول كاربخال: إفريقيا، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط،

المغرب، 1984، ج1، ص ص 102-106

4 الوزان: السابق، ج2، ص 260.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

لا تدانيها إبل العرب في الكثرة¹، فيُحمل على ما كان قبل دخول العرب الهلالية، فابن حوقل المتوفي 367هـ/978م، قد لاحظ ذلك في القرن الرابع الهجري.

ومن مظاهر اهتمام العرب بالإبل وتربيتها أنهم يعرفون أدواءها، منها ما ذكره التجاني من أن تأثير نجم سهيل على الإبل، فكان العرب الهلالية عند طلوع هذا النجم تفصل الحوار عن أمه، ولهذا يقولون: إذا طلع سهيل برد الليل وخيف السيل وامتنع القيل، وكان لأم الحوار الويل²، وبالإبل تُقاس ثروة الواحد من العرب فيقال فلان له كذا وكذا من الإبل³، كما ذكر التجاني في موضع العقلة وهي أرض لعرب المحاميد كانت تردّها إبل العرب والتي وصفها بالكثرة⁴.

استخدم العرب الهلالية الإبل في فلح الأرض وهو ما نقله ابن خلدون من أن العرب الموطّنون ببرقة لعهد (وأكثرهم من عرب بني سليم) أغلب عيشهم الفلاحة، يحرثون الأرض بالعوامل والجمال (الإبل) والحمير وحتى بالنساء إذا ضاقت عليهم كسب العوامل⁵.

كما نقل صاحب الاستبصار أن العرب كانت تحفر أحساءً لتخرج المياه فتورد فيه إبلها⁶، وهي من بين تقنيات العرب في استخراج الماء، فقد وصفه صاحب الاستبصار بقوله: "ماء عذباً معيناً".

1 أبو القاسم ابن حوقل النصيبي: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992، ص 95.

2 التجاني، السابق، ص 63.

3 الوزان: السابق، ص 259.

4 التجاني، السابق، ص 205.

5 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص 172.

6 مجهول: الاستبصار، ص 152.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

2-3- الغنم والماعز

كان كسب العرب لقطعان الماشية من الغنم والماعز كثير، بدليل النصوص المتاحة لدينا، بل كانت مواشيهم ترافقهم حتى في غزواتهم، ففي جواز الهلاليين ضمن جيوش الموحيدين برسم الجهاد بالأندلس سنة 566هـ/1171م، حمل العرب معهم مواشيهم التي كانت بأعداد كبيرة¹، كما أنّ التجاني في رحلته وعند وروده بالموضع المسمى تفاضلات لاحظ مدى كثرة النعم التي وردت أحساء ماء في ذلك الموضع، ما جعل التجاني ينبهر من كثرة عدد رؤوس الماشية " ووجدنا العرب قد أوردتها في ذلك اليوم من النعم الدثر ما ضاق به متسع ذلك القفر"²، نجد ابن بطوطة يؤكّد ذلك فعند زيارته للقرم استغرب من كثرة الخيول عندهم "وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر، فيكون للتركي منهم آلاف منها"³، وهذا ما جعل من ريمون فيرون Rimon Viron يرى أنّ النشاط الرعوي القائم على امتلاك الآلاف من رؤوس الماشية يشكّل خطراً على الأراضي الفلاحية، ففي معرض حديثه عن نزوح الهلاليين إلى المغرب قال: "فأخذوا يسوقون القطعان أمامهم ويدمرون المحاصيل الزراعية ويقطعون أشجار الفاكهة ويفرضون حصاراً على المدن"⁴، أمّا العبدري فقد لاحظ بالسوق الكبيرة بمنزل أبي نصر الجلب من الماشية وغيرها معللاً ذلك بكثرة العربان هنالك⁵، إنّ كثرة الأغنام والماعز تؤدّي إلى توقّر مادة اللحم، وهو ما أشار إليه الوزان - أواخر العصر الوسيط- من أنّ العرب عند إقامتهم في فصل الصيف بضواحي القيروان، يؤدّي ذلك إلى نقص

1 عبد الملك بن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1987، ص ص 360-361.

2 التجاني، السابق، ص 207.

3 ابن بطوطة: السابق، ص 334.

4 ريمون فيرون: السابق، ص 66.

5 العبدري: السابق، ص 155.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

في القمح وكذا الماء، ولكنّه يؤدّي إلى كثرة اللحم والتمر المجلوب من نوميديا¹، نفهم من هذا النصّ أولاً: كثرة الماشية والإبل والخيول لدى العرب وما تحتاجه من العلف والماء، كما أنّها توقّر اللحوم من الضأن والماعز والإبل، فهم عند احتياجهم يذبحون الماشية، فيأكلون منها ويبيعون في الأسواق الكثير، كما لاحظ الوزان بسوق جربة الذي يقام مرّة في الأسبوع، أنّ هذا السوق يقصده عدد كبير من الأعراب يسوقون ماشيتهم ومعها كمّيات وافرة من الصوف الذي يستعمله أهل جربة في صناعة القماش وتصديره إلى تونس والإسكندرية²، وهو ما يعني أنّ الهلاليين ساهموا بطريقة غير مباشرة في تحريك عجلة الاقتصاد بإفريقية من خلال توفير المادّة الأولى، وهذا كلّه لامتلاكهم أعداداً كبيرة من الماشية.

يقرّر ابن خلدون ويجعل من امتلاك الشاة والبقر بدل الإبل علامة الاستقرار وضعف العصبية لكثير من القبائل العربية، فقبائل دريد عجزوا عن رحلة الفقر فاتخذوا الشاة والبقر، وصاروا من القبائل الغارمة، تستخدمهم الدولة في كثير من أعمالها كالانضمام إلى الجيوش النظامية أو استخدامهم في الجباية وغيرها³.

ويبدو أنّ امتلاك العرب للغنم والماعز والبقر أدى إلى توفير مادة أوليّة تستخدم في الحياكة والخياطة وصناعة الجلود، فابن مرزوق صوّر لنا حالة الاقتصاد البدوي الذي أضحت عليه مدينة تلمسان⁴، وذلك بمجاورة العرب للمدينة واقترابهم من فحوصها، فتوفرت بذلك مادتي: الصوف والشعر من الغنم والماعز، والجلد من الإبل والبقر، كما أنّ الوزان في أواخر العصر الوسيط يصرّ

1 الحسن الوزان: السابق، ج2، ص90

2 نفسه، ص ص 93-94

3 ابن خلدون: العبر، مج06، ص ص 50-52.

4 ابن مرزوق: المناقب، ص188.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

لنا حالة اندماج العرب في زراعة الأرض وامتلاكهم لعدد كبير من البقر والثيران والغنم، كما أنّ العرب كانوا يحملون منتجات تلك المواشي - ومنها الزبد - إلى أسواق بونة لبيعها، وفي كثير من الأحيان لا يحصلون على مقابل مادي لها نظراً لكثرة المنتجات، هذه المنتجات وخاصة الزبد كانت تصدر عن طريق السواحل لكل من جنوة وتونس وجربة¹، وهو ما يُعدّ اسهاماً هلالياً في التجارة الخارجية مع أوروبا خاصة.

وقد وضع الظاهر بيبرس من سلاطين المماليك ثقته في شيخ من شيوخ بني سليم وهو عطاء الله بن عزاز، هذا الأخير كُلف سنة 672هـ/1273م - بجمع جباية الغنم ويسمونها العداد² وكذا الزروع ببرقة، ويكون لهم ثلث ما يتحصلون عليه من الجباية، كما أنّهم يتلقّون التشريفات من بلاط السلطة المملوكية بمصر.

المبحث الثاني: ملكية الأراضي الزراعية

1- العمل على الأرض

يجعل ابن العوام من فلاحه الأرض أول الأشياء التي يجب معرفتها، ومعناها عنده إصلاحها وغراسه الأشجار فيها وترتيب ما يصلحه التركيب منها، وزراعة المعتاد زراعتها فيها ... وإمداده بما ينفعه ويجوده وعلاج ذلك بما يدفع الآفات عنه، كما يجعل شروطاً أخرى منها معرفة

1 الوزان، السابق، ج2، ص 62.

2 عز الدين محمد بن علي بن شداد: تاريخ الملك الظاهر، دار النشر فرانز شتايز بقيسبادن، سلسلة النشرات الإسلامية 31، بيروت، 1983، ص 71.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

ما يصلح أن يزرع، معرفة أنواع المياه التي تصلح للسقي، كيفية العمل في عمارة الأرض قبل زراعتها¹.

نجد بعض نصوص ابن خلدون إلى ركون العرب الهلالية لممارسة الزراعة " ... وصار العرب يزدرعون الأراضي في بلادهم بالتلول ولا يحتسبون بمغارمها"²، والملاحظ في الظاهرة الهلالية هو حياة العرب لضواحي وبوادي المغرب ممّا يعني حيازتهم للأراضي الفلاحية، نعم لقد كان للدخول الهلالي أثرٌ على المساحات المزروعة، بحكم الطبيعة البدوية لتلك القبائل وامتلاكها للماشية بشكل كبير، ممّا يعني طُغيان النشاط الرعوي على الاستقرار وممارسة الزراعة، ولكن كما أسلفنا سابقاً فقد اجتمعت مجموعة من المسببات جعلت العرب يركنون إلى هذا النوع من النشاطات الاقتصادية - كالزراعة -، علماً أنّه لا يمكن تعميم هذا الحكم على جميع القبائل، فهناك من القبائل من أبقت على مبادئها في تحصيل معاشها من خلال النهب وقطع السابلة وتخويف الناس، وهو ما ذهب إليه عادل النّفّاتي من خلال نقله لنصوص من وصف إفريقيا للوزّان وإفريقيا لمارمول كاريخال، يؤكّد من خلالها حالة التردّي والانهيّار التي أصابت المغرب بمجالاته الثلاث بعد تفتّت ملك الموحدّين، ووراثّة زناتة لحكمهم، كما يبيّن أن الحالة تلك كانت نتيجة تعسّف الأعراب وامتلاكهم للأراضي الزراعية³، ويؤيّد هذا الرأي المبارك الملي حينما يعتبر أنّ القبائل العربية القويّة - أظنّ بعصبيّتها - حافظت على حياة الظعن، أما من ضعف منها فكانوا ينزلون المدن

1 أبو زكريا يحيى بن العوّام الإشبيلي: الفلاحة الأندلسيّة، تحقيق: أنور أبو سليم وآخرون، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، الأردن، ط1، 2012، ج1، ص273.

2 ابن خلدون: العبر، مج06، ص ص 900-901.

3 عادل النّفّاتي: المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغرب -حفريات في أدب الرحلة القرن 16-، إفريقيا الشرق، المغرب، 2015، ص 37 وما بعدها.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

والأمصار أو يُحدثون لأنفسهم قرى فيشتغلون بالفلاحة ويستبدلون بالشاة البقر¹، وتشير بعض النصوص الاعتماد على العرب في زراعة الأرض، فالحسن الوزان ذكر أن بمدينة باجة ونظرا للعدد القليل للناس إذ لا يكفي لزراع الحقول يكون اعتمادهم على العرب لزراعة جزء كبير منها².

2-تقنيات الري وأساليب استخراج المياه

تمثلت المصادر الرئيسة للماء بالمغرب أساسًا من الأمطار والأنهار والأودية والآبار، وقد استخدمت منذ القديم عدة وسائل للحفاظ على المياه التي تمثل الحياة، ولولا وجود الماء ما كانت هناك حياة ولا زراعة ولا غيرها، قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا³ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء : 30] ،

وقد فصل عبد العزيز الفيلاي أنواع السقاية والأساليب المستعملة فيها والمحافظة عليها والمنشآت المائية، كبناء السدود والمواجل وغيرها، أمّا أساليب توزيع المياه فتمثلت في النواعير والدواليب والسواني والخطاطير والسواقي وغيرها³، ففي عصر الموحّدين كثرت النواعير، كما حفظ الماء في آبار أو صهاريج عظيمة⁴، واستفاد الموحّدون من خبرات مهندسين في مجال الريّ من أمثال ابن ملحان الثائر بوادي آش، والذي استعمله الموحّدون في أشغال البحيرة وبنائها وإجراء مائها

1 مبارك الملي: السابق، ص 188.

2 الوزان، السابق، ج 02، ص 66.

3 عبد العزيز الفيلاي: بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2014، ص ص 150-152.

4 عز الدين عمر أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، ص ص 182-18.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

بمراكش¹، كما أن اهتمام أمراء المرينيين بتنظيم الريّ فاق المعتاد خاصة في عهد أبي عنان المريني، فقد أورد القلقشندي أن بفاس وحدها كانت ستمائة رحي تدور بالماء، وعليها ناعورة ترفع الماء إلى بستان السلطان²، وبالرجوع إلى نصوص التجاني في رحلته نجد بعض الإشارات حول تقنيات الريّ واستخراج الماء للعرب الهلالية، فهو يذكر بعد خروجه من جزيرة جربة نزل في موضع يسمّى سواني خلف الله وهو موضعٌ لرجل من مرابطي العرب أحيا أرضاً مواتاً³، واسم الموضع يدلّ على وجود عدد من السواني المرتبطة بالآبار، وقد ذكر الونشريسي في نازلة من نوازل المعيار أن عرب رياح كانوا يتولّون حراسة السواني بمدينة القيروان من فصل الربيع حتى تمام الحصاد أي أواخر فصل الصيف، وذلك مقابل أجر معيّن، كما أنّ هذه الحراسة تكون بتولّي حارس لكلّ سانية أو أكثر⁴، ويبدو أن بعض الهلاليين أشرف على توزيع المياه، فقد أشار إبراهيم جدلة إلى ذلك بمدينة قفصة وعادة ما يكون الناظر في قسمة الماء من بيوتات المدينة وأعيانها مثل محمد بن الدنيدون وهو أحد قرابة أحمد بن العابد من بني سليم الذي تولّى ذلك نهاية القرن 08هـ/14م⁵، كما ذكر صاحب الاستبصار استخراج العرب للماء عن طريق حفر الأحساء فتورد فيها إبلها ومواشيها⁶، ولعلّ الهلاليين وخاصة في القرن 08هـ/14م ارتبطت توطنهم وبناءهم الربط والزوايا بمدى توفر الماء في مكان التوطن، فقد ذكر التجاني موضعاً سمّاه طواحين مجسر أو وادي

1 لسان الدين ابن الخطيب السلماني: تاريخ اسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، لبنان، ط2، 1956، ص 264.

2 أبو العباس أحمد القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب الخديوية، مصر، 1915، ج5، ص 155.

3 التجاني، السابق، ص 132.

4 الونشريسي، السابق، ج8، ص 229.

5 إبراهيم جدلة، السابق، ص 53.

6 مجهول، الاستبصار، ص 152.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

مجسر، وبجانبه أحد العرب الهلالية بنى رباطاً واتخذ الزرع لبهائمهم، ولا يستبعد أن يكون هذا الهلالي قد جلب الماء من ذلك الوادي عن طريق السواقي، أو الطواحين¹، كما كان السقي يتم كذلك بالغراير، فالموضع المسمى بغمراسن به آبار قليلة يُستقى منها بالغراير، إذ أنّ أرض هذا الموضع صلبة فيمكث أحدهم في حفر البئر السنة والسنتين، وهذا الموضع كانت تسكنه العرب المحاميد²، كما ذكر أرض كتانة وبها عين فؤارة عذبة اجتمعت منها بركة ماء متسعة تلاصق سور القصر وتخرج مزانب ومسارب تخرق الغابة فتعمّها بالسقي³، إذ يفيد هذا أن العرب القاطنين بهذا الموضع استخدموا تلك العين في تجميع الماء بالبركة ومنها عن طريق السور تكون ثقب وفجوات يخرج منها الماء بكميات لسقي بساتين وشجر القصر، ونفس التقنية استعملها أهل توزر التي كانت لبني مرداس فقد استعملوا المزانب في السقي، كما أن لعملية قسمة الماء استعملوا أناساً صلحاء أمناء، يقسمونها على الساعات من الليل والنهار بحساب لهم في ذلك معلوم على حد قول التجاني⁴.

3-تقسيم ملكية الأراضي بالمغرب

قسّم محمد بلحسان ملكية الأراضي إلى أربعة أقسام⁵:

1-الأراضي الخاصة

1 التجاني، السابق، ص 133.

2 التجاني: السابق، ص ص 186-187.

3 نفسه، ص 119.

4 نفسه، ص 163.

5 محمد بلحسان: ملكية الأراضي الزراعية وطرائق استثمارها في المغرب الأوسط من خلال كتب النوازل، مجلة كان التاريخية، السنة العاشرة، العدد 35، مارس 2017، ص ص 142-144.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

2-الأراضي الجماعية: وهي التي تعود إلى جماعة من الناس لا يستأثر بها أحد دون الآخر

3-أراضي الدولة والتي بدورها تنقسم إلى

3-1-أراضي الموات/ البور/ المعطلة/ البيضاء

3-2-أراضي المخزن

3-3-أراضي الظهير

3-4-الأراضي الموظفة

3-5-أراضي القانون

4-أراضي الوقف

ولو أنّ الباحث حصر هذا التقسيم بالمغرب الأوسط فإنّه يصلح لأن يكون للمغرب ككل، أمّا محمد فتحة فقد جعل الأراضي على حسب الملكية تنقسم إلى: أراضي الملك، أراضي جماعية، أراضي الأحباس، وأراضي الدولة والإقطاعات¹، وهذا بعد تتّبعه لكثير من المسائل الخاصة بالأرض في النوازل الفقهية، ولو أنّ الدّارس لتاريخ المغرب يجد صعوبة كبيرة في تحديد أصناف الأراضي نظراً للتطوّرات السياسيّة التي مرّت بها المنطقة وتعاقب الدول والعصبيّات على الحكم وعلاقة السلطة بالرعيّة في المجال الجبائي، كما أنّ للدخول الهلالي دورٌ في صعوبة تحديد ذلك، كما يرجع ذلك إلى السؤال المطروح منذ القدم: هل أراضي المغرب أرض صلحية أم عنوية، هل

1 محمد فتحة: النوازل الفقهية والمجتمع: دراسة في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 06-09 هـ / 12-15 م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، جامعة الحسن الثاني، سلسلة الأطروحات والرسائل، 1999، ص ص 337-357.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

فتحت صلحاً أم عنوة؟ ولعل الجزنائي تطرّق إلى الموضوع بإيراده لأقوال الفقهاء، فقد أورد أن عامل المنصور بن أبي عامر حين تغلّب على أرض فاس سأل عن الأرض: أصلح هي أم عنوة؟ فكان من جواب الشيخ أبا جيدة بن أحمد اليزغتتي: إنّما أسلم عليها أهلها، فقال: لقد خلّصكم الرجل¹

وبالرجوع إلى تملك العرب الهلالية للأراضي فإننا نلاحظ أنّ تلك القبائل قبل دخولها المغرب أعطي لها ظهير تملك من قبل الخلفاء الفاطميين بمصر، بل تمّ اقتسام أراضي المغرب قبل دخولها، يورد المقرئ في الاتعاظ أن المستنصر أعطى لمؤنس بن يحيى المرداسي ولاية القيروان وباجة، ولزغبة طرابلس وقابس، وللحسن بن مسرة على قسنطينة²، كما أشار أحمد موسى أنّ أراضي الدولة في الجهة الشرقية قد تقلّصت بتحكّم الهلاليين بالبوادي والضواحي فلم يبق للدول إلا ما ضمّته أسوار المدن، إضافة للإقطاعات والأراضي الممنوحة كهبات وخاصة في عهد الحماديين³ الذين صالحوا العرب على نصف غلة الأرض في عهد المنصور الحمادي، وأشارت فايزة محمد صالح إلى أنّ العرب لم يثبت لهم قرار، فهم دائمو الحركة⁴ والدليل اقتسامهم أرض المغرب مرّات عديدة، كما كان لتدخل الدول دوراً في توطن تلك القبائل، كما أنّ الفتن الداخلية

1 علي الجزنائي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ط02، 1991، ص 07.

2 المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 218.

3 عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط1983، ص 130.

4 فايزة محمد صالح أمين سجليني: غزوة بني هلال وبني سليم للمغرب، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، 1980-1981، ص ص 89 وما بعدها.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

للقبائل تحكّمت في استقرار العرب، كما ترى نفس الباحثة أن جماعات كبيرة من بني سليم قد عادت أدرجها إلى مصر بعد قرون من النزوح الهلالي.

وبالرجوع إلى ملكية الأراضي فالهاليون في بدء دخولهم المغرب قد حازوا المجال بممارستهم للحراية وإرهاب الناس، ممّا أدى بالكثير من الفلاحين وأصحاب المزارع إلى ترك ممتلكاتهم وأراضيهم نجاة بأنفسهم، ثمّ إنّ قيام الدول المتعاقبة على حكم إفريقية والمغرب بإقطاع الأراضي (طوعاً وكرهاً) للهاليين، جعل هؤلاء يتملّكون تلك الأراضي بصفة - شرعية؟ -، ويبدو أن الموخّدين قد أبدعوا نوعاً من الإقطاع سمّاه أحمد موسى إقطاع التسكين، وهو إقطاع أراضي لمن خيف منه الفتنة تسكيناً له واستجلاًباً لطاعته¹، مثل ما فعل عبد المؤمن مع رؤساء الهاليين بالجانب الشرقي للبلاد، كما أنّ الموخّدون ومع بدايات حكمهم عرفوا كيف يتحكّمون في أوضاع المغرب، فبعد الهزيمة المذلّة للعرب بسطيف 548هـ/1153م، أمر عبد المؤمن سنة 555هـ/1160م بتكسير بلاد إفريقية والمغرب " فكسر من برقة في جهة الشرق إلى بلاد نول من السوس الأقصى جهة الغرب بالفراسخ والأميال طولا وعرضا، ثمّ أسقط من التكسير الثلث من الجبال والغياض والأنهار والسباخ والحزون والطرق، وما بقي قسط عليه الخراج، واقتسم كل قبيلة بقسطها من الزروع والورق، فهو أوّل من أخذ ذلك بالمغرب"²، أي أن الموخّدون جعلوا جلاً أراضي

1 عز الدين عمر أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، ص 145.

2 أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ج2، ص 124، ولكن صاحب طلوع سعد السعود جعل تكسير عبد المؤمن لأراضي المغرب سنة 554هـ، أنظر: الأغابن عودة المزاري: طلوع سعد السعود، تحقيق: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990، ج1، ص 146.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

المغرب موظفة تخضع للضريبة، كم أثر دخول الهلاليين على الملكيات الخاصة فقد عاثوا فيها عياث النار في يبيس العرفج على حدّ قول أحمد موسى¹.

ومع انهيار دولة الموحدّين وقيام الدول الثلاث بأرض المغرب أكثر الأمراء والسلطين إقطاعات العرب، بل اعتزّ العرب على الدولة أيّما اعتزاز، وخير مثال على ذلك السلطان أبي إسحاق بن أبي زكريا (678-683هـ/1279-1284م) الذي كتب للعرب البلاد الغربية بالظواهر²، ولعلّ أراضي الظهير³ هذه كثيرا ما تتقلب لتكون أراضي موظفة تخضع للضريبة، فقد تغلب العرب وغالبوا بني حفص على تلك الأراضي الممنوحة بواسطة ظهير التملك، وقاسمهم العرب في جباية تلك الأمصار ريفا وصحراء وتلولا وجريداً على حدّ قول ابن خلدون⁴، كما أن أمير الزيانيين أبو حمو موسى الثاني أكبر إقطاعات عرب المغرب من أولاد حصين والمنبات والعمارة⁵.

ونجد نوعاً آخر من الأراضي بيد الهلاليين بموافقة السلطة الحاكمة، الأراضي الموظفة - وهي التي تخضع للضريبة -، فمثلاً استعمل الحفصيون عرب الأثبج ومنهم كرفة ليكونوا حرباً على رياح، وكمكافأة لهم أقطعتهم الدولة جباية الجانب الشرقي من جبل الأوراس وكثيراً من بلاد الزاب

1 عز الدين عمر أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، ص 149.

2 ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية، ص 139.

3 يعرفها كمال أبو مصطفى بأنها أراضي أقطعها سلاطين الحفصيين لمن أدّى خدمات للدولة، وهي من باب إعطاء منفعة لا إعطاء رقبة، بمعنى أنها لو أقطعت لشخص ثم يتوفى لا يورثه أحد، فهي منفعة لصاحب الإقطاع فحسب دون وراثته. أنظر: كمال أبو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997، ص 62.

4 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص 156.

5 يحيى بن خلدون: السابق، ص ص 420-421.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

الشرقية¹، وقيام المستنصر الحفصي (647-675هـ) بإقطاع البلاد والمغارم للعرب مكافأة على مساندته في صدّ ثورة ابن أبي عمارة².

لقد كان العرب الهلالية كثيراً ما ينتفضون في وجه السلطة الحاكمة نتيجة المساس بامتيازاتهم من جبي المغارم ونزع الإقطاعات التي مُنحت لهم قبل ذلك، ففي حملة أبي الحسن المريني سنة 749هـ/1348م " قبض أيديهم عما كانت تمتد إليه من إفساد السابلة وأخذ الإتاوة، وانتزع الأمصار التي كانت مقتطعة بأيديهم"³ وكذلك فعل ابنه أبي عنان في حملته العسكرية على قسنطينة وبلاد الزاب 758هـ/1357م، إذ كشفت رحلة النميري - الذي كان موالياً للسلطة - عن الطريقة التي تملّك بها الهلاليون تلك الأراضي، فابن الحاج النميري يرى أن تلك الأراضي مغصوبة، كانت بيد البربر، فجعلها العرب منطلقاً لغاراتهم وممارسة أساليب النهب وقطع الطريق وإخافة الناس، مع تحفّظنا لمواقف مؤرّخي السلطان.

ويرى عبد الفتاح بولبيض أن قبائل بنو سليم منذ استقرارهم ببرقة مارسوا الملكية العامة للأراضي، فتقاسموا أراضيهم على حسب عشائهم⁴، كما ذكر ابن خلدون نوعاً من ملكية الأراضي تقوم على قسمة الأرض، فقد ذكر أن قبائل زغبة نزلت بجوار بني بادين من زناتة واقتسموا معهم الأراضي، بحيث أقامت زغبة بالقفار وبنو بادين بالضواحي والتلول، ولعلّ هذا ممّا يُستغرب،

1 ابن خلدون: العبر، مج06، ص 49.

2 نفسه، ص ص 696-697.

3 نفسه، ص 155.

4 عبد الفتاح رجب حمد بولبيض، السابق، ص 126.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

فكانت منازل زغبة بالمغرب الأوسط ما بين مصاب وجبل راشد بعد أن كانوا مستوطنين قابس وطرابلس¹.

المبحث الثالث: الزراعات المحدودة

ومن حيث الخصب وجذب الأرض فتقسم الأرض إلى ثلاث أقسام:

الأول: أراضي خصبة، الثانية: أراضي متوسطة الخصوبة، ثالثاً: أراضي غير صالحة للزراعة²

تبيّن بعض النصوص في نزهة الإدريسي تغلب العرب على بوادي والضواحي المحيطة بالمدن، بل أصبحت كثير من تلك المدن يجلب إليها القمح والشعير من بوادي العرب، منها مثلاً مدينة مرسى الخرز³، وكذلك حال تونس " فالعرب تجاور أرضها وتأتي بأنواع الحبوب إليها، والعسل والسمن ما يكفي أهلها غداً"⁴، ونفس الحكم ينسحب على مدينة بونة، فأكثر فاكهتها من باديتها وكذا القمح والشعير في أوقات الإصابات كثير جداً⁵، علماً أنّ الإدريسي إنّما ألف كتابه في منتصف القرن 10هـ/12م (حوالي 548هـ/1153م)، ما معناه التحكّم الكبير للعرب الهلالية في ضواحي المدن بإفريقية والمغرب الأوسط، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون، حينما صالحت صنهاجة العرب على خطة تقضي بتملّك العرب الضواحي، وهذا بعد عدم قدرة صنهاجة على مدافعة القبائل العربية⁶، ويذهب جورج مارسيه إلى أنّ المساحة المزروعة قد تقلّصت بفعل تخريب الهلاليين

1 ابن خلدون، العبر، مج06، ص ص 46-47.

2 عبد المالك بكاي: الحياة الريفية في المغرب الأوسط من القرن 10-07 هـ / 13-16م، رسالة ترشح لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2013-2014، ص 206.

3 الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 291.

4 الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ص 284-285.

5 نفسه، ص 291.

6 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص 42.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

وسيطرتهم على الضواحي والأرياف، ويعلّل ذلك بامتلاك العرب لقطعان كبيرة من الماشية وتركها تسرح وسط المحاصيل¹، ولعلّ هذا كان في المراحل الأولى للدخول الهلالي، وعلى عكس ذلك يرى محمد حسن بأنّ الزراعة بإفريقية قد انتعشت خاصّة في عصري الموحدّين والحفصيين²، ففي حملة أبي عنان على بلاد الزاب كانت مخازن العرب ممتلئة بأنواع الحبوب والأطعمة، فكان قرار الأمير المريني بعد تدميره للقصور وقلع الأشجار والنخيل وإفساد المزارع أن أمر برفع الحراثة عن المزارع³، وهو يدلّ على انتعاش الزراعة في تلك المجالات التي سكنتها العرب منذ عهد الموحدّين.

وأورد الحسن الوزان أن قبيلة مرداس العربية كانت تحرث بادية بونة على مسافة 40 ميلا طولا و25 ميلا عرضا وتزرعها، ومؤكّد أن زراعة الأرض تكون بالقمح والشعير، إذ يذكر الوزان أن في كلّ سنة تأتي سفن من تونس وجربة ومن سائر السواحل حتى جنوة لشراء القمح⁴، ومن كثرة المحاصيل بتلك الأصقاع كان العرب لا يحصلون على مقابل مادي عند حمل القمح للبيع في بونة، فانظر إلى مساهمة العرب الهلالية في ذلك النشاط الاقتصادي.

ويبدو أن العرب قد اتّخذت المطامير لتخزين طعامها من الحبوب وغيرها، مثلما وصف الإدريسي أهل قسنطينة من أنّ لهم معاملات مع العرب وتشارك في الحرب والادخار، قال: "والحنطة تقيم بها في مطاميرها مائة سنة لا تقسد"⁵، كما أنّ العرب جعلوا من بعض المدن

1 جورج مارسيه، السابق، ص 242.

2 تحت إشراف: حسن حافظي علوي: الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 2011، ص ص 274-275.

3 النميري: السابق، ص 452.

4 الوزان، السابق، ج 02، ص 62.

5 الإدريسي: النزهة، ص 265.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

والأمصار موضعاً للتأخار وتخزين الحبوب والأطعمة كموضع السوقية وهي قصور كثيرة كما وصفها الإدريسي¹، ولعلّ هذا فيه شبه بنظام الفاطميين في التخزين، فقد بنى أبو القاسم محمد بن المهدي مدينة المسيلة (315هـ/927م)، واتخذها موضعاً يدّخر فيها الأقوات وأنواع المأكولات، وكان يرسل أباه في بيع الأطعمة فيحضّنه على إبقائها حتى كانت فتنة صاحب الحمار²، ومجانة أيضاً³، كما أشار الوزان إلى العرب الموجودين بأزغار من بلاد فاس أنّهم يعملون المطامير لتخزين الحبوب، ويقومون بحراسة تلك المطامير بترك بعض الخيام والحرس⁴، وكذلك في قرية تكّيت التي جعلها الأعراب لغرض تخزين الحبوب - من القمح والشعير -⁵، أمّا البلاد بين بلاد البربر ومصر فنظراً لجذب الأرض وعدم قدرة العرب على استصلاحها، فكثيراً ما يقوم العرب باستبدال القمح بالإبل والغنم التي معهم، ولكن هذا كان في كثير من الأحيان لا يكفي، ممّا يؤدّي ببعض العرب إلى جعل أبنائهم رهائن للقمح عند الصقلّيين⁶، وهذا ممّا يستغرب.

1- الزراعة بواحات المغرب

نظراً للتضاريس المتنوّعة ببلاد المغرب فقد تنوّعت معها المحاصيل، فالواحات مثلاً يكثر فيها شجر النّخيل وهي لا تحتاج إلى كثير ماء، ومع ذلك فغلّتها من التّمّر كانت تشكّل ومازالت مصدراً مهماً لسدّ حاجيات الساكنة من العرب وغيرهم، بل وتصدّر إلى المدن والأمصار، وقد أشار صاحب الاستبصار بأن بلاد الجريد - ومسمّاهما لكثرة النخيل بها - كثيرة الخصب والزيتون والتّمّر

1 الإدريسي، السابق، ص 309.

2 أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد، السابق، ص ص 46-47.

3 الإدريسي: النزهة، ص 293.

4 الحسن الوزان، السابق، ج1، ص302.

5 نفسه، ص 200.

6 الوزان: السابق، ج1، ص 65.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

والفواكه وجميع الخيرات¹، فالعرب تجلب التمور إلى أهل القيروان كما أسلفنا الذكر، وبقابس التي رضخت لحكم الهلاليين من بني جامع (489هـ-555هـ/1096م-1160م) كان يُصنع بها عسل أو مربّى التمر، فقد ذكر الإدريسي كيفية صنعه، "يجنون التمور طرية ثم يودعونها في دنانير وبعد مرور مدّة خرجت لها عسلية تعلوها، ولا يمكن تناول هذا الشراب أو العسل إلّا بعد زوال العسل عنها"².

ومما ساعد على أن يكون التمر غذاء أساسي ومصدر استرزاق العرب والبربر على السواء بالمغرب، كثرة الواحات التي بها أشجار النخيل مع كثرة أنواعه، فابن سعيد المغربي (ق07هـ/13م) ذكر مدن واركلان وريغ وبسكرة وكلّها بها واحات النخيل الشيء الكثير وأراضيها تحت تصرف العرب من رياح، وكذلك مدينة أوجلة " ... وعمارة في تلك الصحاري فيها ماء ونخل" وهي تحت خفارة العرب من هيت³، ولعلّ وصف النميري المرافق لحملة أبي عنان(758هـ/1357م) إلى بلاد الزّاب ما يوحي بكثرة غرس أشجار النخيل هنالك، ففي قصر يعقوب بن علي الرّياحي " ببساطه النخل دانية ثمارها"⁴، وكذلك قصر فرفر الذي تمّ تدميره من القوّات المرينية فقطعت حينئذ آلاف الأشجار من النخيل، وأنظر إلى وصف تلك الحالة: "وتراكم البعض على البعض حتى انقطعت الطرق والمسالك وعميت السّبل وخفيت المبارك..."⁵، كما عدّد أنواعه الزهري في الجغرافية إلى عشرة أجناس مختلفة في الطعم والنّعت⁶، أمّا لسان الدين ابن

1 مجهول، الاستبصار، ص 150.

2 الإدريسي: النزّهة، ص 280.

3 ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافية، ص ص 126-128.

4 ابن الحاج النمير، السابق، ص ص 422-423.

5 نفسه، ص 448.

6 أبو بكر الزهري، السابق، ص 107.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

الخطيب فذكر أنّ أنواعه بسجل ماسة ما لا يستطيع أحد احتسابه وعدّه¹، وقد أورد محمد حسن في مقال له بعنوان أصناف الإنتاج الزراعي بإفريقية من القرن 06-09هـ / 12-15م، أسماء لأنواع التمر بإفريقية، فذكر البرني والصيحاني، وأضيفت له أسماء أخرى ابتداء من العصر الموحدي مثل : الخنفس، البهر، اللياري، الكسبّا، أمّا في القرن 08هـ/14م فذكر نوعاً آخر يسمّى الحمرون ولا شك أنّ له علاقة بلونه أي أحمر اللون²، ولو أن اللياري نوع كان يمنع بيعه بأمر عبيد الله المهدي محتكراً ذلك تجارته في الدولة الفاطمية.

ومما يدلّ على كثرة النّخيل ما نقله ابن شاهنشاه في وصفه لبلاد نفزاوة، " ... بلاد كبيرة يكون فيها ما يزيد على أربع عشرة مدينة، ولها نحو من 200 ضيعة، وكلّها نخيل وزروع على العيون"³.

2- البستنة والزراعة في المدن وضواحيها

يبدو أنّ حياة الهلاليين لمجال إفريقية والمغرب الأوسط وانتشار نمط النشاط الرعوي بالمنطقة ممّا يعني إتلاف المحاصيل والأراضي الزراعية وعدم الاهتمام بها، أدّى إلى انحصار الزراعة داخل المدن وعلى مداخلها ما يسمّى بالزراعات المحدودة، كما أدّى هذا الوضع إلى الاهتمام بالبستنة وغرس الأشجار وهو ما أشار إليه عز الدين عمر موسى⁴، وقد خلص هذا

1 لسان الدين ابن الخطيب السلماني: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص 180.

2 تحت إشراف: حسن حافظي علوي: السابق، ص ص 274-278.

3 محمد بن تقي الدين عمر بن شهنشاه الأيوبي: مضمار الحقائق وسرّ الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، 1968، ص 167.

4 عز الدين عمر أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، ص ص 160-161.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

الأخير إلى ازدهار هذا النوع من الزراعات في البلاد الشرقية حتى نهاية القرن 06هـ-12م ، مع ملاحظة أن الجانب الغربي للمغرب بقي محافظاً على الزراعات وفلاحة الأرض في نفس الفترة، ولكن ما إن حلَّ القرن 08هـ-14م حتى وصل الخراب الاقتصادي إلى المغرب الأقصى - الذي كان في منأى عن التجاذبات السياسيّة الحاصلة في البلاد الشرقية نتيجة دخول العرب - فها هو الرشيد الموحدي(ت 640هـ/1242م) يقترض المال من عرب الخلط نتيجة إفلاس خزينة الدولة، كما توقّفت الحراثة في بوادي المغرب الأقصى نتيجة سيطرة العرب¹، وقد توصّل إلى نفس النتيجة محمد قويسم فقد لاحظ تراجع اقتصاد البادية وظهور نمط زراعات البستنة²، ولا بدّ أن لدخول العرب الهلاليّة وقيام الثورات إضافة إلى الغزو النورماني لسواحل إفريقية الدور الأكبر في بروز ظاهرة الزراعات المحدودة سواء داخل المدن أو بالواحات، فقد تعرّضت المساحات الفلاحيّة الكبيرة للتخريب نتيجة فوضى الغزّ والهلاليين والتحالف فيما بعد مع ثوار بني غانية، أشار إلى ذلك ابن خلدون من أنّ بنو غانية لمّا أجلبوا على إفريقية خزّبوا عمرانها، واجتثّوا شجرها وغوّروا مياهها، يشهد لذلك أطلال الديار ورسوم البناء وأعجاز النخل المنقعر على حدّ قوله³، مع أنّ جورج مارسيه لم يستثن إتلاف المحاصيل وغيرها من مظاهر البستنة، فجميعها على حدّ قوله قد تمّ إتلافها من طرف العرب الهلاليّة⁴، ومما يبيّن حالة اللأمن وهجرة الأراضي الزراعية ما جاء في نازلة أجاب عنها أبو عبد الله المازري(ت 536هـ)، حيث جاء في فحوى السؤال ما كان من خوف الفلاحين الذين ينتظرون منتج محاصيلهم وأراضيهم فقطع العرب عليهم كلّ السبل، ممّا أدّى بأصحاب

1 عز الدين عمر أحمد موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط1، 1983، ص 114.

2 محمد قويسم، السابق، ص ص 101-102.

3 ابن خلدون، العبر، مج 07، ص 98.

4 جورج مارسيه، السابق، ص 327.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

الأرض إلى استئجار عمال للحصاد ولجمع الغلة من الزيتون وغيره وحمله إلى المدن، ممّا يقارب تكلفته نصف ثمن المحصول¹.

أشار صاحب الاستبصار إلى اشتهار مدينة قفصة من بلاد الجريد بزراعة الورود والأزهار والرياحين من مثل: الآس، الياسمين، والبنفسج،...، كما أن ماء الورد بها أزكى ماء يكون للورد، وفيه شبه نوع الجوري المجلوب من مصر²، كما أفاد ابن سعيد انتشار صنع دهن البنفسج وخلّ العنصل بقفصة نتيجة كثرة تلك الأنواع من الزهور³، كما أن الاهتمام بالبستنة أدّى إلى انتشار بعض الزراعات كالزيتون بقباس وصفاقس، والتمر في قابس وبلاد الجريد والزاب، وقد أسلفنا قول الزهري في كتابه الجعرافية من أن أكثر غذاء الساكنة بالمغرب الأوسط التمر لأن القمح عندهم قليل، نتيجة منع العرب لهم، كما انتشرت زراعة الحناء والكروياء والكمون بقفصة وقسطيلية، كذلك أدى إلى انتشار أجباح النحل⁴.

إنّ المتتبع لنصوص بعض المصادر التي أرخت لإفريقية والمغرب ومنها الادريسي وصاحب الاستبصار وكذا التجاني في رحلته، تبين جلياً الاتجاه القوي نحو البستنة والزراعات المحدودة داخل المدن وعلى محيط الرباطات والزوايا الخاصة بالهلالين كما بيّنا ذلك سابقاً.

يرى كمال خلفات أن جهود الموحّدين بعد استكمال توحيد المغرب بضمّ البلاد الشرقية واسترجاعها من يد النصارى، وما سبقه من هزيمة العرب في موقعتي سطيف والقرن، وقيام عبد المؤمن بعد ذلك بنقل مجموعات قبلية إلى المغرب الأقصى، ممّا خفف حدة الضغط الهلالي على

1 الونشريسي، السابق، ص ص 274-275.

2 مجهول، الاستبصار، ص 154.

3 ابن سعيد، الجغرافيا، ص 126.

4 عز الدين عمر أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، ص 202.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

الجهة الشرقية لبلاد المغرب، كل ذلك أدى إلى اتساع نطاق الزراعة بالساحل¹، والاتجاه نحو البستنة، ولعل محمد بن ساعو يؤكد ذلك من خلال إعطائه بعض الإحصائيات المقدّمة من تتبعه للمصادر كالإدريسي والبكري وصاحب الاستبصار، ولو أنّ الاعتماد على وصف البكري المتوفي 487هـ فيه نوع من المخاطرة، إذ أنّ وصفه في كثير من الأحيان سابق لدخول الهلاليين لكثير من المدن والأمصار، كما أنّه لم يزر المغرب بل اكتفى بروايات من سبقه وكذا أخذ عن التجار وممن سافر إلى المغرب، فمن خلال هذه الدراسة قدّم الباحث كنتيجة لبحثه في هذه الحيثية أن الزراعات المحدودة - البستنة - قد انتشرت بالمدن وفحوصها، كما تركّزت هذه الظاهرة على مستوى المدن الساحلية والقريبة من الساحل².

ولعل رسالة عبد المؤمن -رسالة رقم 31 - إلى الطلبة والموحدون والأشياخ بتونس والكافة تؤكّد تغيير وضع البلاد الجريدية نحو الأحسن في المجال الزراعي، فهو يصفها بـ: "... إقليم متّسع الأكفاف، رحب الأوساط والأطراف، ... جمّ الحقائق الغلب والجنّات الألفاف، وكلّ مدينة منه مستقلة بذاتها، مكتفية بأقواتها"³، وأنظر إلى وصف ابن سعيد (ق 07هـ/13م) لمدينة بجاية حين قال: "ولها نهر في نهاية الحسن على شاطئيه البساتين والمنتزهات، ويتفرج فيه أصحاب المراكب"⁴

يقودنا هذا الموضوع في البحث عن مسببات هذه الظاهرة - التحول القوي نحو البستنة وخاصة في المدن الساحلية والقريبة منه - ويتمركز هذا في إفريقية والمغرب الأوسط، إذ كان تأثير

1 كمال خلفات: العلاقات الاقتصادية بين المغرب الأوسط والمغربيين الأدنى والأقصى من القرن 04-07هـ/ 10-13 م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه تاريخ الوسيط، كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2020-2021، ص 82.

2 محمد بن ساعو، السابق، ص ص 152-157.

3 ليفي برفنصال، مجموع رسائل موحدية، ص 197.

4 ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ص 141.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

القبائل الهلالية كبيراً جداً عليها، أما الجانب الغربي والمقصود به المغرب الأقصى فلم يتأثر بالانزياح الهلالي إلا بعد نقل مجموعات قبلية منها في عهد عبد المؤمن بن علي وبعد ذلك في عهد المنصور الموحدي، فقد استنتج جورج مارسيه ثلاث نتائج رئيسية للغزو - كما يسميه هو - الهلالي تدرج تحتها مجموعة من النتائج الأخرى، وهي: الانتقال من القلعة إلى بجاية، هروب بني زيري إلى المهدية، و تأسيس مملكة تونس المستقلة¹، وهو ما فسره في نص آخر نفس الباحث من انسحاب النشاط الاقتصادي نحو الشاطئ نتيجة احتلال العرب لجنوب إفريقية وطرابلس وبرقة²، إذاً فمن أسباب انحصار الزراعة داخل المدن نجد حصانة المدن نفسها، أشار دومينييك فاليريان Dominique Valérian أن قبائل بنو سليم ومعهم بعض شيوخ الكعوب طلبوا من سلطان بجاية المساعدة على فتح تونس³، وما يؤكد ذلك ترديد ابن خلدون بأن العرب الهلالية حازوا البوادي والضواحي والأرياف واستعصت عليهم المدن لحصانتها، وهو ما أعاده تكراراً في كتابه العبر، بل في كثير من الأحيان يرجع العرب إلى القفر والقفرة البعيد أيّ التوغّل في الصحراء⁴، ولعلّ تحالف العرب مع بني غانية وقراقوش الغزي⁵ كان نتيجة عدم قدرة العرب على التوغّل داخل المدن واختراق نظام الحماية لها، وهذا لا يحمل على إطلاقه، فقد تمكّن الهلاليون من تأسيس كيانات سياسية رضخت دهرًا لحكم العرب، فمنهم بنو جامع أمراء قابس وبنو الورد اللخميون ببنزرت، وهذا - تأسيس الكيانات الهلالية - يُضاف كسبب لانحصار الزراعة ومعها انحسار سلطة

1 جورج مارسيه، السابق، ص 230.

2 نفسه، ص ص 251-252.

3 دومينييك فاليريان، السابق، ص 207.

4 ابن خلدون، العبر، مج 06، ص 87. وأنظر ابن الحاج النميري: السابق، ص 405.

5 نفسه، ص 145.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

الدول من بني زيري والحمّادين ولو بدرجة أقل نحو الساحل وهو ما أشار إليه راضي دغفوس¹، كما أنّ العرب قد حازوا مجال المناطق الداخلية والصحراوية تبعاً لاملاكهم رؤوس الماشية الكثيرة من الغنم والماعز وكذا الإبل وقد بيّنا ذلك فيما سبق، تاركين بذلك المناطق الساحلية -نظراً لطبيعتهم البدويّة - وكذا عدم معرفتهم بخبايا البحر، ومن الأسباب توطّن البربر في فحوص المدن² ممّا شكّل طوقاً على المدن لم تستطع العرب اختراقه كما نقل البكري، ولو أنّ نصوصه لا يمكن اعتمادها في تفسير الظاهرة الهلالية نظراً لتقدّمه زمنياً عن الحوادث التي حصلت بالمغرب الأوسط خصوصاً.

وانتشرت الزراعات المحدودة لدى المتصوّفة من مرابطي العرب، مع ملاحظة أن أي زاوية أو رباط يبتتبه العرب إلّا وتجد مظهرها من مظاهر ممارسة الزراعة، كوجود الأشجار المثمرة من التفاح والخواخ والرمان، وكذا المحاصيل الزراعية التي تلبي الحاجات المحدودة للعرب، ونصوص التجاني في رحلته وابن الحاج النميري تبينان ذلك كما أسلفنا الذكر.

3-العرب الهلالية وحقيقة تخريب الثروة الغابية

يبدو أن التخريب الذي طال الثروة الغابية لم يكن عادة الهلاليين فقط، بل نجد إشارات قويّة منذ الفتح الإسلامي بتخريب تلك الثروة، فالكاينة وبجّة عدم السّماح للفاتحين من تملك المغرب، قامت بتخريب المدن وقطع الأشجار وهدم الحصون، وصف ابن عذاري إفريقية والمغرب بأنّها " ... كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة وقرى متّصلة، ومداين منتظمة، ... مسيرة

1 راضي دغفوس: دراسات في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط، ص 225.

2 أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، 1968، ص 69.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

ألقي ميل في مثله، فخرّبت الكاهنة ذلك كلّهُ¹، ولعلّ فعل المعزّ بن باديس بالمناطق الزراعية المحيطة بالقيروان وصبرة وإباحتها للناس ما يدلّ على حجم الخراب الذي لحق بإفريقية، يقول ابن عذاري: "وخرّبت العمارة العظيمة في ساعة واحدة"²، أمّا في القرن 12هـ/12م فالإدريسي في نزّهته يصف المغرب الأوسط وبعض مدن إفريقية بعدم التأثر الكبير بخراب الهلاليين رغم أنّه يقرّ بسيطرة العرب على مجالات البلاد الشرقية وأنّ قبائل البربر تكاد تكون تحت خفارة العرب، وهو ما أشار إليه الملي من أنّ الإدريسي تتبّع بدقّة نزوح القبائل الهلالية ولم ينقل عنه أنّه وصفها بالخراب بل بالعكس فقد وصفها بالعمارة³، ولعلّ اختلاط المعطيات الجغرافية بين القرنين 04 و05 هـ - 10-11 م يجعل الباحث في حيرة من أمره، كما أنّنا عندما نقرأ أوصاف الرحالة التي تتكرّر بنفس العبارات الخالية من كلّ دقّة وتخصيص لا نستطيع التمييز بين الزراعة والغراسة وحتى البستنة⁴، كما أنّ القبائل الهلالية في تلك الفترة لم تكن قد حازت مجال المغرب الأوسط ككلّ، ولهذا وجب أخذ نصوص البكري والإدريسي بحذر فيما يخص تأثيرات الظاهرة الهلالية، فالإدريسي يصف قابس بأنّ بها من التمر والزروع والضياح ما ليس بغيرها من البلاد وبها الزيتون وزيتّ وغلّات⁵، ومدينة بجاية بها التين وسائر الفواكه منها ما يكفي لكثير من البلاد⁶، أمّا ميله فكثيرة الأشجار ممكنة الثمار وفواكهها كثيرة ومحاسنها ظاهرة⁷، وغيرها من النصوص كثيرة.

1 ابن عذاري: السابق، ج01، ص 36.

2 نفسه، ص 291.

3 المبارك الملي: السابق، ص185.

4 العروي، السابق، ج02، ص 86.

5 الإدريسي: النزّهة، ص 279.

6 نفسه، ص 260.

7 نفسه، ص 265.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

أمّا في القرن 07هـ / 13م فنصوص صاحب الاستبصار وابن سعيد في الجغرافيا وبسط الأرض تكاد تشابه نصوص الإدريسي في وصف المدن والأمصّار بأنّها كثيرة الشجر والعيون، مع ملاحظة تحدّث الجغرافيين عن خراب بعض المدن بسبب الهلاليين، فمثلاً قصة وصفها صاحب الاستبصار بعد ذكر محاسنها وزراعتها وبساتينها قال: " وهي اليوم خربة لا أنس بها من وقت دخلت العرب بلاد إفريقية وأفسدت بلاد القيروان وغيرها من البلاد "¹، وعن الطريق بين القيروان وقلعة أبي طويل (قلعة بني حمّاد) " ممّا يلي بلاد الصحراء مدن كثيرة خربتّها العرب عند دخولهم إفريقية "²، وذكر من المدن سيبية ومجانة وباغاية وغيرها، عدا ذلك فإن صاحب الاستبصار يصف باقي المدن والأمصّار بالعمارة وكثرة الغابات والأشجار والفواكه³، أمّا ابن سعيد في الجغرافيا ذكر سيطرة العرب من رياح على مجالات مدينة المسيلة⁴ و سرت⁵ وأوجلة التي هي تحت خفارة العرب من هيت⁶، وباقي أغلب المدن لم يشر إلى تخريب العرب لها⁷، وفي نهاية القرن السابع الهجري، لاحظ العبدري سنة 688هـ/1289م في الرحلة المغربية حال البلاد الشرقية من سيطرة العربان، فهو يتحدث عن باجة بأنّ أهلها لا يفارقون السور خوفاً من العربان، وأنّهم يستعدّون لدفن الجنائز كما ليوم الضراب والطّعان على حدّ قوله⁸، كما وصف في طريق عودته من أداء فريضة الحجّ أن غابات الزيتون التي كانت بين القيروان وطريق الساحل معطّلة لفساد البلاد

1 مجهول: الاستبصار، ص 154.

2 نفسه، ص ص 161 - 162

3 أنظر مثلاً: الاستبصار: ص 143، 153، 156، 166، 172، 180، 181.

4 ابن سعيد: الجغرافيا، ص 126.

5 نفسه، ص 127، قال ابن سعيد عن سرت: وقد خربتّها العرب ولم يبق فيها إلّا قصور سكنها أتباعهم.

6 نفسه، ص 128.

7 أنظر مثلاً: كتاب الجغرافيا: ص 125، 126، 128.

8 العبدري: السابق، ص 66.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

وسيطرة العرب عليها، حتى صار الزيت بإفريقية يُجلب من جزيرة جربة¹، هذه ملاحظات العبدري والذي عليه بعض المآخذ في رحلته من حيث إصدار الأحكام القاسية وخصوصاً المغرب الأوسط وإفريقية، وكذا حالته النفسية في التعبير عن حالة المغرب، فهو لم يستطع إظهار تأليف رحلته عندما كان بتلمسان وأظهرها بعد خروجه منها، فهل لهذا علاقة بالكيانات السياسية القائمة آنذاك ؟

يأتي ابن بطوطة في القرن 08هـ/14 م ليضع لنا صورة ناقصة عن الحال التي آل إليه المغرب وإفريقية، فقد ابتدأ رحلته سنة 725هـ/1325م وعمره 22 سنة، نجد في رحلته بعض النصوص السريعة عن حالة اللأمن والخوف وتردي الأوضاع، على عكس ذلك نجد نصوصه تتسم بالطول ووصف كل كبيرة وصغيرة عند بلوغه الإسكندرية وما بعدها، فهو يبيع راحلته ومتاعه ليسهل عليه السير خوف غارة الأعراب وهذا في مدينة بجاية، كما أن القافلة التي يسير فيها تتخلى عن التجار لأجل الخوف في الطريق ببونة²، وفي جوازه مسلاتة ومسرارة وقصور سرت وصرف القدرة - نظراً لتشبعه بالفكر الصوفي - ممّا كان سيحدث لهم من قبل بعض طوائف العرب، قال: " ثمّ توسّطنا الغابة"³، لعلّ هذه الإشارة الوحيدة عن الثروة الغابية بالمغرب عند ابن بطوطة، وكأنّ الخوف منع الرحالة من توصيف دقيق لبلاد المغرب، أمّا التجاني(ت720هـ/1320م) والذي بدأ رحلته سنة 706هـ فقد أورد نصوصاً عن تخريب العرب للثروة الغابية من أشجار الزيتون، ومنها غابة الزيتون التي كانت ملاصقة لسور صفاقس فأفسدتها العرب، حتى لم يبق بخارجه لعهد المؤلف شجرة قائمة على حدّ قوله⁴، ولم تكن أرض حصن

1 العبدري، السابق، ص 152.

2 ابن بطوطة، السابق، ص 35.

3 نفسه، ص 38.

4 التجاني، السابق، ص 68.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

بأحسن حالا من سابقتها، فقد أفسد العرب أكثر أشجار الزيتون والذي كان مدار غلات إفريقية في القديم عليه¹، هذا رغم أن التجاني نقل لنا صورة واضحة عن الزوايا والأربطة التي أقامها العرب وما مارسه هؤلاء العرب من زراعات محدودة وغرسة للأشجار كزاوية أبي سهيل وأولاد سنان وغيرها، وأورد المؤلف ما كان من السفرجل بمنطقة تاجورا الذي لا يوجد في بقاع الأرض مثله²، كما وصف غابة قابس: "وقد أهدقت غابتها من جميع جهاته، وبهذه الغابة من الجواسق والنخل المتناسق ما يستوقف الطرف.. ويحقق ما قيل أنّ قابس جنّة الدنيا وأنها دمشق الصغرى"³، ويبدو أنّ رأي البلوي كسابقيه من أن الخوف قد استولى على مسالك الطرق، فهو يقول عند بلوغه بونة وتعرضه ومن معه للسرقة: "قطعة من العرب كقطع الليل حملت علينا حمل السيل، فكان زوال كل ما ملكناه أسرع من لحسة الكلب أنفه"⁴، ويبدو أن الرحالة ارتاح عندما دخل تونس وما بها من خصب وكثرة الأشجار التي بها الثمار⁵.

ولعلّ المتمعّن في النصوص يجد أنّ تخريب الغطاء النباتي ليس من فعل العرب وحدهم بل نجد بنو غانية الميورقيين الخارجين عن الدولة اجتثوا الأشجار وغوّروا المياه⁶، وكذلك قطعوا النخيل كما فعلوا في بسكرة⁷، كذلك ما كان من إفساد أبي حمّو موسى الثاني للزروع والأشجار سنة 771هـ⁸، كما أنّ فعل أبي الحسن وابنه أبي عنان المرينيين بغابات النخيل والزيتون وإفسادها،

1 التجاني: السابق، ص 65.

2 نفسه، ص 308.

3 التجاني، السابق، ص 86.

4 البلوي: السابق، ج 1، ص ص 164-165.

5 نفسه، ص 166.

6 ابن خلدون: العبر، مج 07، ص 98.

7 نفسه، مج 06، ص 511.

8 يحيى بن خلدون، السابق، ص 422.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

وتخريب مظاهر الاستقرار للعرب بتدمير قصورهم وقتل مواشيهم يوضح ذلك، ونصوص ابن خلدون في العبر وكذا النميري في فيض العباب واضحة بيّنة¹، كما أشار إبراهيم جدلة إلى تعرّض غابة قفصة في القرن 14/هـ وهي الثروة الرئيسة للسكان إلى الاجتثاث ثلاث مرّات في ظرف قياسي (في ظرف ستين سنة أي بمعدل مرّة كل عشرين سنة)².

تجدر الإشارة إلى أنّ الأوضاع في القرنين 08-09هـ / 14-15م اتّسمت بنوع من التردّي والانحطاط في كثير من المجالات، فقد أضى ارتباط عقائد الناس بخرافات الصوفية والتي تميّزت في تلك الفترة بالرقص والسّماع والتدليس على النّاس، فكان من يريد بلوغ أمر ما يستدعي هؤلاء المرابطين ليعمل له شبه حضرة أو اجتماع لتخليصه ممّا هو فيه، وأنّ بدون هؤلاء اعتقد الناس أنّه سيزيد في انتشار الفساد وسفك الدّماء وقطع الطرق، فكانت تُعمل التّمائم والزّقي لحفظ البضائع وغيرها، واستعملها الفلاحون والمزارعون لحفظ زراعاتهم ومحاصيلهم، ولعلّ من أسباب هذا التردّي سيطرة العرب الهلالية على مجالات المغرب وإفريقية مع ما كان من ضعف السلطات القائمة حينئذ، وإسناد مهمّة جمع الضرائب والمكوس للعرب الذين أثقلوا كاهل السكّان بها³، ما أدّى بالتّجار وأصحاب القوافل والمسافرين إلى إصطحاب ولي أو مرابط لحفظ ما يكون في تلك القوافل وإظهار كراماته في منع قطاع الطرق من إذايتهم، كما جعلوا من سلامة القافلة ونجاتها مقياساً

1 أنظر مثلاً: العبر: مج07، ص 619 وكذا مج 06، ص 155، أما نصوص النميري فهي كثيرة بل أن كتابه فيض العباب جلّه عن فعل الأمير أبي عنان المريني وتخريبه لقصور ورياضات العرب وقطعه للنخيل والأشجار، فمثلاً قول النميري: " ما قطعت ألوف النخيل وصودم وصلها مصادمة حبل النخيل وألحقت بها أصناف الشجر مفضوضة بها أفواه الثمر، وتراكم البعض على البعض حتى انقطعت الطرق والمسالك وعميت السبل وخفيت المبارك"، النميري، السابق، ص 448.

2 إبراهيم جدلة، السابق، ص 54.

3 الطاهر بونابي، عصر المتصوفة، ج3، ص ص 389-393.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

لمدى نجاعة ولاية الولي أو المرابط¹، ولقد وصف أبو القاسم سعد الله المجتمع الذي يكون فيه مثل هذه الاعتقادات بأنه مجتمع مريض وأنه مجتمع مهّد بالتعرّض لسيطرة الأجنبي عليه، هذا في معرض حديثه عن كتاب عيسى بن سلامة البسكري الموسوم بـ: " اللوامع والأسرار في منافع القرآن والأخبار" الذي ألفه صاحبه سنة 860هـ/1456م، والذي احتوى على لوامع من نوع خاص أي لوامع النوع الصوفي المختلط بالدروشة والفجاجة والسخف².

نجد بعض الإشارات عند محمد بن القاسم الأنصاري (ق 09هـ/15م) الذي أرّخ لمدينة سبتة وما يليها إلى أنّ مدينة بنيونش، فيها من الفواكه ما تحار فيه العقول، فالتين فيها 28 نوعاً، والعنب إلى 65 بين رهط ونوع، التفاح إلى 15 نوعاً، والخوخ 06 أنواع، إلى غير ذلك من أنواع الفواكه³ وهذا قبل احتلالها من طرف النصاري، كما نجد بعض الإشارات عند القلصادي الأندلسي (ت 891هـ/1486م) في رحلته منتصف القرن التاسع الهجري أنّ جزيرة جربة: " كثيرة الخصب وعمروها بالنخيل والزيتون، والتفاح له رائحة عجيبة"⁴، أما في القرن (10هـ-16م) فنجد نصوص الحسن الوزان تؤكد حالة القلق السائدة في المغرب، فهو يتكلم عن حاضرة مراكش فيصفها بالخالية، ثلثي المدينة غير مسكونة، والمساحات الفارغة بالمدينة غُرست بالنخيل والكروم والأشجار المثمرة لأنّ الأراضي الفلاحية خارج المدينة لا يستطيعون تملكها لكثرة تعسف الأعراب⁵، كما ذكر قصر

1 نيللي سلامة العامري، السابق، ص 66.

2 أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1998، ج 01، ص 105.

3 محمد بن القاسم الأنصاري السبتي: اختصار الأخبار عما كان بشعر سبتة من سني الآثار، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ط 02، 1983، ص ص 52-57.

4 أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي: رحلة القلصادي، تحقيق: محمد أبو الأجناف، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط 3، 1978، ص 123.

5 الحسن الوزان، السابق، ج 01، ص ص 128-129.

أثر القبيلة الهلالية في مجال الزراعة - توجيه الاقتصاد نحو نشاطات الرعي -

تميزدكت بتلمسان والذي كان به أراضي فلاحية، قال الوزان: " أما الآن وقد سقط بأيدي الأعراب، فإنه أصبح شبه إصطبل، لا يدخرون فيه سوى قمحهم وبرادع جمالهم، وقد هرب السكان من جزاء تعسفاتهم"¹، وكذلك كان الحال بالنسبة لتونس فالأغنياء بها قليل بسبب قلة القمح الذي يساوي ثلاث مضاعفات للحمل، كما أنهم لا يستطيعون فلاحه أراضيهم وزراعتها خوفاً من تعسف الأعراب²، وأشار مارمول إلى نفس رأي الوزان من أن وضع المغرب في تلك الفترة سيء جداً.

ولعلّ العروي أجمل هذا كله عندما ناقش أفكار ابن خلدون، حيث يقول: "ولا ننسى أبداً أن وراء ابن خلدون المنظر يوجد ابن خلدون المشاهد، وما شاهد كان حتما يدعو إلى اليأس والتخاذل، رأى وطنه الغرب الإسلامي في طريقه إلى الانحلال، فوصف مراحل ومظاهر ذلك الانحلال بدقة وصدق وأسى، بعبارات بليغة في إيجازها إلى حد أن لا أحد منا يستطيع اليوم أن يقرأ ما كتب وينفلت من الجوّ القاتم السوداوي الذي أحاط به، جوّ الدخول في عالم الخمول والانقباض"³

1 الحسن الوزان، السابق، ج02، ص ص 11-12.

2 نفسه، ص 75.

3 عبد الله العروي: السابق، ج02، ص ص 228-229.

الفصل الخامس

إسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

المبحث الأول: توجّه الاقتصاد المغربي نحو الساحل نتيجة ضغط القبائل الهلالية

1- تخريب القيروان والتوجّه الزيري نحو المهدية

1-1- حقيقة تخريب القيروان وأثره الاقتصادي

1-2- الازدهار الاقتصادي للقلعة وأثر دخول الهلاليين

1-3- الحركة الاقتصادية في العاصمة الجديدة للزييين

2- خراب القلعة ونشأة حاضرة بجاية

3- نشاط حركة الساحل بإفريقية

3-1- استقلال مدينة تونس

3-2- بنو جامع الهلاليون بقابس: مساهمة في الصناعة الحربية والبناء والتشييد

المبحث الثاني: إسهامات العرب الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

1- نظام الخفارة: آية الشرف الحرابي

2- عرب المعقل ودورهم التجاري

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

3-توجيه النشاط الحرفي نحو الاقتصاد البدوي

3-1- الحرف المعتمدة على النشاط الرعوي

3-2-بيوت العرب

المبحث الأول: توجّه الاقتصاد المغربي نحو الساحل نتيجة ضغط القبائل

الهلالية

يبدو أنّ الضغط الهلالي في المناطق الداخلية والصحراوية وحياسة المجال أدّى إلى انسحاب الأمراء الصنهاجيين نحو الساحل والتحصّن بمدن كالمهديّة لبني زيري 449هـ/1057م نتيجة تخريب القيروان، وكذلك بجاية فيما بعد 461هـ/1069م بالنسبة لبني حمّاد نتيجة تخريب القلعة وازدياد نشاط الهلاليين، هذا الوضع كرّس لنوع جديد من الأنشطة الاقتصادية وتمركزه بالساحل، وبالتالي تنشيط حركة التجارة البحريّة، ولكن ما فتئت أن تعرّضت المهديّة للغزو النورماني وازداد مع هذا الوضع نشاط حركة القرصنة الأوروبيّة في سواحل البحر المتوسط.

إنّ تخريب القيروان جعل العديد من التجار والصنّاع والعلماء يرتحلون إلى قلعة أبي طويل أو بني حمّاد، ممّا أدّى إلى تنشيط الحركة العلمية والدينية والاقتصادية بها، لكن هذا قبل وصول جحافل الهلاليين إلى المغرب الأوسط، إذ ما إن بدأ العرب بالانسياس والانتشار بالمغرب الأوسط حتّى أصبحت القلعة كغيرها من المدن مهدّدة بالخراب، ونتيجة الضغط الهلالي كما أسلفنا تمّ الانتقال إلى العاصمة الجديدة لبني حمّاد في عهد الناصر بن علناس على ساحل البحر للتحصّن والابتعاد عن مجالات العرب، ممّا أدّى إلى انتعاش الحركة التجارية وأضحت بجاية عروس البحر وقاعدة مهمّة للتواصل الاقتصادي بين دول البحر المتوسط.

يلاحظ بروز مدن ساحلية تجارية نتيجة للوضع القائم ابتداء من منتصف القرن

11هـ/11م، وهذا عكس ما حدث أثناء فتوحات العرب الأولى، إذ كان اهتمامهم بالمدن الداخليّة

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

عكس التي كانت على الساحل، وذلك لعدة أسباب منها: استمرار العرب الفاتحين في تطبيق السياسة البيزنطية المرتكزة على المدن الداخلية، وكذا خوف العرب من البحر الرومي¹.

1-تخريب القيروان والتوجّه الزيري نحو المهديّة

1-1-حقيقة تخريب القيروان وأثره الاقتصادي

إنّ مسألة تخريب مدينة القيروان مسألة شغلت الكثير من المؤرّخين القدامى والمحدثين على حد سواء، وارتبطت بدخول الهلاليين أرض إفريقية والمغرب 443هـ/1051م، ولكن مع قليل من البحث في المصادر التاريخية يتبيّن أن المسألة سابقة لدخول الهلاليين، وإنّما أكمل العرب الخراب الذي مسّ المدينة قبل ذلك، فاليقوبي (المتوفّي 284هـ/897م) نقل لنا حقيقة أنّه لم يكن للمدينة سورٌ يحميها سواء من الغارات أو من الأمطار بعد تهديم الأغالبة لسورها بسبب فتنة ابن المفرج والطنبذي وابن مجالد²، ولكن أعاد المعز بن باديس بناء السور سنة 444هـ/1052م³، أمّا الفاطميّون ففي فتنة عبد الله الكاتب وابنه يوسف وقتل المنصور الفاطمي لهما سنة 377هـ/987م "دار العسكر على الناس وانتهبوهم وسلبوهم وقطعوا الطريق وأخذوا كل ما وجدوا من المسافرين وغيرهم، ومالوا إلى وادي القصّارين وإلى باب تونس أحد أبواب القيروان فنهبوا كلّ ما كان عند القصّارين، فذهبت في ذلك اليوم أموال المسلمين⁴، كما أن المعزّ بن باديس لمّا علم بدخول العرب واقتربهم من القيروان، أمر كافة الناس بانتهاب الزروع المحيطة بالمدينة والمنصورية،

1 نصر الدين بسدات: العلاقات السياسية والاقتصادية بين المغربين الأوسط والأدنى من نهاية القرن الثاني إلى أواسط القرن 06 هـ، النشر الجامعي الجديد، الجزائر، 2017، ص 131.

2 اليقوبي، السابق، ص 186.

3 البكري، السابق، ص 25.

4 ابن عذاري، السابق، ج 01، ص 243.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

وأمر بانتقال عامة أهل صبرة وسوقتها إلى القيروان وإخلاء الحوانيت بصبرة، وانتقال العسكر وصنهاجة إلى صبرة، قال ابن عذاري: "فارتجّ البلد لذلك وعظم الخطب واشتدّ الكرب، ... وخربت العمارة العظيمة في ساعة واحدة"¹، وهو ما جعل البشير بوقاعدة يجعل من عمل المعز هذا سبباً في الركود الاقتصادي الذي أصاب الأسواق وحركة التجارة بالقيروان²، ولعلّ التهويل الكبير في نصوص ابن عذاري وغيره في تخريب المدينة كانت نتاج نقول بعض من عاشوا الحدث والذين كانوا منعمين في ظلّ بلاط أمراء صنهاجة، كابن شرف (390-460هـ) وابن رشيق (390-486هـ) القيروانيين، واللذان خلّدا ذلك في كثير من أشعارهما التي تدلّ على عظم الخطب الذي طال القيروان "... فلم أمرّ بقرية إلّا وقد سحقّت وأكلت، أهلها عراة أمام حيطانها من رجل وامرأة وطفل يبكي جميعهم جوعاً وبرداً، وانقطع المير عن القيروان وتعطّلت الأسواق"³، كما صوّرا في شعرهما الحالة الاقتصادية التي آلت إليها مدينة القيروان من نهب للأموال وتخريب العمران وغيرها⁴، فقد كان أثر دخول العرب الهلالية وخيما على المدينة في جميع الجوانب، السياسيّة والاقتصادية، خاصة بعد أن أباح المعزّ للعرب استباحة المدينة والسماح لهم بالتجارة في أسواقها بالبيع والشراء، ممّا أدّى بفقهاء القيروان إلى الامتناع وعدم تقبّل الوافد الجديد والتحذير من معاملة هؤلاء العرب، لأنّ الفقهاء رأوا بأن كلّ ما يبيعه العرب مصدره غير معروف أو غير شرعي، لnehبه وسرقته أو

1 ابن عذاري السابق، ج01، ص 291.

2البشير بوقاعدة: الصراع العسكري وخراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى بين 296-547هـ / 909-1152م، ميم للنشر، الجزائر، 2015، ص 161.

3 ابن عذاري، السابق، ج01، ص 291، ينقل ابن عذاري الكثير من أقوال ابن شرف في مأساة القيروان.

4 سعد بوفلاحة: بكاء القيروان في الشعر المغربي بعد اجتياحها من قبل الهلاليين، مجلة حوليات، العدد27، الجزء الأول، 2015، جامعة الجزائر، ص ص 287-288

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

اغتصابه¹، ولعلّ الآثار السلبية لدخول الهلاليين طالت حتى رؤوس المال من الماشية، فقد انتهى ما ذُبِح من البقر خاصّة في اليوم الواحد 750 رأساً²، ولو أنّ هذا العدد فيه مبالغة نوعاً ما، إلّا أن هذا العمل استنزف الثروة الحيوانية للقيروان، وهذا ما حمل الحسين شواط إلى القول بأن دخول الهلاليين القيروان أدّى إلى انتهاء الحضارة بتلك المدينة بعد أن كانت عاصمة دينية وعلمية وسياسية لإفريقية والمغرب، ولم تعد حضارتها إلّا بعد قرن من الزمان 555هـ/1160م مع المؤخّدين ولكن ليس بالإشعاع الحضاري الذي كان قبل دخول الهلاليين³.

ولعلّ من أهمّ النتائج الاقتصادية لخراب القيروان سنة 449هـ/1057م - ومن باب مصائب قوم عند قوم فوائد - بروز القلعة كمركز اقتصادي هام قام باحتواء الفارين من القيروان من حرفيين وأصحاب الصنائع ورؤوس الأموال والعلماء والعامة، فقد ذكر البكري بأنّ القلعة: "تمصّرت عند خراب القيروان، انتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وهي اليوم مقصد التجار وبها تحلّ الرجال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب"⁴، وكذلك انسحاب النشاط الاقتصادي نحو الساحل باتّخاذ المهدية عاصمة بني زيري الجديدة، فأصبح الطريق البحري هو السبيل الوحيد للتبادل التجاري ومرور قوافل الحج⁵.

1 الهادي روجي إدريس، السابق، ص 262.

2 ابن عذاري، السابق، ج 01، ص 294.

3 الحسين بن محمد شواط: مدرسة الحديث بالقيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ط 1، 1411هـ، ص ص 85-86.

4 البكري، السابق، ص 49.

5 جورج مارسية، السابق، ص ص 251-252.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

1-2-الازدهار الاقتصادي للقلعة وأثر دخول الهلاليين

يبدو أن تخريب القيروان انعكس بالإيجاب على القلعة التي ما فتئت تكون قبلة لأصحاب المهن والحرف والعلماء¹، ويجدر بالذكر أنّ صنهاجة كانت صالحت العرب على تملك الضواحي والبوادي مقابل الابتعاد عن الأمصار، وكنتيجة للصراع الداخلي بين القبائل العربية أنفسهم، فقد انزاح عرب زغبة من إفريقية نتيجة ضغط رياح عليها سنة 466هـ/1074م²، فاستوطنت زغبة ببلاد المغرب الأوسط مقدّمين خدمتهم لبني حمّاد، ولكن هذا انعكس سلباً على الحياة الاقتصادية للقلعة بما أنّ العرب استولوا على الضواحي فقد قطعوا طرق القوافل التجارية وزادوا الخناق على القلعة وما حولها³، في تلك الفترة أو قبلها بسنوات قدّم وزير تميم وسفيره للصالح مع ابن علناس الحمّادي محمد ابن البعبع اقتراحاً ببناء عاصمة الحمّاديين الجديدة في موقع حصين لا يستطيع العدو الوصول إليه، فبدأ الناصر بعد خروجه لهذا الموقع ومعاينته له ببناء عاصمة دولته بجاية سنة 460هـ/1068م وانتقل إليها فيما بعد⁴.

يبدو أنّ إعمار القلعة بدأ مع بنائها وتشبيدها على يد حماد بن بلكين على رأس المائة الرابعة، إذ نقل إليها ساكنة المسيلة وحمزة، كما توافد عليها من أقطار الأندلس والمدن الزيرية الأخرى العدد الكبير، فأضحت القلعة قبلة العلم والعلماء، وتمصّرت القلعة واتّسعت حتى قال عنها

1 Idris Hady Roger. L'invasion hilalienne et ses conséquences .in ; Cahiers de civilisation médiévale ,11e année (n 43), juillet-septembre 1968.p363.

2 ابن عذاري: السابق، ج01، ص 200

3 فوزية كرزاز: صور من الواقع الاجتماعي للقبائل الهلالية بالقلعة وأحوازها، مقال ضمن أعمال الملتقى الدولي حول: مدينة قلعة بني حمّاد ألف سنة من التأسيس 398-1427هـ / 1007-2007م، أيام 09-10-11 أفريل 2007، جامعة المسيلة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، ص 340.

4 عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ط02، 1965، ج01، ص 371.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

الإدريسي: " أكبر البلاد قُطراً وأكثرها خلقاً وأغزرها خيراً وأوسعها أموالاً وأحسنها قصوراً ومساكن، وأعمّها فواكه وخصباً، وحنطتها رخيصة ولحومها طيّبة سميحة وفلاحتها إذا كثرت أغنت وإذا قلّت كفت، فأهلها أبد الدهر شباع"¹، وهذا يدلّ على حركية اقتصادية كبيرة عرفتها القلعة قبل أن يصل إليها العرب الهلالية وخاصة بعد موقعة سببية سنة 457هـ/1065م، إذ حاولت المجموعات القبلية تخريب المدينة لكن لحصانتها لم تستطع ذلك، فاكثفت بإتلاف المحاصيل الزراعية وبعض الأرياف وقطع الطرق عن التجار والقوافل²، ولو أنّ ابن خلدون ينقل لنا الصورة القاتمة لتخريب العرب لجنابات القلعة، فقد خرّبوا طبنة والمسيلة، "وعطفوا على المنازل والقرى والضياح والمدن فتركوها قاعاً صفصفاً أفقر من بلاد الجنّ وأوحش من جوف العير وغوّروا المياه واحتطبوا الشجر"³، فانظر إلى تأثير ذلك على الحالة الاقتصادية للقلعة، فإنّ تضيق العرب على محيط القلعة جعل هذه الأخيرة في خناق وتضييق المنافذ عليها، كما أنّ سيطرة العرب على الطرق التجارية الداخلية أثّر في القلعة كمركز تجاري كان ملتقى القوافل التجارية، ولهذا نجد الاهتمام سينصبّ على تغيير العاصمة نحو الساحل ببجاية، كما أنّ احتلال النورمان لبعض المدن الساحلية زاد من ثقل مسؤولية بجاية التجارية⁴، على العكس من ذلك يرى عبد الحليم عويس بأنّ تضرّر القلعة لم يكن بدرجة

1 الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 255.

2 النبشير بوقاعدة، السابق، ص 197.

3 ابن خلدون، العبر، مج 06، ص 43.

4 ربحاب محمد كمال محمد أحمد المغربي، التجارة في عصر بني حماد 408-547هـ/1017-1152م، كلية

الآداب، قسم التاريخ، جامعة دميّاط، 2015، ص 08.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

تضرّر مدن بني زيري، بل إنّ المكانة التي اعتلاها بنو زيري أضحت بعد ذلك للحمّاديين، وازداد ذلك بالمكانة الاقتصادية لجباية لتتصدر حركة التجارة في الموانئ والمرافئ وغيرها¹.

نستخلص من خلال ما سبق أنّ القلعة تصدّرت مكانة عظيمة في دولة بني حماد قبل الاجتياح الهلالي لها، فنتيجة لذلك تراجع الدور التجاري للقلعة وأحوازها رغم أن التخريب لم يكن بنفس حدّة التخريب الذي طال القيروان ومدن إفريقية، ومع ازدياد الضغط الهلالي والخنق الاقتصادي الذي فرضته القبائل العربية على المدينة بحكم استقلال الهلاليين بالضواحي والأمصار المحيطة بالقلعة، كانت كحتمية اقتصادية وسياسية تغيير العاصمة نحو الساحل كما حصل مع بني زيري في الانتقال إلى المهدية، لتكون أحد النتائج الاقتصادية المهمّة لدخول الهلاليين أرض المغرب الأوسط، ويدخل من خلاله المغرب الأوسط مرحلة جديدة، مرحلة اتّسمت بالحركة الاقتصادية والنشاط التجاري الكبير للعاصمة الجديدة، والتي تمّ اختيارها " فراراً من ضيم هذا الجبل وفسادهم بالضواحي إلى منعة الجبال وتوعّر مسالكها على رواحهم"².

1-3- الحركة الاقتصادية في العاصمة الجديدة لبني زيري

لمّا خربت القيروان سنة 449هـ/1057م وسيطرت العرب على أرجائها، انتقل المعزّ في خفارة العرب إلى العاصمة الجديدة المهدية³ نظراً لحصانتها واستقبالها للبحر وعدم تمكّن العرب من اقتحامها، وبتغيير العاصمة وجب على أمراء بني زيري تغيير استراتيجيّتهم الاقتصادية، فيذكر صاحب الاستبصار أنّ للمهدية ربح كبير وهو زويلة وبه أسواق كثيرة، وفيها -أي المهدية-

1 عبد الحليم عويس: السابق، ص 221.

2 ابن خلدون: العبر، مج 06، ص 43.

3 نفسه: ص 334.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

أسواق مبنية من الصخر الجليل¹، وكان قبل ذلك أن اتخذ المهدي عبيد الله المهدية عاصمة له، واحتكر فيها أنواعا من التجارات، كما أرغم القوافل المختلفة ومنها قوافل الحجيج بالعبور بها، هذا حتى يعمّرها، فجعلها مدينة ذات حركية ونشاط اقتصادي كبير، وقد وصفها الإدريسي بأنها مدينة محطّ السفن من المشرق والمغرب والأندلس والروم وغيرها، وإليها تجلب البضائع الكثيرة بقناطير الأموال²، فقد وصفها إذن بالعمارة وكذلك وصف أهلها بأنهم ذوو تجارات ومعرفة كبيرة بالمعاملات، أما في ضواحيها فإنّ العرب قد أفسدت أشجاره وبساتينه ولم يبق لعهد المؤلف منه شيء يذكر³.

ويبدو أن مكانة المهدية الاقتصادية تناقصت كما أقرّ الإدريسي نظرا للقلقل الحاصلة داخليا وخارجيا، فتعرّض المدينة للغزو الجنوبي سنة 480هـ/1087م⁴ ومصالحة تميم لهم بإعطائهم 100 ألف دينار تدفع لهم، وما حصل من عيث الروم في أراضيها، زيادة للغزو النورماني سنة 543هـ/1148م والذي رأى فيه فرديناند شالوندون Ferdinand Chalandon جزء من مشروع كبير لروجر 2 لتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة نورمانية⁵، كلّ هذا جعل المدينة لا تستقرّ على حال، وبطبيعة الحال سيؤثر ذلك على اقتصادها.

1 مجهول: الاستبصار، ص 117.

2 الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 281.

3 نفسه: ص 283.

4 التجاني، السابق، ص ص 331-332.

5 Chalandon Ferdinand. Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile, vol2, newyork.S.D.P125.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

إنّ الانتقال الغير مدروس من المعزّ الزيري وحاشيته وهروبه من القيروان، جعل من المهدية تبدو أقلّ شأنًا ممّا كانت عليه القيروان، يضاف إلى ذلك عدم بُعدها على أيدي العرب، على عكس ما كان عليه الناصر بن علناس من تهيئته لكان عاصمته الجديدة ببجاية ومحاولته النأي بعاصمته لتكون محصّنة من بغي العرب¹، ومن ثمّ الانتقال إليها وتعميرها وتبخر العمران فيها، مع بقاء القلعة لتلعب دور العاصمة الثانية للحمّاديين.

ويقارن ابن خلدون بين بجاية الحمّادية والمهدية الزيريّة، إذ يرى أنّ استفحال ملك بني حمّاد فاق ما كان عليه بنو عمومتهم من بني زيري²، وأشار مارسيه Georges Marçais إلى ذلك في قضية بناء السفن والمراكب، إذ توقّر الخشب ببجاية جعلها تترجّع على عرش الصناعة الملاحيّة بالمغرب، عكس ذلك المهدية فإنّها وإن كانت لم تفقد مكانتها بالكلية فإنّ النقص الحادّ في مادة الخشب جعلها تتراجع، كما أن غابات الزيتون المنتشرة بكثرة بإفريقية لا يصلح خشبها لتصنيع السفن والمراكب³.

ومن أهم أسباب فقدان مدن الساحل المغربي لبريقها ومنها المهدية، تعرّضها لهجمات الجنوبيين والبيزيين والنورمان، فمهاجمة أسطول جنوة وبيزا للمهدية سنة 480هـ/1087م وما غنمه أولئك من هذه الحملة، ومصالحة تميم لهم ودفعه لإتاوة سنوية بمبلغ كبير، كانت له نتائجها الاقتصادية الوخيمة على ساحل المغرب، إذ بعد أن كانت أساطيل جنوة وبيزا تحترقان القرصنة ابتداء من القرن 05هـ-11م نتيجة الضعف البحري لكل من بني زيري ومسلمي صقلية، وتدهور

1 دومينيك فاليريان: السابق، ص 57

2 ابن خلدون، العبر، مج06، ص 357.

3 جورج مارسيه، السابق، ص 250.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

أحوال الأندلس بعد الحاجب المنصور والتقاتل من أجل السلطة، نرى فعل تميم بن المعز بدفعه لتلك الإتاوة وتصريحه بعدم التعرض للملاحة الإيطالية في حوض المتوسط، إقراراً ضمنياً من سلطة بني زيري لمن كان يحترف القرصنة بممارسة التجارة وبحرية تامة في المتوسط¹.

ولعلّ سيطرة الغرب المسيحي على ملاحية البحر المتوسط ساعده سيطرة القبائل الهلالية على داخل المغرب، ممّا أدى بالسلط المغربية التوجّه نحو البحر مع ما كان من ضعف في أساطيلها، وهو ما جعل الطاهر بونابي يقرّر بأن سيطرة العرب على الطرق البرية أدّى إلى تفعيل حركة النشاط البحري لصالح القوة العسكرية المسيحية².

2- خراب القلعة ونشأة حاضرة بجاية

تُظهر لنا رواية صاحب الاستبصار السبب في بناء بني حمّاد لبجاية، إذ جعل السبب في ذلك الهزيمة ضد العرب بسببية سنة 457هـ/1065م، رغم أن أخ الناصر على حسب الرواية كان قد حذّره من العرب ونصحه بمصانعتهم وأن يبذل لهم شيئاً من المال فلا يلقاهم ويكفي شرّهم³، ولكن بعد الهزيمة وسيطرة العرب على مجال المغرب الأوسط لم يكن بدّ من الانتقال إلى بجاية التي حاول الناصر أن تكون غير مجاورة مباشرة للعرب، ولعلّ ابن خلدون يؤيّد هذا الرأي من أن الناصر إنّما نقل عاصمته إلى بجاية نتيجة الضغط الهلالي: "ولم يزل هذا دأبهم حتى لقد هجر الناصر بن علناس سُكنى القلعة واختط بالساحل مدينة بجاية، ونقل إليها ذخيرته وأعدّها لنزله"⁴.

1 أرشيبالد لويس، السابق، ص ص 371-372.

2 الطاهر بونابي، مظاهر المجال، ص 126.

3 مجهول، الاستبصار، ص ص 128-129.

4 ابن خلدون، العبر، مج06، ص 43. ويؤيّد هذا الرأي عبد الحليم عويس، أنظر عويس، السابق، ص 90.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

ولكن نجد رشيد بورويبة واستناداً على رواية ابن الأثير يجعل من مفاوضات الصلح بين الناصر وتميم بعد هزيمة سببية 457هـ/1065م سبباً في بناء بجاية، فابن البُيع سفير الصلح بين الأميرين يقترح على الناصر موقعاً مهماً وحصيناً ليحمله مقرّ العاصمة بجاية¹، وبالفعل يوافق الناصر على ذلك ويبتدر في بنائها².

وبهذا تتكوّن لدينا روايتين في سبب بناء بجاية، الأول الخوف من القبائل العربية وازدياد نشاطها التخريبي، والثاني محاولة توحيد الكلمة بين فرعي صنهاجة، والرجوع إلى سابق العهد، ولكن كما يُقال - كلّ الطرق تؤدّي إلى روما- فإنّ محاولة توحيد كلمة بني زيري وبني حمّاد إنّما منشأه ومنطلقه هو محاولة مواجهة الخطر الهلالي الذي أضحى بعد موقعة سببية أكثر قوة وحيّازة للمجال، فكلا الروايتين تجعل من خطر القبائل الهلالية حافزاً للناصر في البحث عن موقع لعاصمة حمّادية أكثر تحصّناً وبعداً عن العرب.

*المكانة الاقتصادية لبجاية

وصف الإدريسي بجاية بوصف ينمّ على الحركية الاقتصادية والتجارية التي عرفتھا هذه المدينة، ويحسن بنا أن نورد نص الإدريسي كاملاً، إذ يقول: "ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط وعين بني حمّاد، والسفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير تجار وبها من الصناعات والصنّاع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، ... ولها بواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان كثيران والتين وسائر الفواكه... وبها دار صناعة لإنشاء

1 رشيد بورويبة، السابق، ص 66.

2 النويري، السابق، ص 124-126. وأنظر ابن الأثير، السابق، ج 08، ص 372-373

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

الأساطيل والمراكب والسفن والحرايبي...¹، لقد لَحَص الإدريسي في القرن 12هـ-12م الدور الاقتصادي الذي كانت عليه مدينة بجاية، فقد كانت ملتقى الطرق التجارية ومنفذاً لمرور البضائع نحو الجنوب في الصحراء، كما كانت لها علاقات تجارية مع المشرق والمغرب الأقصى، رغم أنّ رشيد بورويبة يتحدث عن تضرّر الطريق البرّي الرابط بين بجاية ومصر بعد زحف الهلاليين، فقد أشار إلى أنّ التجارة مع مصر تتمّ عبر البحر إلى الإسكندرية²، وشبكة الطرق التجارية الرابطة بجاية مع المدن الساحلية والداخلية وباتّجاه الصحراء كثيرة، بسط فيها القول دومينيك فاليريان Dominique Valérian³، لكن هذه الطرق تضرّرت بفعل ممارسة العرب الهلالية لقطع السابلة ونشر حالة اللأمن، مع أنّ دومينيك يرى أنّ هؤلاء العرب لم يشكّلوا كبحاً للقوافل التجارية والتجارة، ما في الأمر أنّ سيطرتهم على مسالك التجارة جعل تكاليف النقل تزداد أكثر ممّا تفرضه السلطة⁴، كما وصف مارمول بجاية بأن عدد دورها في عهد ازدهارها قُدّرت بـ20 ألفاً من الدّور العامرة⁵.

ولعلّ التوجّه نحو الساحل كان في حدّ ذاته ظاهرة، أشار إلى ذلك نجم الدين الهنتاتي بأنّ هذه الظاهرة تتمثل في انهيار المراكز الحضرية في الداخل ونموّ أخرى على السواحل، وأرجع كلّ ذلك إلى سيطرة العرب الهلالية⁶، إذن فالانتقال نحو عواصم جديدة على ساحل البحر المتوسط لم

1 الإدريسي، النزهة، ص 260.

2 رشيد بورويبة، السابق، ص 150.

3 دومينيك فاليريان، السابق، أنظر الصفحات: 227 وما بعدها.

4 نفسه، ص 236.

5 مارمول كاريخال، السابق، ص 376.

6 نجم الدين الهنتاتي: مدينة تونس قبل العهد الحفصي، مجمع الأطرش للكتاب المختص، تونس، ط1، 2019، ص 54.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

يكن أبدا خيارا، بل واقعا فرضته الظروف من انتشار القبائل العربية وسيطرتها على مجال المغرب وإفريقية وخاصة المناطق الداخلية.

في نص الإدريسي في وصف بجاية الاهتمام الكبير بدار الصناعة للسفن والمراكب، فقد ذكر صاحب الاستبصار أنّ بها داران لصناعة المراكب، كما أن لها مرسى كبير تحطّ فيه سفن الروم من الشام وسفن المسلمين من الإسكندرية واليمن والهند والصين وغيرها¹، وكذلك وصفها الحموي بكثرة ارتياد السفن إليها²، ولعلّ كثرة الخشب ببجاية ساعد على انتشار مثل هذه الصناعات، فتبوأت المدينة مكانة رفيعة فاقت مكانة المهدية من حيث تلك الصناعة، فإن أشجار الزيتون بساحل إفريقية لا يصلح لصناعة المراكب والسفن كما أشار إلى ذلك جورج مارسيه³، كما أنها تعدّ من أهمّ مراكز صناعة الزجاج⁴.

يرى برنيان ونوشي ولاكوست أن ازدهار بجاية التجاري راجع إلى العلاقات مع السودان، وانتقال الذهب إلى المدينة، كما كان للتجار الأوروبيون في القرن 12م دور في ذلك⁵، ولقد تمكّنت من الصمود كعاصمة لبني حماد حتى دخول الموحّدين، كما سيبقى ظهورها بمظهر المدينة الكبيرة حتى قبيل عصر الأتراك⁶.

1 مجهول: الاستبصار، ص 130.

2 شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، مج 01، ص 339.

3 جورج مارسيه: السابق، ص 250.

4 أرشيبالد لويس: السابق، ص 330.

5 أندري برنيان وآخرون: السابق، ص 106.

6 روبر بارانشفيك: تاريخ إفريقية في العصر الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط01، 1988، ج01، ص 410.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

ولا أدلّ على مكانة العاصمة الحمّادية من قول أبي علي الحسن بن الفّكون (أوائل القرن

407هـ/13م) إذ يقول عن بجاية¹:

دع العراق وبغداد وشامها	فالناصرية ما إن مثلها بلدُ
برّ وبحر وموج للعيون به	مسارح بان عنها الهمّ والنكدُ
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع	حيث الغنى والمنى والعيشة الرغد
والنهر كالصلّ والجّنات مشرفةٌ	والنهر والبحر كالمرآة وهو يدُ
فحيثما نظرت راقّت وكلّ نوا	حيّ الدار للفكر للأبصار تتقدّ
إن تنظر البرّ فالأزهار يانعةٌ	أو تنظر البحر فالأمواج تطردُ
يا طالباً وصفها إن كنت ذا نصف	قل جنة الخلد فيها الأهل والولدُ

ويبدو أن القلعة ظلّت كعاصمة ثانية للحمّاديين، إذ يذكر ابن خلدون أن المنصور

الحمّادي نزل بجاية سنة 483هـ/1090م بعداً عن العرب لما كانوا يسومونه من الفساد²، وممّا

يدلّ على بقاء دور القلعة السياسي، ما نقله ابن خلدون من أنّ المنصور لما خرج لغزو تلمسان

سنة 476هـ/1083م، فدخلها وعاشت عساكره فيها فساداً، وما كان من مناشدة زوجة تاشفين

بوشائج القرابة والدم، قال ابن خلدون: "وانكفأ-يعني المنصور- راجعاً إلى حضرته بالقلعة"³، كما

1 الغبريني، عنوان الدراية، ص ص 334-335.

2 ابن خلدون، العبر، مج06، ص 357.

3 نفسه، ص 361.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

أنَّ العرب ظلُّوا يغيرون عليها، ففي عهد العزيز الحمادي اكتسح العرب جميع ما وجدوه بظاهرها وعظَّم عيْثهم فيها وغلبوا الحامية، ولم تستطع السلطة ممثلة في العزيز من فعل شيء سوى إرسال العزيز لابنه يحيى وتسكين الأحوال وأمن العرب وعاتبهم على ذلك، ثم انكفأ راجعا إلى بجاية بعسكره على حدِّ قول ابن خلدون¹، ويبدو أنَّ آخر أدوار القلعة كان في عهد يحيى بن العزيز، فقد ذكر ابن خلدون أن في سنة 543هـ/1148م تفقَّد يحيى القلعة ونقل ما بقي فيه - من أدوات الزخرف التي زَيَّن بها بجاية²، وخربت القلعة نهائيا بدخول الموحِّدين سنة 547هـ/1152م³.

ومن الغريب عدم تعرُّض كل من العبدري في رحلته وابن بطوطة والبلوي في التاج المفرق لأحوال بجاية التجارية، رغم مرورهم بها، فابن بطوطة وكما أسلفنا الذكر تكاد تكون ملاحظاته على المغرب الأوسط مجرَّد مقتطفات سريعة ربَّما لاستيلاء الخوف عليه من العرب الهلالية، فلا يكاد يتكلَّم إلَّا عن مرضه وعن خطورة الطريق الذي لم يسلم من غارات الأعراب⁴، أمَّا العبدري فكانت تتبَّعاته واهتمامه بالرواية ونقل أحوال أهل العلم، والذي يرى أنَّه أندرس من المغرب ولم يبق إلَّا آحاد العلماء، فهو لم يهتم بالجانب التجاري والاقتصادي وأحوال العامَّة وصنائعهم وحرفهم⁵، ولم يكن البلوي ليبين لنا حال اقتصاد المدينة، فقد غلب عليه الطابع الأدبي والاهتمام الكبير بالرواية وأهلها⁶.

1 ابن خلدون، العبر، مج 06، ص 326.

2 عبد الحليم عويس، السابق، ص 99.

3 نفسه، ص ص 363-364. وأنظر ابن الأثير، السابق، ج 09، ص 372.

4 أنظر ابن بطوطة، السابق، الصفحة 35 وما بعدها.

5 أنظر العبدري، السابق، صفحات 49 وما بعدها.

6 أنظر البلوي، السابق، صفحات: 153-158.

3-نشاط حركة السّاحل بإفريقية

3-1-استقلال مدينة تونس

لقد كان عجزُ الزيريين عن السيطرة على البلاد الشرقية وحفظ الأمن سبباً لبروز عدّة إمارات منها العربية كاللّخميّين ببنزرت وبني الرند بقفصة وبني جامع في قابس، وبني خراسان بتونس¹، ولئن سمّاهم أرشيبالد Archibald Ross Lewis بالمُغامرين المستبدين بالحكم²، فإنّ هؤلاء قد استطاعوا أن يمدّدوا من عمر دويلاتهم، فبني خراسان حكموا تونس لفترة امتدّت من: 451هـ إلى 554هـ، وبني جامع الهلاليون الممتدة فترة حكمهم لقابس من 489هـ إلى 555هـ، ويبدو أنّه لم تستطع أي سلطة زحزحة هؤلاء عن حكمهم، حتى دخول عبد المؤمن أرض إفريقية وتوحيده للمغرب وإفريقية تحت ظل دولة الموحّدين.

جعل جورج مارسيه من أهمّ نتائج الزحف الهلالي على إفريقية تأسيس مملكة تونس المستقلة، مع نتائج أخرى مثل هروب بني زيري إلى المهدية وبني حمّاد من القلعة إلى بجاية³، ويؤيّد في ذلك نجم الدين الهنتاتي من أنّ تونس تخلّصت من السيطرة القيروانية، لتمرّ بمرحلتين على حدّ قوله، الأولى كإمارة مستقلة عن القيروان ومتصارعة مع المهدية، أمّا الثانية فتبرز فيه

1 Daghfous Radhi. Les Hilaliens et le pouvoir politique en Ifriqiya à la fin du Moyen Age .in: Mélanges de l'école française de Rome. Moyen âge, tome 115, n 1.2003.p494.

2 أرشيبالد لويس، السابق، ص 364.

3 جورج مارسيه، السابق، ص230.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

كعاصمة جهويّة في ظلّ دولة الموحّدين¹، وكذلك بقيت في عهد الحفصيين، فهي دار مملكة إفريقية على ما كان من ضعف المملكة وانتهائها إلى حدّ التلاشي على حدّ قول العبدري².

ويبدو أنّ عبد المؤمن الموحّدي لمّا ضمّ بجاية لدولته واستأمر عليها ابنه عبد الله، أمره بالتضييق على تونس ويمنع عليها المرافق المارّة عن طريقه³، كما أنّ المدينة قبل الموحّدين لم تكن في منأى عن هجمات الهلاليين⁴، ممّا استدعى ساكنتها وشيوخ البلدة سنة 451هـ/1059م للاستجداد بالحمّاديين لحمايتهم وتأمير أحد على البلاد، فاختار لهم الناصر بن علناس بعد تردّد منه عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان (451-488هـ/1059م-1095م)⁵، وقد ساعد موقع تونس وانفتاحها على البحر لكي تكون أهم مدن إفريقية لتلك الفترة، إذ يرى محمد الهادي شريف أنّ دخول الهلاليين كرّس لوضع قبلي جديد بإفريقية، فانتشار تربية الحيوانات وتوسّع أراضي المرعى نتيجة لذلك، قلّص الحياة الحضريّة وأدّى إلى انكماش حياة الاستقرار بصورة عامّة، واستثنى من ذلك بعض المناطق التي سمّاها محظوظة مثل تونس وقابس⁶، كما يرى نفس الباحث أنه لا ينبغي إلقاء اللوم كلّه على القبائل الهلالية في تردّي الأوضاع بإفريقية، فقد كان - وكما أسلفنا القول - ملاحاة البحر المتوسّط بيد المسيحيين، واحتكار الإيطاليين الجنوبيين والبيزيين للمبادلات التجارية

1 نجم الدين الهنتاتي، السابق، ص 55.

2 العبدري، السابق، ص 71.

3 عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 297.

4 نجم الدين الهنتاتي، السابق، ص 55، فقد تمّ محاصرة المدينة واحتلالها سنة 446هـ من طرف الهلاليين بقيادة عرب رياح وقائدهم يومذاك عابد بن أبي الغيث.

5 ابن عذاري، السابق، ج 01، ص 315.

6 محمد الهادي شريف: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، دار سراس للنشر، تونس، ط 03، 1993، ص 50.

واضحا منذ منتصف القرن 05هـ - 11م، ورغم تخليص عبد المؤمن بن علي سواحل إفريقية من المسيحيين وبالتالي استعادة مدن المغرب لتتضم للموحدين، نجد في عهد الحفصيين أن من أهم الموارد المالية للدولة بالإضافة إلى الضرائب والمكوس المختلفة، نجد مورد خاص من التجارة البحرية والقرصنة التي كان يقوم بها المسيحيون في مرافئ الدولة الحفصية¹، ولعلّ هذا ما دعى ابن بطوطة لما أراد مغادرة تونس عن طريق البحر أن يرافق القطلونيين (نسبة إلى إقليم كتالونيا الإسباني) في مركبهم نحو سردانبة سنة 750هـ/1349م²، ويشير محمد الهادي شريف إلى أنّ تونس ظلّت مزدهرة اقتصاديا رغم الضعف الذي كان عليه المغرب في تلك الفترة، ولاحظ البون الواسع بين نشاطها التجاري وتقدّم صناعاتها وازدهارها الثقافي من جهة، والتدهور الكبير الذي عرفته أريافها من جهة أخرى، ولعلّ تدهور الأخيرة راجع إلى السيطرة الواسعة لعرب بني هلال على مجالاته والتي ظلّت مراعي لقطعان القبائل العربية³.

وقد وصف العبدري تونس في نهاية القرن 07هـ - 13م، في حدود سنة 688هـ تاريخ رحلته بأنّها مازالت دار ملك وضخامة رغم ضعف المملكة الحفصية⁴، أمّا البلوي في القرن 08هـ - 14م فوصفها بكثرة الخصب والفواكه، ووصفها بالعامرة بكثرة مبانيها واتساعها، ومينائها نشيط

1 محمد الهادي شريف، السابق، ص 56.

2 ابن بطوطة، السابق، ص 669.

3 محمد الهادي شريف، السابق، ص 59.

4 العبدري، السابق، ص 71.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

بالحركة نظرا لغناها بالموارد¹، ولعلّ من أهمّ مواردها وجود الرّخام بها، كما أنّ بها مصانع لماء المطر نظراً لقلّة الماء بها².

أمّا الإمارات الأخرى كبنزرت التي هي أحد الإمارات العربية التي تأسست على ساحل البحر نتيجة السيطرة الهلالية، فقد أسندت هذه المدينة القيادة لأحد العرب من بني الورد اللّخمين لمدة القرنين ونصف القرن تقريباً، ولعلّ ممّا ساعد هؤلاء في الصّمود طيلة هذه المدة، سياستهم اتّجاه العرب الهلالية من قبائل بنو مقدّم من الأثبج ودهمان من بني علي من رياح، متمثلة في إعطائهم الإتاوة³، كما يذكر ابن خلدون بأن بنو الورد شيّدوا المصانع والمباني وكثر العمران، ويرى الحبيب الجنحاني بأنّ مدينة بنزرت ظلّت كذلك في العهد الموحدّي بإضافة بناء ريبض خارج المدينة، مع ملاحظة تراجع دور المدينة في العهد الحفصي⁴، كما وصفها الحسن الوزان في القرن 10هـ / 16م بصغر حجم المدينة وأن أهلها فقراء، مع وجود الثروة السمكية في أحواضها وأنهارها، مع فرض الضرائب من طرف السلطة بتونس والعرب الهلالية المنتشرة بكثرة في خارجها⁵.

3-2- بنو جامع الهلاليون بقابس: مساهمة في الصناعة العسكرية والبناء والتشييد

إمارة قابس تحت إمرة بني جامع (489-555هـ / 1096-1160م) هي أوّل إمارة عربيّة، وهي نتيجة دخول الهلاليين إلى إفريقية والمغرب، وقد بلغت قابس في عهد بني جامع نوعاً

1 البلوي، السابق، ج01، ص 166.

2 العبدري، السابق، ص 69.

3 ابن خلدون، العبر، مج06، ص 346.

4 الحبيب الجنحاني، دراسات في التاريخ العربي، ص 226.

5 الحسن الوزان، السابق، ج02، ص 68.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

من التطور والازدهار، نتيجة موقع قابس الجغرافي وامتلاكها لساحل ترسو فيه السفن الصغيرة لعدم تسترّه من الرياح على حدّ قول الإدريسي، وإتّما ترسو السفن الكبيرة في واديها¹، وهذا قد أثر على حركتها التجارية على طريق البحر فكانت أقلّ أهمية مقارنة بالمرافئ الإفريقية الأخرى²، ولو أنّ البكري وصف ساحلها بأنّه مرفأ للسفن من كلّ مكان³، ولم يُخصّص السفن الصغيرة أو الكبيرة أو متوسطة الحجم⁴.

ويبدو أن بنو جامع يعتبرون طفرة في القبائل الهلالية إذا علمنا أنّهم قاموا بتشييد سفينة⁵، الأمر الذي أزعج صنهاجة بنو زيري⁶، ويفسّر ابن الأثير عمل رافع بأنّه من أجل المتاجرة في البحر، ولم ينكر عليه يحيى بن تميم ذلك جريا على عادته في المداراة، ولكن مع تولّي علي بن يحيى مقاليد الحكم رفض أن يشاركه أحد في تجارة البحر⁷، ممّا استدعى من رافع بن مكي إلى الاستجداد بملك صقلية، وهو ما أشار إليه ابن خلدون من أنّ علي بن يحيى بن تميم لما ولي أمر المهديّة فسد ما بينه وبين رافع، فأعان عليه رافع صاحب صقلية⁸، وهذه تعتبر محاولة هلالية للبدء

1 الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 279.

2 محمد المرزوقي: قابس جنة الدنيا، مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، د.ط، د.ت، ص 53.

3 البكري، السابق، ص 17.

4 ذكر ابن سعيد المغربي في بسط الأرض، أنّ نهر مدينة قابس تنزله السفن المتوسطة الحجم، وهذا يؤيد كلام الإدريسي على مرفأ المدينة، أنظر ابن سعيد، بسط الأرض، ص 78.

5 رجّح خالد عبد البديع رضوان محمود أن تكون هذه السفينة من النوع الكبير والمسمّى السفري، أنظر المرجع السابق، ص 488. كما أن النخيلي عرّفها بأنها: تلك التي تستعمل كمراكب حمالة أو مراكب لنقل المتاجر، وهو ما يوافق قول ابن الأثير من أن سفينة رافع بن مكي الهلالي كانت للمتاجرة، أنظر درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1974، ص 64.

6 التجاني، السابق، ص ص 98-99.

7 ابن الأثير، السابق، ج 9، ص 169.

8 ابن خلدون: العبر، مج 6، ص 341.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

في التصنيع والاعتماد على الذات، ولعلّ هذا ما جعل علي بن يحيى الزيري لا يتقبّل أن تكون للعرب سفن تنافسه في ملاحه البحر، ولقد نتج عن تدخّل ملك صقلية انهزامه مع الهلاليين وكذا تدمير أول محاولة تصنيع للعرب، وربما يؤكّد هذا قول محمد المرزوقي من أنّ قابس لم تكن ذات أهمية من الناحية البحرية التجارية، إذ لو كان للعرب أسطول قويّ لما استجدوا بصقلية¹، وممّا ساعد على محاولة البناء هذه وفرة الخشب بقابس².

وقد حاول بنو جامع محاكاة الملوك في بلاط الحكم واستقبال الشعراء والأدباء وتلقّيهم بالأمراء، كما اتّخذوا بعض المشاورين والوزراء³، وذكر ابن خلدون أنّ من أمرائهم رُشيد بن كامل الذي ضرب السكّة الرُشيدية⁴، ويبدو هذا تطوّرًا آخر بعد محاولة اتّخاذ أسطول هلاّلي في البحر المتوسط، فضرب السكّة دليل على الاستقلالية، وهو ما رأيناه من فعل المعزّ بن باديس لما جاهر بالقطيعة مع الفاطميين اتّخذ العملة وهو الدينار النجاري، ويبدو أنّ رُشيد جعل ولاءه للخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (530-555هـ/1136م-1160م) وهو ما يُعدّ ضربة للفاطميين بمصر والذين كانت أحوالهم في تراجع⁵، وكما أسلفنا الذكر فإنّ بلاط الهلاليين من بني جامع اكتظّ بالشعراء، لعلّ التجاني ذكر أحدهم وهو سلام بن فرحان، ومنهم الشاعر الفصيح ابن حمديس

1 محمد المرزوقي، السابق، ص 172.

2 لمياء حسين دحروج، السابق، ص 140.

3 لمياء حسين دحروج، السابق، ص 98.

4 ابن خلدون، العبر، مج 06، ص 342.

5 خالد عبد البديع رضوان محمود، إمارة بني جامع الهلالية في قابس (489-555هـ): دراسة تحليلية، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، العدد 21، 1441، ص 463.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

الذي نقل لنا التجاني بيتاً من شعره في مدح رُشيد، وربما يدلّ ذلك على ما وصلت إليه هذه الإمارة الهلالية في عهد أميرها الرُشيد:

يقول ابن حمديس:

أفلا يُحالفني الرشاد وهمّتي قصدت بعزم للأمير رُشيد¹

وبالرجوع إلى الجانب الصناعي والتجاري، فقد وُصفت قابس في عهد الهلاليين بأنها أرباض وأسواق وفنادق وحمّامات، كما انحصر عمل الحرير في قابس، ذكرت لمياء حسين دحروج العديد من الصنائع التي اشتهرت بها مدينة قابس مثل صناعة السروج والسجاد والزجاج والخزف وغيرها، ولكننا نعتقد أن العرب الهلاليين قد وفّروا المادة الأولية للكثير من الصناعات البدوية خاصّة، والتي تعتمد في تصنيعها على الصوف والشعر والجلود وغيرها، فامتلاك العرب الهلالية لقطعان الماشية بكثرة واتّساع النشاط الرعوي سهّل توفير تلك المواد التي تعتبر الخام في هذه الصناعات²، وأسهم في تنشيط الصناعات النسيجية والحيّاكة والخياطة، يصف ابن سعيد في بسط الأرض مدينة قابس بأنها "في إفريقية كدمشق في الشام"³ وهو ما دعى التجاني في رحلته بإبداء إعجابه بغابة قابس "وقد أهدقت غابتها من جميع جهاته وبهذه الغابة من الجواسق والنخل المتناسق ما يستوقف الطرف ويستوفي الحسن والظرف"⁴، ويحقّق ما قاله ابن سعيد عنها، ولعلّ هذا كما

1 التجاني، السابق، ص ص 95-100.

2 لمياء محمد سالم شرف الدين: بعض ملامح الأزمة الاقتصادية في القرن الخامس للإسلام، سلسلة الدراسات التاريخية 31، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 1999، ص 264.

3 ابن سعيد، بسط الأرض، ص 78.

4 التجاني، السابق، ص 86.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

أسلفنا بكثرة الأسواق والتجارات وتشبيد عمائرها، فقد وصفها أيضا الإدريسي بالعمارة، وتوفّرها على الغطاء النباتي المستعمل في بناء السفن، وتوفّر الفواكه والزروع والضّياح، كما أن المدينة تحتوي مدابغ للجلود (نظرا لكثرة الماشية عند العرب)، كما أنّ معظم غاباتها الزيتون فتوفّرت بذلك مادة الزيت¹، كما أنّ لأهل قابس طريقة في جني التمر وتحويله إلى مربّى أو عسل التمر.

وبالعودة إلى البناء والتشييد فقد شيّد بنو جامع قصر العروسين والذي اتّخذهُ أمراؤهم مقرّاً لحكمهم، وهذا ما يُعدّ من رسوم الإمارة، إذ ذكر ابن خلدون أنّ رافع بن مكي استقل ملكه واختط بقابس قصر العروسين، وكذا المصانع بها²، ولو أنّ ابن خلدون قد اختلط عليه الأمر بذكره في موضع آخر أنّ الذي اختطّ قصر العروسين من أمراء بني جامع رُشيد بن كامل³، ويحمل هذا النص على أنّ رُشيد قد أكمل بناء القصر، ويؤكد أنّ هذا القصر من بناء بنو جامع ما كُتب في بعض أبوابه ما نصّه: " أمر بعمل هذا الباب الأمير الشهم رافع بن أمير الأمراء مكي بن كامل بن جامع في رجب سنة 500هـ/1106م"⁴.

وعلى العموم فقد استطاع بنو جامع الهلاليين السيطرة على أوضاع مدينة قابس، وشهد عهدهم نوعا من الرّخاء والتطور الاقتصادي نتيجة امتلاك المدينة لمقومات أساسية أهمّها: الموقع الجغرافي وتوفّر غطاء نباتي تمثّل في غاباتها الكثيفة، ممّا ساعد على ظهور عديد الصناعات في القديم وأهمّها صناعة السفن، ولعلّ محاولة العرب بقيادة الأمير رافع بناء سفينة كان حدثا مهماً في

1 الإدريسي، النزهة، ص 279.

2 ابن خلدون، العبر، مج 06، ص 341.

3 نفسه، ص 342.

4 التجاني، السابق، ص 95.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

تاريخ الهلالية بالمغرب وإفريقية، ويكفيهم شرفاً أن هذا الحدث أرق نوم الأمير الزيري الذي رأى في هذا العمل تهديدا لدولته المحصورة في المهديّة، كما استمرّ في عهد بني جامع إنتاج الحرير التي اشتهرت به قابس مع مواصلة تصدير هذه المادة¹، ويُضاف إلى ذلك تأثير الهلالية في الصناعات التقليدية النسيجية منها ودباغة الجلود والحياسة وغيرها، فقد استطاع العرب بامتلاكهم للغنم والماعز والأبقار والإبل من توفير المواد الأولية لكثير من الصناعات الملازمة للنشاط الرعوي، ولعلّ عدم استطاعة العرب الهلالية تكوين دولة سياسية بالمعنى الحقيقي للدولة له أسبابه، يتساءل راضي دغفوس عن ذلك بطرحه لسؤال عن ذلك: هل هذا مرتبط بحياة القبائل الهلالية التي اتّسمت بالبداوة وبالتالي عدم قدرتها على الانضباط والنقيّد بالنظم الخاصة بالدول والممالك، خاصة إذا علمنا أنّ تلك القبائل لا تهادن فيما يتعلّق باستقلاليتها وحرّيتها، أم أنّ ذلك راجع إلى نظرية ابن خلدون فيما يتعلّق بالفكرة الدينية، وضرب مثلاً بالدولة الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، حين استطاع تكوين دولته في ظرف سنوات².

المبحث الثاني : إسهامات العرب الهلالية في الحرف والتجارة

1- نظام الخفارة: آية الشرف الحرابي

يبدو أن سيطرة العرب الهلالية على مجال المغرب وإفريقية ابتداء من منتصف القرن 11م قد مكّنتهم من إيجاد مورد اقتصادي هام بعد اقتصاد المغازي الذي احترفه الهلاليون نتيجة ممارستهم للحاربة، أشار مبارك الملي إلى سيطرة الهلاليين على الطرق التجارية وتميّزوا

1 De mas latrie. Relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations chrétiennes au moyen âge, paris.1886.p22.

2 Daghfous Radhi, Op.cit p501.

بإحداث نظام تأمين لتلك الطرق سمّوه "نظام الخفارة"، ولو أنّ هذا النظام في رأيه قد أدّى إلى توقف حركة تجارة البربر¹ فلا يجتازها أحدٌ إلّا بخفارة العرب²، كما اعتبر جورج مارسيه أنّ نظام الخفارة كان من بين الأشياء الإيجابية التي قدّمها العرب، وقد عرّفها بأنّها السهر على أمن المسافرين، لكنّه يعود لينتقد العرب بوصفه لحاجة الناس لمثل هذا النظام الذي سببه تواجد العرب أنفسهم، فحاجة الناس والقوافل للأمن نابعة من وجود العرب وإخافتهم للساكنة وقطعهم للطرق³، ولعلّ بعض الأمراء والسلاطين رأوا هذا تعدياً على حرمة دولتهم واعتزازاً عليها، فما كان منهم إلّا أن حاولوا نزع هذه الامتيازات من يد العرب، وهو ما حدث في الحملة العسكرية التي قادها المرينيّون في القرن 08هـ-14م، فقد رأى أبو الحسن المريني في هؤلاء قطاع طرق ومفسدين، منعوا قوافل التجارة والحجيج، فكانت خرجته إلى بلاد إفريقية لقبض أيديهم عن تلك الإتاوات والأموال التي مصدرها الخفارات المتعددة للعرب والتي اشتكت منها الرعيّة لما رأوا فيها من الجور والظلم واثقال كاهل الناس بفرضها⁴، وفي هذا يقول الكفيف الزرهوني في ملعبته:

وتنقيها من العدو البيسا حتّى تمشي فيها المرا بالتاج⁵

وهذا أيضاً كان حالّ الأمير المريني أبي عنان، الذي قبض أيدي العرب عن

الامتيازات التي كانت ممنوحة لهم والتي قال عنها ابن خلدون " الإتاوة التي يسمونها الخفارة"¹،

1 مبارك الملي، السابق، ص 188.

2 قراري عيسى: قبيلة حميان من القرن 05-08هـ / 11-14م دراسة تاريخية وثقافية، اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، 2005-2006، ص 295.

3 جورج مارسيه، السابق، ص 245.

4 ابن خلدون، العبر، مج 07، ص 570.

5 الكفيف الزرهوني، السابق، ص 70.

وهو ما أدى إلى تدمير كل استقرار عرفه هؤلاء العرب في بلاد الزاب والمغرب الأوسط²، حتى لقد جعل أبي عنان جهاد العرب الهلالية أعظم من جهاد الروم مستحضراً بذلك نصوص الفقهاء واعتبرها نازلة من النوازل³.

ومهما يكن من أمر فقد كانت القوافل التجارية خصوصاً في حاجة ماسة لمثل هذا التأمين الذي يدفع عنها ضرر قطاع الطرق، مما يضمن وصول البضائع إلى نقطة الوصول وبالتالي تحصيل أموال الربح الخاص بتلك القوافل.

ويبدو أن أول من طبق عليه العرب هذا النظام هو المعز بن باديس الصنهاجي، فقد خرج فاراً من القيروان إلى المهدية في خفارة أصهاره الثلاثة الذين زوجهم بناته⁴، فقد أمنوه إلى أن وصل إلى مبتغاه، ولولا جوارهم لكان في عداد من قُتل بالقيروان.

كما ارتبط تأمين المسافرين وبعض التجار ببناء بعض المرابطين العرب لزوايا وأربطة كما أسلفنا الذكر، وهو ما اضطلعت به زاوية بني سهيل التي ذكرها التجاني من أن صاحب الزاوية أو أولاده من بعده كانوا رحمة للمجتازين، يوقرون لهم ما يحتاجون إليه من الزاد وغيره، ويُرجعون لهم ما استلب منهم⁵، ومثله ما كان من بعض الحركات الإصلاحية في المغرب الأوسط كحركة سعادة الرياحي وغيره، إذ كان همهم إخماد الطريق وتأمينه بل تعدى كما قلنا سابقاً إلى الإصلاح

1 ابن خلدون، العبر، مج07، ص 619.

2 ابن الحاج النميري، السابق، ص 70، وص ص 159-160.

3 نفسه، ص ص 482-483.

4 ابن خلدون، العبر، مج06، ص 34، وذكر التجاني في رحلته أن المعز خرج في خفارة رجلين ممن صاهره وهما: الفضل بن أبي علي والآخر فارس بن أبي الغيث، توجهوا إليه بصبرة واستخرجاه سراً، أنظر التجاني، السابق، ص 329.

5 التجاني، السابق، ص 213.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

الاقتصادي بالمطالبة برفع الضرائب والمكوس، ويبدو هذا كله تأثيرا للتصوّف المنتشر بالمغرب وإفريقية في تلك الفترة، كما وصف العقباني بأن بوادي تلمسان بها مرابطون أهل علم ودين يقومون بتأمين السبيل¹، كما أشار الوزان أنّ ملوك تلمسان يقومون باستئجار القبائل العربية للحفاظ على الأمن في الطرق²، كما أنّهم مضطرونّ إلى تهدئة العرب بأداء إتاوات جسيمة وتقديم الهدايا لهم³.

ووردت عند ابن خلدون كلمة بذرقه وهي بمعنى الخفارة، فكان ذوي عبيد الله من المعقل لابدّ لهم من رحلة الشتاء كل سنة يقصدون قصور توات وتمنطيت، ومع ناجعتهم تخرج قفول التجارة حتى يحطّوا بتمنطيت ومنها يُذرقون إلى بلد السودان على حدّ قول ابن خلدون⁴، كما أنّ ابن خلدون قد سافر في خفارة العرب من اولاد يعقوب بن موسى" وبذرق لي بعضهم إلى حلّة أولاد عريف"⁵، لقد أدّى انتشار اللّصوصية وقطع الطرق إلى اللجوء لنظام الخفارة حتى يحصل أمن القافلة، وقد أدّى هذا الوضع إلى الجدل حول حرمة أو حلّة الخفر⁶.

ويبدو أنّ الخفارة لم تختصّ فقط بالعرب الهلالية، فقد ذكر ابن بطوطة في رحلته وعند بلوغه بلاد بردامة ومنها إلى مدينة تكدة ببلاد مالي لا ترحل القوافل إلّا بخفارة قبيلة بربريّة⁷،

1 الطاهر بونابي، عصر المتصوفة، ج3، ص ص 395-398.

2 الحسن الوزان، السابق، ج2، ص11.

3 نفسه، ص 08.

4 ابن خلدون، العبر، مج07، ص119.

5 نفسه، ص 1027.

6 محمد بلحسان، عبيد بوداود: اللصوصية وأثرها في حركة القوافل بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مجلد 10، عدد02، ديسمبر 2019، ص 298.

7 ابن بطوطة، السابق، ص 709.

ولو أنّ كلام ابن بطوطة يُحمل على تقليد هؤلاء للعرب الهلالية في القيام بنظام الخفارة وتأمين القوافل.

2- عرب المعقل ودورهم التجاري

يرى ابن خلدون أنّ قبائل المعقل النازحة مع الهلاليين في القرن 11هـ/11م لم يكونوا بنفس ديموغرافيا القبائل الأخرى، فقد حدّد عددهم بأنّه لا يتجاوز المائتين¹، ظهرت منهم مجموعات في واحات الغرب على حدود جنوب مراكش وموريتانيا الحالية في القرن 12هـ/12م، استطاع قبيل المعقل من بلوغ قوّة على عهد ابن خلدون تمكّنوا من خلالها إثارة الإضطراب في الدولة المرينية²، وهذا يقودنا إلى التساؤل عن كيف استطاع عرب المعقل أن يصبّحوا على هذا القدر من القوّة والخطورة؟

كما يبدو، أنّهم استمدّوا ذلك من العدد الكبير لأفراد القبيلة ومحافظةهم على عصبيّتهم في مواجهة السّلط والدول المتعاقبة، ربّما يجيبنا حسن حافظي علوي على ذلك من أنّ قبائل المعقل لم يظهروا على مسرح الأحداث في القرنين 05 و 06 الهجريين/11-12م، فقد اكتفوا باستيطان البيئة الصحراوية البعيدة عن الصراعات القبليّة وذلك لقلة العدد، حتى إذا كثروا ونمت أعدادهم تحرّكوا من الصحراء إلى الواحات الواقعة جنوب وشرق جبال الأطلس³، ويذكر ابن خلدون سببا آخر في

1 ابن خلدون، العبر، مج06، ص ص 118-119.

2 ريمون فيرون، السابق، ص ص 68-69.

3 حسن حافظي علوي، سجل ماسة وإقليمها في القرن 14هـ/14م، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، 1997، ص 153.

كثرة أفراد المعقل وهو اجتماع القبائل الأخرى وانضوائهم تحت لواء عرب المعقل، وذكر منهم فزارة وأشجع والشظّة والشعراء من حصين ومن بني سليم وغيرهم¹.

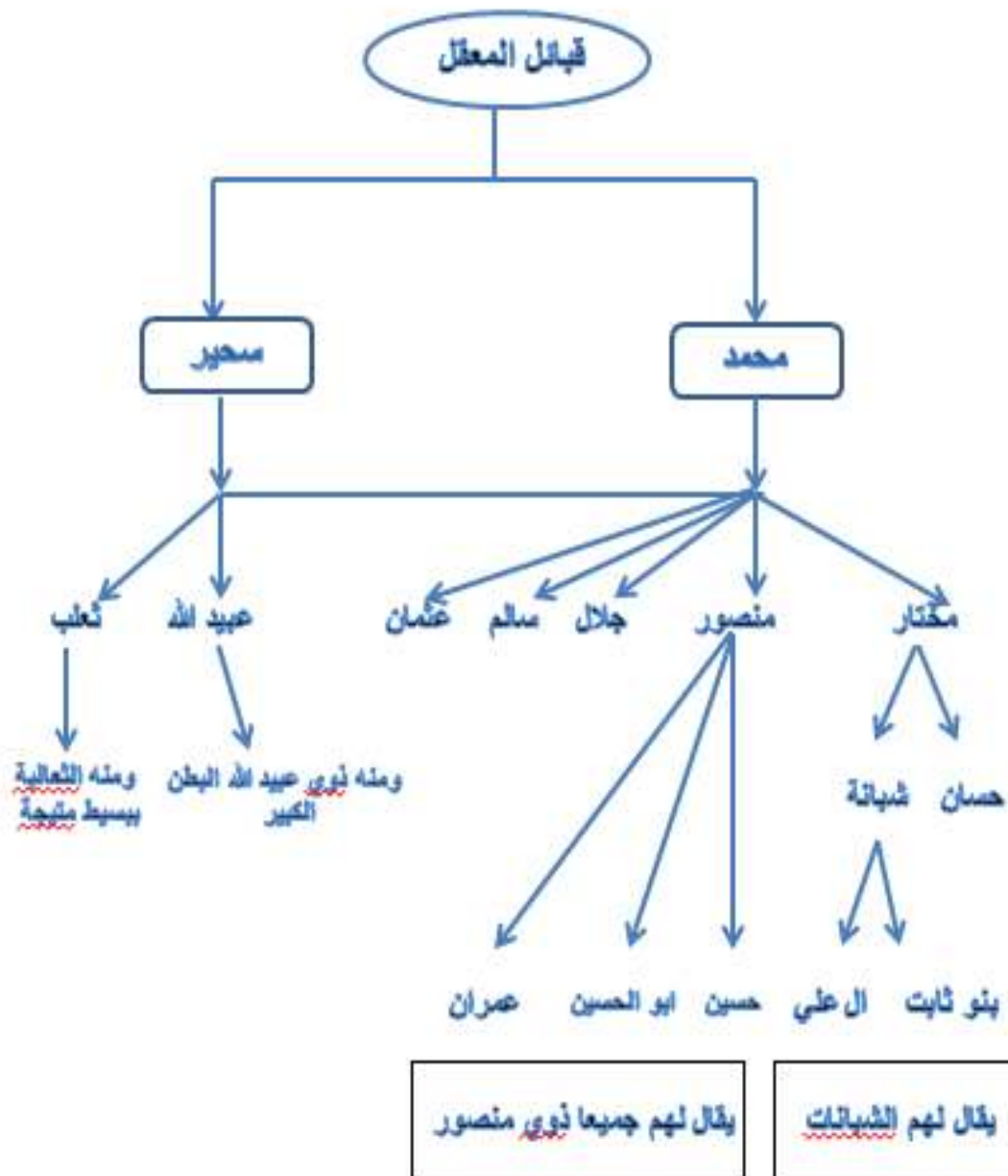
لعبت بطون المعقل دوراً في سياسة الدول القائمة آنذاك في المغرب، فباستثناء فترة الموحدّين التي رُسخ فيها العرب ومنهم المعقل نظراً لاعتزاز الدولة، فإن ذوي منصور (المنبات) كانوا أحرافاً للدولة الزيانية²، قال ابن خلدون " إلى أن لحق الدولة الهرم " أما بني عبيد الله فقد تحالفوا مع بني مرين وكانوا يده اليمنى في تقويض استقرار العرب في الصحراء مع وزير المرينيين يحيى ابن العزّ، ولكن هؤلاء أسفوا على فعلتهم وخلعوا طاعة بني مرين³.

1 ابن خلدون، العبر، مج 06، ص ص 120-121.

2 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ص 139-140.

3 نفسه، ص 125.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة



الشكل 02 يوضح بطون قبائل المعقل المنتشرة بالمغرب

المصدر: كتاب العبر لابن خلدون مج 06، ص 122

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

*مظاهر ممارسة قبائل المعقل للتجارة

يعتبر الحسين بولقطيب أنّ التجارة القوافلية مع دول إفريقيا السوداء لعبت دوراً مهماً في ازدهار اقتصاديات المغرب، من حيث أنّها أصبحت مورداً آخر وبديل عن الضرائب والجبايات التي كانت الدول بالمغرب تُثقل بها كاهل السكّان، وبالتالي وبازدياد النفقات المتعدّدة على خزينة الدول فقد كان هذا مخرجاً من أزمة، ينتج عن ذلك إحداث التوازن الاجتماعي المفضي إلى الاستقرار السياسي¹، نجد كلّ النصوص تقريباً عند ابن خلدون تدلّ على أن قبائل المعقل كان لها دور في التجارة المغربية، سواء ممارستهم بأنفسهم للتجارة، أو الإشراف على طرق القوافل التجارية وكذا مسالك التجارة، فقد عُرف بأن أفراد هذه القبائل لهم دراية بمفاوز الصحراء، وقد ساعد هؤلاء تموقعهم بها منذ نهاية القرن 12هـ/12م، وبحكم اعتبار سجل ماسة ودرعة والسوس منافذ التجارة إلى السودان وبلاد مالي، فقد كانوا ينتجعون في مشاتهم إلى تخوم الصحراء الكبرى يمرّون خلالها بتافيلالت وواحة فكيك، كما كان من أفراد هذه القبيلة مصاحبة بعض القوافل مقابل ضريبة معيّنة²، كما أنّ ذوي عبيد الله من المعقل لابدّ لهم من رحلة الشتاء كلّ سنة يقصدون قصور توات وتمنطيت، ومع ناجعتهم تخرج قفول التجارة حتى يحطّوا بتمنطيت ومنها يُبذرون إلى بلد السودان على حدّ قول ابن خلدون³.

1 الحسين بولقطيب: العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي خلال العصر الوسيط، مجلة أمل، مجلد 02، عدد 06، 1995، ص 14.

2 إسماعيلي مولاي عبد الحميد العلوي: تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1985، ج1، ص 69.

3 ابن خلدون، العبر، مج07، ص119.

لقد كان للموقع الذي استوطنته بطون المعقل دور في احترافهم أعمال التجارة، فابن خلدون يذكر أن ذوي عبيد الله موطنهم ما بين تلمسان إلى وجدة إلى مصب وادي ملوية في البحر ومنبعث وادي صا من القبلة، وتنتهي رحلتهم في القفار إلى قصور توات وتمنطيت وربما وصلوا إلى تاسايبيت وتوكرارين، وهي كما يقول ابن خلدون " رقاب السفر إلى بلاد السودان"¹، أما ذوي منصور الموالين لدولة بني زيان فقد تملّكوا بالإقطاع من السلطان مدن وجدة وندرومة وبني يزناسن ومديونة وبني سنوس، وكانت لهم معظم الجبايات، كما أحدثوا ضريبة الإجازة إلى تلمسان عن طريق هنين، فلا يستطيع أحد الحلول بساحتها إلا بإجازتهم وعلى ضريبة يؤدّيها لهم².

كما أنّ هذا التوطن ساعدهم في السيطرة على طرق تجارية عديدة منها: سجلماصة - فاس، وطريق سجلماصة - تلمسان، هذين الطريقين سيطرت عليهم قبائل الأحلاف ممّا جعلها تلعب دورا مهماً في القرن 08هـ/14م في مراقبة القوافل التجارية المحمّلة بالتبر من السودان إلى المغرب³، كما أن قبائل المنبات قبل ذلك سيطرت على طريق سجلماصة وتلمسان ومارست نفوذها عليه، كما أصبحت مناطق نفوذها حلقة وصل بين افريقيا السوداء وميناء هنين شمال تلمسان⁴، وكما أسلفنا الذكر فإن تلمسان تعتبر منفذ تلتقي فيه المواد الأوروبية من أقمشة وأسلحة وغيرها

1 ابن خلدون، العبر، مج06، ص 123.

2 ابن خلدون، العبر، مج06، ص 124.

3 حسن حافظي علوي، السابق، ص 160.

4 نفسه، ص 202.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

بمواد المغرب وافريقيا السوداء، ولم تفقد هذه الوظيفة حتى في أحلك الحالات التي تميزت باضطرابات سياسية خطيرة¹.

كما سيطرت بطون المعقل على بعض المدن التي أُعتبرت مقصد التجار مثل بلد تادنست الذي يصفه ابن خلدون بأنه بلد كبير يقصده التجار، وأن أولاد حسين من ذوي منصور مسيطرون عليه، ويبدو أن سيطرتهم تمثلت بأخذ الضرائب ومكوس وكذا تأمين القوافل عن طريق مرافقتها فيما سمي بالخفارات²، ولعل هذه الميزة - أعني فرض الضريبة وجمع الإتاوات والسيطرة على طرق التجارة - كانت ميزة بطون المعقل بامتياز، فلا يخلو نص من نصوص ابن خلدون وهو المعتمد في التأريخ لتلك القبائل وغيرها من القبائل العربية إلا ويصفها بالسيطرة وجمع الضرائب والإتاوات من الساكنة الممارسين للتجارة وغيرهم.

وأستخدم أفراد قبائل المعقل كأدلاء في معرفة مفاوز الصحراء، وهي مهنة شاقة وخطيرة، كما يُستخدم الدليل في التجارة ومعرفة الطرق والمسالك، يستخدم أيضا في المعارك، كاستعمال سليمان بن ناجي من عرب الأحلاف كدليل في القفر من الصحراء، في فتنة أبي حمو موسى الثاني مع ابنه أبي تاشفين³، كما استخدم أبو الحسن المريني أحد أمراء المعقل وهو علي بن غانم أمير أولاد جاز الله في مرافقة وفد السلطان المريني إلى سلطان وملك مالي آنذاك منسا سليمان، مع ما كان من الهدية المبعوثة إليه وكبار رجال دولة بني مرين يتقدمهم كاتب الديوان أبي

1 أندري برنيان وآخرون، السابق، ص 114.

2 ابن خلدون، العبر، مج 06، ص 134

3 ابن خلدون، العبر، مج 07، ص 756.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

طالب بن محمد بن أبي مدين ومولاه عنبر، مع ما عُرف على أبي الحسن في محاكاته لملوك الدنيا وطريقته في الفخر¹.

*الأزمة الاقتصادية وتحول طريق الذهب في القرن 08هـ/14م

يبدو أن المغرب على موعد مع أزمة اقتصادية في القرن 08هـ-14م وذلك بتحول الطرق التجارية من شمال-جنوب إلى محور الشرق-الغرب، يرى عبد القادر جغلون أن دولة المماليك بمصر بعد أسلمة النوبة تمكّنت بعد سيطرتها على أعالي وادي النيل الواصل مباشرة إلى المحيط الأطلسي ملازمة الممالك السودانية ذات الأهمية في تمويل الذهب، كذلك فتح التجار المسيحيين لطرق تجارية جديدة عبر المحيط الأطلسي، وتمكّن البرتغاليين من جذب سوق الذهب في نهاية القرن 08هـ/14م وبداية القرن 09هـ/15م نحو خليج غينيا²، كما أشار أندري برنيان أنّ التحول إلى طريق المشرق وإن كان ليس بصفة مباشرة فعلى الأقل بالتخلي على طريق المغرب الأوسط³، نجد بعض الإشارات لتحول طريق التجارة نحو المشرق عند ابن خلدون، فعند نزوله على بني مزني بالزاب سنة 754هـ/1353م لقي رسول صاحب تكدة- قبلة واركلا- والذي أخبره عن استبحار هذا المصر بالعمران، كما أخبره باجتياز تجار من المشرق عن طريق تكدة إلى بلاد مالي، ويبدو أن القافلة كانت ذات قيمة بدليل عدد الرواحل بها والتي بلغت 12 ألف راحلة⁴، كما أنّ تلك القوافل تمرّ كلّ عام بصفة متكرّرة، ويبدو أن الصّلات التجارية قد ازدهرت بين تلك

1 ابن خلدون، العبر، مج06، ص ص 554-555.

2 عبد القادر جغلون: مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط02، 1988، ص 81.

3 أندري برنيان وآخرون، السابق، ص 117.

4 ابن خلدون، العبر، مج07، ص 108.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

الأصقاع الإسلامية ومصر، ولا أدلّ على ذلك من رحلة الملك منسا موسى وما أنفقه من أموال في طريقه للحج¹، كذلك استبحار العمران بقصور غدامس لما آلت إليه من كونها محطاً لركاب الحاج من السودان وقفل التجار إلى مصر والإسكندرية، فقد كان هؤلاء يرتاحون بها بعد قطعهم للمفازة ذات الرمال بالصحراء²، كما نجد إشارة إلى تحوّل قوافل الحج نحو السودان إلى مصر، فقد توجّه عبد الحليم صاحب سجلماسة (في الفتنة بينه وبين أخيه عبد المؤمن على رئاسة سجلماسة) لقضاء فريضة الحج منطلقاً من سجلماسة قاطعاً المفازة إلى بلد مالي ومنها سحب ركاب الحجّ إلى مصر³، ولكن عطاء الله ذهينة يرى عكس ذلك، ففي مقال له بعنوان الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدولة بني زيان ضمن كتاب جماعي موسوم بالجزائر في التاريخ، يرى أن تجارة الذهب لم تنقطع أبداً عن المغرب وهذا في معرض ردّه على ايف لاکوست Yves Lacoste الذي جعل من كتابات المقرّي مصدراً له، كما أشار إلى أنّ تحول طرق التجارة من شمال -جنوب إلى غرب - شرق، قد نفاه بعض الباحثين في الآونة الأخير - ولم يسمّهم - مستنديين في ذلك على وثائق الأرشيف الاسبانية والإيطالية للقرن 15/هـ09م والتي تدلّ على استمرار تدفق الذهب للمغرب، ويستدلّ ذهينة على ذلك بنصّ المقرّي في نفح الطيب من إشارته لشركة أجداد المقرّي

1 مهدي رزق الله أحمد: حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقيا قبل الاستعمار وآثارها الحضارية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط 01، 1998، ص 216.

2 ابن خلدون، العبر، مج 07، ص 122.

3 ابن خلدون، العبر، مج 07، ص 665.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

للتجارة والتي اشتهرت وكان لها صيتٌ كبير في نقل البضائع من وإلى المغرب وجنوب الصحراء وأوروبا¹.

هذا الوضع أدّى إلى سيطرة التجّار المسيحيين على المخازن في أغلب الموانئ المغربية، فأصبحت هذه الأخيرة تصدّر المواد الأولية من المنتجات الزراعية وتستورد المواد المصنّعة والحرفية الأوروبية²، وبقيت تلمسان تمثّل منفذاً لتجارة الأوروبيين من أقمشة وغيرها، وتستقبل الذهب من السودان³، ولقد وجدت مجموعة معاهدات وقّعت بين أمراء بني زيان والدول الأوروبية ومنها معاهدة بيرينينون مع مملكة أرغونة 763هـ/1362م وامتدّت 05 سنوات ومن الشروط المنطوية عليها هذه المعاهدة حرية الاتّجار والتنقّل في البحر المتوسط وكذا عدم تعاون الطرف المتعاقد مع أعداء الطرف الآخر⁴، كما أنّ هذا الوضع أدّى إلى زيادة ممارسة القبائل ومنها العربية للنهب وسرقة القوافل التجارية على قتلّها ومنها قبيلة سليمان⁵، ربّما هذا الزخم الكبير للعلاقات التجارية للمنطقة مع الغرب الأوروبي لم يؤثّر كثيرا على المغرب الأقصى بل سينعكس عليه بنوع من الإيجاب⁶.

لعلّ هناك سببا غاية في الأهمية وله عميق الأثر في الوضع الحاصل من سيطرة الأوروبيين، والتحول التدريجي للطرق والمسالك التجارية عن المغرب لصالح بلاد المشرق، فابتداء

1 رشيد بورويبة وآخرون: الجزائر في التاريخ الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، وزارة السياحة والثقافة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 486-487.

2 عبد القادر جغلول، السابق، ص 81.

3 أندري برنيان، السابق، ص 114.

4 رشيد بورويبة وآخرون، السابق، ص 478.

5 أندري برنيان وآخرون، السابق، ص 117.

6 محمد القبلي، مراجعات، ص 16.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

من النصف الثاني للقرن 14هـ/14م نلحظ انهيار في التجارة على الساحل المغربي، وبالمقابل تطوّر التجارة الداخلية وكذا مع الشرق، لعلّ فقدان القوى العسكرية المغربية السيطرة على البحر المتوسط لصالح القوى المسيحية، ومنها هزيمة المرينيين في معركة طريف سنة 741هـ/1340م وفقدان المرينيين السيطرة على جزيرة طريف والجزيرة الخضراء تعدّ أحد الأسباب¹.

ولعلّه أيضاً امتداد للسيطرة المسيحية منذ القرن 11هـ/11م على الملاحة بحوض المتوسط، كما أنّ نزول العرب البدويّون بجنوب إفريقيا ومنه إلى جنوب المغرب الأوسط أدّى إلى ابتعاد القوافل التجارية عن هذين الإقليمين والتوجّه نحو الغرب، فنشطت بذلك الحركة التجارية بالمغرب الأقصى عكس المغرب الأوسط وإفريقية، هذا صادف نشوء حركة المرابطين في القرن 12هـ/12م والذين سيطروا على المنافذ المهمّة لتجارة الذهب، أما في القرن 14هـ/14م فكما أسلفنا الذكر فقد أصبح السلاطين الحفصيون يعتمدون في مدخول الدولة الاقتصادي على ما تجبّيه من عائدات الضريبة التي يدفعها التجار المسيحيّون والمقدّرة بـ 15 بالمائة² نظرا للنشاط الكبير للتجار النصراني في موانئ ومراسي الدول الشمال إفريقية، ومنها كذلك تلمسان عبر موانئها بوهراة وهنّين فقد فرضت ضرائب جمركية على التجار الأوروبيون الناشطين بتجاراتهم عبر البحر المتوسط، كما وُجد العديد من التجار اليهود الذين احترفوا التجارة وتوطّنوا المدن الأوروبية مثل: مارسيليا وميورقة والمدن الرئيسية في إيطاليا ومصر والمغرب³.

1 أحمد بن محمد المقرّي التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1988، مج 04، ص 386.

2 عبد القادر جغلول، السابق، ص 88.

3 رشيد بورويبة وآخرون، السابق، ص 479.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

ويبدو أن تحوّل طريق تجارة الذهب والرقيق نحو الشرق عبر ورجلان والبهانسا المصرية، كانت للدولة المرينية واستخباراتها دورٌ مهم فيها، خاصّة إذا علمنا أنّ العلاقات المرينية والمصرية المملوكية تحسّنت كثيراً خاصّة في عهد الأمير أبي الحسن، يدلّ على ذلك السفارات والرّسائل المتبادلة بين الطرفين والهدايا والطّرف من الجهتين، فبعد تعرّض قافلة مصرية سنة 707هـ/1307م للاعتداء والسرقة من طرف عرب زغبة بمساندة الدولة الزيانية على رأي الكثير، ممّا أدى إلى توتر العلاقات بين مصر والمغرب، فقد عرفت فيما بعد العلاقات ازدهارا كبيرا في عهد أبي الحسن¹، تدلّ على ذلك هديّته إلى الملك محمد بن قلاوون ونسخه للمصحف الشريف بخطّ يده معرّفاً إيّاه بفتح المغرب الأوسط²، كذلك رسائله وسفرائه للملك الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون سنة 745هـ/1344م³، كما عُرف على الأمير أبي الحسن علاقاته الجيدة مع ملوك مالي، وما هداياه للملك منسا سليمان إلّا دليل على ذلك⁴، وما يؤكّد كلّ هذا ما أشار إليه محمد عبد العزيز الدباغ من أنّ أرض السودان كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأبي الحسن، وهو ما بعث في نفس الأمير أبي عنان المريني الخشية من فقدان تلك المكانة بعد مقتل أبي الحسن، وما رحلة ابن بطوطة إلى أرض السودان إلّا بأمر من الأمير الشاب ليقوم بإظهار فضله⁵، وهو ما أكّده ابن

1 الحاج عيفة: علاقات المغرب الإسلامي بمصر خلال القرن 08هـ-العلاقات السياسية وإسهامات المغاربة في مصر-، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2001-2002، ص ص 141-142.

2 ابن خلدون، العبر، مج 07، ص ص 551-552.

3 المقري، السابق، مج 04، ص 388.

4 ابن خلدون، العبر، مج 07، ص ص 554-555.

5 محمد عبد العزيز الدباغ: بنو مرين من خلال رحلة ابن بطوطة، مجلة دعوة الحق، العدد 07، السنة الخامسة، أفريل 1962، ص 36.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

بطوطة في رحلته لسنة 754هـ/1353م¹، ولعلّ هذا كان عمل مخابراتي بامتياز، كذلك نجد ابن خلدون يذكر خروجه إلى بلاد الزاب في مهمة للأمير أبي عنان سنة 754هـ/1353م - وهي نفس السنة التي بعث فيها ابن بطوطة إلى السودان-، هذه المهمة التي بُعث من أجلها ابن خلدون لم يفصح عن تفاصيلها، قال ابن خلدون: "... في بعض الأغراض الملوكية"²، ولكن في هذه المهمة الغامضة التقى ابن خلدون مع صاحب تكدة التي بقبلة ورجلان والتي يجتازها التجار المشاركة إلى بلاد مالي كل سنة، وبلغت رواحهم لذلك العام 12 ألف راحلة، ويبدو هذا الزخم الكبير من تبادل المعلومات منشأ الصراع القائم بين المرينيين والزيانيين في تلك الفترة، نستشف ذلك من فعل الأمير الزياني أبي حمو موسى الثاني وبعثه ليحيى ابن خلدون سنة 769هـ/1367م إلى قبائل رياح للتفاوض وأخذ الزّهن، وكان من نتيجة ذلك إكرام شيوخ القبيلة بأنواع الهدايا والأعطيات، وأمرهم بمضايقة قبيلة حصين الموالية للمرينيين³، كما أنّ توجيه أبي عنان لسوط عذابه اتّجاه العرب المستقرّين ببلاد الزاب ونقض كلّ استقرار عرفه أولئك العرب وخاصة من قبائل رياح - الذين نقل لنا النميري المرافق لحملة الأمير المريني كلّ مظاهر الاستقرار الذي عرفته هذه القبائل من بناء القصور والاهتمام بالزراعة والبستنة وغيرها من المظاهر - كان له علاقة بمحاولة تنحية رياح من تلك المجالات لكي لا تشكّل خطراً على التجارة مع الشرق.

1 ابن بطوطة، السابق، ص 712.

2 ابن خلدون، العبر، مج07، ص 108.

3 يحيى بن خلدون، السابق، ج02، ص ص 386-387.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

ومما يدلّ على العلاقة التجارية الحسنة بين بني مرين وبلاد مصر نشاط الموانئ والمراسي المرينية كميناء سبتة مثلاً، وكذا مراسي أنفا وأصيلا¹، طنجة، وغساسة وسجلماصة التي كان يدخل التجار منها إلى السودان بالملح والنحاس ويعودون محمّلين بالذهب، كما ساهمت تلك المراسي في تصدير الخرفان والخيول والجلود وغيره واستيراد الأقمشة من الإسكندرية²

هذا الوضع الذي آلت إليه تجارة الذهب بالمغرب قد مسّ كذلك تجارة الرقيق، فقد وجد من العرب من يقتني الرقيق المجلوبين من السودان ويستعملونهم خدماً وخصياناً وسط الحريم بمصر³، وعلى العموم فقد خسر المغرب في القرن 08هـ/14م وظيفته كملتقى الطرق وأصبح في معزل عن طريق الذهب الذي كان منذ القرن 03هـ/09م سبباً في انتعاش اقتصاده وازدهاره، كما أدّى هذا الوضع إلى احتلال الإسبان لسواحل المغرب الأوسط فيما بعد⁴.

1 محمد المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 20، جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية، ط3، 2000، ص 145.

2 عامر أحمد عبد الله حسن: دولة بني مرين: تاريخها وسياساتها اتجاه مملكة غرناطة الأندلسية والممالك النصرانية في اسبانيا، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2003، ص 226.

3 ريمون فيرون، السابق، ص 77.

4 أندري برنيان وآخرون، السابق، ص ص 118-119.

3- توجيه النشاط الحرفي نحو الاقتصاد البدوي

3-1- الحرف المعتمدة على النشاط الرعوي

أشار ابن خلدون في مقدّمته إلى أنّ العرب أبعد الناس عن الصّنائع¹، وهذا انطلاقاً من مبدأ الحضارة البداوة، فالعرب عنده أغرق في البداوة وأبعد عن العمران الحضري، ولهذا تناقصت لديهم الحرف والصّنائع، كما أنّه قسّم الصّنائع إلى ما هو بسيط ومركّب، فالبسيط الذي لا يكون إلّا في الضروريّات وعكسه المركّب الذي يختصّ بالكماليّات، ولهذا كانت أصناف الحرف من الحياكة والخياطة والنجارة وغيرها من قبيل البسيط الضروري، الذي يحتاج إليه الإنسان في بادئ أمره، فإذا تطوّر الإنسان في حضارته وعمرانه، طلب المزيد ليدخل في الكماليّات، وهكذا، ولعلّ المليي كان أوضح في وصف العرب الهلاليّة في أخلاقهم، فهي تشابه خلق العرب في الجاهليّة، ومن بين الأوصاف التي نعت بها الهلاليين: بغض الصّنائع والحرف².

ومن الحرف الحياكة والنسيج، وهي ضروريّة في حال البداوة، إذ يعرفها ابن خلدون بأنّها: "إلحام الغزل حتى يصير ثوبا واحداً"، فإن مال المجتمع إلى الحضارة فصلّوا تلك المنسوجات قطعاً يقدّرون منها ثوبا على البدن بشكله وبتعدد أعضائه واختلاف نواحيها، على حدّ قوله³، وهذه

1 ابن خلدون، المقدمة، ص 421.

2 مبارك المليي: السابق، ج2، ص190.

3 ابن خلدون، المقدمة، ص 429.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

الصناعات يحتاجها الناس لما فيها من ستر البدن وتدفيئته، فهي ضرورية لمعاش الناس، وقد أقر بعض الفقهاء إلى أن تعلم مثل هذه الصناعات فرض كفاية¹.

يستند هذا النوع من الحرف على النشاط الرعوي الذي مثلته القبائل العربية الهلالية في تلك الفترة، فهو يحتاج إلى مواد أولية لا تتوفر إلا بوجود أعداد كبيرة من الماشية، ومنها استطاعت توفير الصوف والشعر والجلود وأوبار الإبل وغيرها، كما أشار فاليريان إلى الدور الذي لعبته المدارس الصوفية ببجاية في انتشار حرفة الحياكة أو الطرازة²، وتمثل المدرسة المدينية برئاسة أبي مدين شعيب أولى تلك المدارس ببجاية، بحكم مكوثه ببجاية زمناً، ولعل المتتبع لحلقات الصوفية ببجاية يرى كثرة المريدين والطلاب العرب الهلالية، ولعلمهم مارسوا هم أيضاً تلك الحرف اليدوية، وهو ما أشارت إليه عائشة غطّاس من أن الطرق الصوفية تحت مريديها وأتباعها على امتنان الحرف وإتقان الصنائع³.

هناك عدّة إشارات في المناقب المرزوقية تدلّ على انتشار الحرف والصنائع بتلمسان والمغرب الأوسط صُبغت بصبغة بدوية، فهو يتحدّث عن حرف مثل الخياطة وهي من المهن المنتشرة، فذكر من أصحاب جدّه الشيخ أبو اسحاق ابراهيم بن علي والذي كان يتعيّش بالخياطة،

1 ابن قيم الجوزية: الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية، تحقيق: أيمن عرفة، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ص 263.

2 دومينيك فاليريان، السابق، ص 278.

3 عائشة غطّاس: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقارنة اجتماعية-اقتصادية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه دولة في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص 172.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

وكان له حانوت بالموضع المسمّى القَبَّابين¹، كما أنّ جدّ ابن مرزوق لأُمّه كان يحترف عمل الحاكة من الصّوف الرّفيّع، وهذا النوع كانت تختصّ به تلمسان في تلك الفترة²، ولهذا كانت ثياب الأمير المريني أبي الحسن وجلسائه تؤتى من تلمسان³.

وبالنظر إلى الحالة التي آل إليها المغرب وإفريقية بعد توطّن الهلالية به، نجد أنّ الدولة الزيانية لكي تتعامل مع الأعداد الهائلة للعرب الهلالية الوافدة على المغرب الأوسط قامت ببناء القصبات لهم، وهي كما عرّفناها سابقاً " الغور الفسيحة الخطّة تشابه بعض الأمصار"، فهذه القصبات التي وضعت لاحتواء العرب الهلالية، أدن للعرب فيما بعد باتّخاذ المنازل والأسواق وكذا امتهان الصنائع⁴، وهو ما أدّى بالطاهر بونابي إلى القول بأنّ هذا مثلّ الدورة القصوى للاقتصاد البدوي بالمدينة والقائم على الحرف مثل الفلاحة والحياكة ودباغة الجلد وغيره⁵، كما ساهم الغزو الحفصي لتلمسان سنة 646هـ/1248م⁶ في إبادة الرأسمال لتجّار المدينة وهو ما نقله ابن مرزوق عن والد جدّه الذي ذهب جلّ ماله في تلك الدخلة، وكذلك التجّار في الموضع المسمّى مرسى الطلبة، " كانت فيه أموال لا تحصى كثرة للشيخ أبو عبد الله المدخّس وإخوته وبني اللّجام القاضي وإخوته وابن حسّون وابن الجلاب وغيرهم من الأموال الطائلة"⁷، ولعلّ هذه الأماكن التي كانت عامرة قبل زمن ابن مرزوق قد خربت في عهده، فهو يصف تلك الأماكن لعهدّه بأنّها خربة، يقول

1 ابن مرزوق، المناقب، ص 180.

2 نفسه، ص 188.

3 ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص 129.

4 ابن خلدون، العبر، مج 07، ص 215.

5 الطاهر بونابي، مظاهر المجال، ص 180.

6 ابن أبي زرع، الذخيرة، ص 61.

7 ابن مرزوق، المناقب، ص ص 172-173.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

ابن مرزوق: "أنّ الموضع المعروف بمسجد إيلان وهو اليوم داخل الرّيض، كان يطلع منه كلّ يوم حمل للبضع من عمل الصّوف، وهذا الموضع من آحاد المواضع، فانظر هل تجد اليوم في ذلك الموضع أو ما يجاورهم عُماراً..."¹.

يبدو أنّ استيطان العرب من بني عامر والتّقرب كثيرا من فحوص المدن أدّى إلى شيوع الكثير من الحرف المعتمدة على البادية، فأصبحت المدن تعتمد في إنتاجها على ما توفّره البادية من مواد أولية، فبنو عامر كانوا يحبّون لباس الغفارات لأولادهم، وهو ما حذا بأحد الحاكة إلى صنع الغفارات لمزيد الطلب عليها في أحياء العرب من بني عامر المستوطنين قرب تلمسان².

إذن لقد كان تأثير العرب الهلالية في الحرف وبعض الصنائع بطريقة غير مباشرة من خلال توفير المواد الأولية التي كانت تنتجها ماشيتهم الكبيرة، وهو ما حذا بمحمد حسن إلى التأكيد بأنّ تجار إفريقية بين القرنين 06 و 09هـ / 12-15م كانت جلّ المواد المصدّرة ذات منشأ بدوي كالصوف والجلود وغيرها، حيث تأتي هذه المواد من البلاد المشهورة بتربية الماشية وذكر منها: قابس وبقمودة وجمونس، ففئة التجار هنا أصبحت وسيطا بين ما يأتي من البوادي وبين التجار الجنوبيين والبيزيين والإيطاليين، هؤلاء الذين يوفّرون تلك المواد الأولية لاستعمالها في الصناعات الكبيرة في بلدانهم ومن ثمّ إعادة تصديرها في شكل جديد كالأقمشة وغيرها³، حتى اليد العاملة في

1 ابن مرزوق، المناقب، ص 190.

2 نفسه، ص 276.

3 الهادي التيمومي وآخرون: المغيّبون في تاريخ تونس الاجتماعي، وزارة الثقافة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، 1999، ص 61.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

مثل هذه الحرف كان مصدرها الأساسي البادية¹، ولعلّ هذا السبب أدّى إلى انتشار حرفة الحاكة انتشاراً كبيراً بمدن المغرب الأوسط مثل: وهران ودلس وتلمسان وغيرها بطابع بدوي².

ظلت قابس التي حكمها بنو جامع الهلاليون تنتج الحرير، وهو ما نقله الإدريسي، ويبدو أن العرب شجّعوا ذلك، كما كان بها من مدابغ الجلد في عهدهم الكثير³، كما كان ببرقة مدابغ للجلود التي تأتي من أوجلة فيتجهّز منها إلى الإسكندرية ومصر⁴، وقد ذكر الإدريسي أنّ هذه المجالات كلّها لقبيلتين هما: عوف ودياب⁵، كما أشارت إلهام دحروج إلى أنّ توسّع العرب في تربية المواشي بأنواعها أدّى بهم الاهتمام بالصنائع المتعلقة بها، من مثل استخدامهم لنوى التمر المدقوقة ويستعملونها كعلف لتلك المواشي⁶، كذلك صناعتهم للسمن والزبد والجبن انطلاقاً من منتجات المواشي من الحليب⁷، وهذه الصناعات كلّها بدويّة منشأها تلبية الحاجات الأولى للعرب ومن ثمّ بيعها إن زادت عن الحاجة في الأسواق، كما أشار الوزان إلى سوق كان يعقد خارج مدينة مكناس يأتي إليه العرب الهلالية من المناطق المجاورة، فيحملون إليه منتجات ماشيتهم : السمن والصوف، يُباع كلّ ذلك بأبخس الأثمان⁸ وقد لا يحصلون في مقابله على مال، فقبيلة مرداس

1 الهادي التيمومي وآخرون: السابق، ص78.

2 الوزان، السابق، ج02، ص ص 30-33.

3 الإدريسي، القارة الإفريقية، ص180. وانظر: de mas latrie, op, cit, p22

4 الإدريسي، النزهة، ص311.

5 الإدريسي، القارة، ص ص 198-199.

6 إلهام حسين دحروج، السابق، ص129.

7 نفسه، ص 137.

8 الحسن الوزان، السابق، ج01، ص215.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

العربية تأتي بمنتجاتها بعنابة، هذه الأخيرة ترسو بها السفن من تونس وجربة وكذلك من جنوة لشراء تلك المنتجات وفي مقدمتها الزبد¹

إذن فقد ساهم هؤلاء الأعراب من حيث يدرون أو لا يدرون في تنشيط الحركة الاقتصادية ليس بالداخل فقط بل على السواحل ومع الدول الأوروبية، كما كانت نساء العرب تقمن بصنع بعض المساحيق الخاصة بالتجميل، وهذا ما ذكره الوزان في قوله: "... وإثما يستعملن من حين إلى آخر خضاباً مصنوعاً من عتن لوز العصفرة والزعفران ويرسمن به في وسط خدودهن زينة مستديرة تشبه الدينار، ويجعلون بين الحاجبين شكلاً مثلثاً، وعلى الذقن شبه ورقة الزيتون"²، واستخدم العرب الهلالية الجراد كدقيق، وذلك بعد تجفيفه في الشمس يتمّ سحقه فيحصلون على نوع من الدقيق صالح للاستهلاك³، وهكذا نجد العرب تستثمر حتى في الجوائح الطبيعية مثل الجراد.

3-2- بيوت العرب:

تعتبر الخيام بيوت العرب، ويصف ابن خلدون بيوت العرب التي تختطها سريعة الخراب، شأن البداوة والبعد عن الصنائع على حدّ قوله⁴، حتى مبارك المليحي حين وصفه لبيوت العرب والحالة الاجتماعية التي كان عليها الهلاليون، يقول بأنهم يسكنون بيوتا يستخفونها يوم ظعنهم⁵، فهم بحكم الترحال الدائم يجعلون من بيوتهم سهولة الاقتلاع وأخذها ضمن أمتعتهم، كما أنّ

1 الوزان، السابق، ج02، ص62.

2 الحسن الوزان، ج01، ص64.

3 نفسه، ج02، ص279.

4 ابن خلدون، المقدمة، ص367.

5 مبارك المليحي، السابق، ج02، ص187.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

ابن خلدون جعل سببا آخر في كون بيوت العرب تكون بهذا الشكل، ألا وهو عدم بحثهم عن أماكن اختطاط المباني، بل بعكس ذلك يراعون في ابتنائها وجود مراعي لإبلهم خاصة، ولا يبالون بالماء طاب أو خبت على حدّ تعبيره¹، ولهذا نجده يقرّر بأنّ طبيعتهم منافية للعمران ومناقضة له، ويردف القول : "... فالحجر مثلاً إنّما حاجتهم إليه لنصبه أثافيّ القدر، ... والخشب أيضاً إنّما حاجتهم إليه ليعمدوا به خيامهم ويتّخذوا الأوتاد منه لبيوتهم، فيخربون السقف عليه لذلك"²، ولعلّ من أسباب التحدّث عن بيوت العرب- الخيام - أنّ ابن خلدون جعلها فارقا بين عرب الفتح وبين عرب بني هلال، فقد عدّد الفروق بينهما، مُعتبراً أن عرب الفتح لم يسكنوا بأجيالهم في الخيام³، كما جعل من علامات انهيار عصبية بعض القبائل البربرية محاولة التشبّه بالعرب في الزيّ والكلام، ومنها سكنى الخيام، وهذا في معرض حديثه عن قبيلتي هواره⁴ وزناتة⁵.

كما أشار كارفخال بأن العرب يعيشون في قرى ومدامر تعدّ بين 100 و150 إلى 200 خيمة تُكوّن شكل دائرة ليكون وسطها مستديرا لحبس الماشية فيه ليلا⁶، فانظر إلى طبيعة المعاش الرعوي المبني على تربية رؤوس الماشية وكذا البداوة كيف يتحكّمان في شكل القرية أو القبيلة من حيث وضع السكنى، فقد أخذ العرب في حسابانهم قطعان ماشيتهم وتجلّى ذلك في شكل عمرانهم البدوي.

1 ابن خلدون، المقدمة، ص 367.

2 نفسه، ص 163.

3 ابن خلدون، العبر، مج 06، ص 27.

4 نفسه، ص 288.

5 ابن خلدون، العبر، مج 07، ص 03.

6 مارمول كاربخال، السابق، ج 01، ص 100.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

كذلك أشار كارفخال إلى صناعة الخيمة عند العرب، وهي إشارة جديرة بالذكر، فهذه الخيام تصنع من نسيج أسود من الصوف وشعر الماعز، وكذلك سعف النخل، وبهذا يكون نسيجا متراصاً يحجب مرور المطر والشمس، كما أنّ الخيام تتراص بعضها لبعض حتى كأنّها حيطان، ولا يُترك إلا ممران، ممرّ لدخول الماشية والآخر لخروجها، كما تغلق هذه الممرات بالشوك لضمان عدم مرور الحيوانات المفترسة ليلاً¹، ولعلّ هذه المواد كلّها استطاع العرب توفيرها من خلال ماشيتهم، فالصوف وشعر الماعز متوفّران بكثرة، أمّا سعف النخل ونظراً لغنى الصحاري بأشجار النخيل فهي كذلك متوفرة، وهذا ما يؤدّي بنا إلى الاعتقاد أنّ الخيم التي كان يسكنها العرب كانت من صنعهم وبأيديهم، هذا الوصف لمارمول كارفخال في القرن 10هـ-16م، وبعد مرور حوالي أربع قرون ونصف من توطّن العرب الهلالية بالمغرب وإفريقية يحيلنا إلى نتيجة مهمّة، وهي أنّ العرب رغم مرور تلك المدة الزمنية لا زالوا في نمط معيشتهم المعتمد في أساسه على البداوة وأساليبها البسيطة، حتى بعد معرفتنا بعدد الإشارات التي قدّمها النميري في رحلته ببلاد الزاب والمغرب الأوسط والتي سكن خلالها عرب رياح القصور الفارهة واتّخذوا البساتين والمزارع، إلا أن ذلك من قبيل الطفرات التي صبغت الظاهرة الهلالية في مرحلة معيّنة، كما أنّنا نعتقد بأنّ تلك القصور لم تكن بناء للعرب بل استوطنها العرب فقط، وإنّما أضافوا إليها تلك الزراعات التي دلّت على استقرار نفسي صاحب تلك السكنات من القصور والرباطات.

1 مارمول كرفخال، السابق، ج01، ص 100.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

السيطرة الهلالية على مسالك التجارة:

علمنا فيما سبق الدور الكبير الذي لعبته قبائل المعقل العربية في السيطرة على الطرق التجارية من وإلى بلاد السودان، بفضل معرفتهم بخبايا تلك المسالك الوعرة، ممّا دعى بالكثير من السلاطين والأمراء بالمغرب إلى الاستعانة بهم في إيصال الوفود والهدايا إلى بلدان ما وراء الصحراء، ذكر الإدريسي الطريق التجاري للقوافل المنتقلة من تلمسان، لتمرّ إلى فاس ومنها إلى صفروى إلى تادلة إلى أغمات إلى درعة ومنها إلى سجلماسة¹، هذه الأخيرة تعتبر الباب الذي ولج منه المرابطون في دعوتهم إلى المغرب²، كما أنّ السيطرة على تلك المدينة يعني السيطرة على مسلك مهمّ للتجارة إلى بلاد السودان ومالي، ونعتقد أنّ هذا الطريق كان تحت سيطرة قبائل المعقل العربية، نظرا لتوطنها تلك المجالات وإشرافها على خفارة القوافل التجارية في تلك النواحي، كما أشار إلى الطريق التجاري الذي يمرّ بصحراء نيسر بالمغرب الأقصى، وهو طريق تجار أهل أغمات وسجلماسة ودرعة والنول الأقصى إلى بلاد غانة³، كما أنّ الإدريسي ذكر طريقا تجارياً آخر سيطرت عليه القبائل العربية، وهو الطريق المؤدّي من أوجلة إلى بلاد كوار وكوكو من بلاد السودان⁴، ووصف الإدريسي الطريق المؤدّي من سجلماسة إلى البهانسا إلى مصر أنّه قليل السالك إليه، بل كان يسلكه المرابطون بدليل، لكن هذا الطريق قد نشط في القرن 08هـ/14م وأصبح مشهورا نظرا لشهرة مدينة البهانسا التي عُرفت بحرفها وصناعاتها النسيجية، كالستور المعروفة

1 الإدريسي، القارة الإفريقية، ص 150.

2 عز الدين جسوس: موقف الرعيّة من السلطة السياسيّة في المغرب والأندلس في عهد المرابطين، إفريقيا للشرق، المغرب، 2014، ص 270.

3 الإدريسي، القارة الإفريقية، ص 86.

4 الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 312.

اسهامات القبيلة الهلالية في الحرف والصنائع والتجارة

بالبهنسية وهي مشهورة في جميع أنحاء العالم¹، ويبدو أن التجارة إلى بلاد السودان قد اشترك فيها إلى جانب العرب، قبائل بربرية منها هواره المستوطنين بمدينة أغمات، ووصفهم الإدريسي بممارستهم للتجارة إلى بلاد السودان، إذ يحملون إليها النحاس الأحمر والملون والأكسية والثياب الصوفية والعمائم وغيرها من السلع²، ومما يدل على السيطرة الهلالية على طرق التجارة بالداخل والصحراء، ما كان من العبدري في سلوكه للطريق الساحلي خوفا من غارات العرب، أو وصف التجاني في رحلته لحالة الطرق والمغازات، والتي شهدت في تلك الفترة سيطرة تامة للهلاليين، زد على ذلك شهادة ابن بطوطة الذي منعه خوفه من العرب على أن يصف مدن المغرب وإفريقية وصفا مستقيضا، أما ابن خلدون فلا يكاد نص من نصوصه يخلو من وصف سيطرة العرب الهلالية على التلول والضواحي والأرياف، فهذا مما لا يعد ولا يحصى.

1 الإدريسي، القارة، ص ص 111-112.

2 نفسه، ص 135.

الخاتمة

من خلال تتبع الظاهرة الهلالية ومدى تأثيراتها المختلفة في اقتصاد المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، يمكن استخلاص ما يلي:

أنّ الدافع وراء الهجرة الهلالية نحو المغرب كانت اقتصادية بكل معنى الكلمة، فرغم أن السياسات الاقتصادية المنتهجة من قبل الفاطميين ومن بعدهم خلفائهم الزيريين أقلّ ما يقال عنها أنّها أدت إلى إثقال كاهل الساكنة بالضرائب والمكوس، بدوره أدى إلى اشتعال وقيام ثورات وُصفت بالعنف كثورة صاحب الحمار التي كادت في كثير من الأحيان تعصف بالوجود الفاطمي ببلاد المغرب، إلّا أنّه بالمقارنة مع الحالة الاقتصادية لمصر في نفس الفترة كانت أكثر سوءاً، ولهذا رأى الهلاليون في المغرب أرضاً خصبة صالحة لمرعى مواشيهم وإبلهم، وما عبورهم نحو الجانب الغربي للنيل ومنه إلى أرض برقة من إفريقية ومن ثمّ إلى المغرب بتلك الأعداد الهائلة إلّا دليل على فرار تلك القبائل من الضيق الشديد الذي عرفته مصر في تلك الفترة، تمّ جواز الهلاليين وفق ظهير التملّك الممنوح من طرف المستنصر الفاطمي بإيعاز من وزيره اليازوري، الذين رأوا بدورهم أنّ التخلص من القبائل الهلالية يشكّل حلاً جزئياً لأزمته الاقتصادية، ولعلّ مرور الهلاليين بذلك العدد الهائل وكذا تقديمهم عند جوازهم مبلغاً مالياً كضريبة للعبور نحو برقة يعدّ علامة لقبول الهلاليين التوطّن بالمغرب، هذا بعد أن عبر رؤساء القبائل ورؤيتهم لتلك المجالات الواسعة التي تصلح مراعي لمواشيهم كما أسلفنا الذكر، رأى الهلاليون في أرض إفريقية والمغرب إغراء ودافعا مهماً للتضحية وبذل الجهد وتحمل الصعاب بالانتقال الجماعي القبلي، فقد حملوا معهم أموالهم وأبناءهم وزوجاتهم وحتى دوابهم ومواشيهم متيقّنين بأن ما سيلقونه لن يكون أسوأ ممّا تركوه خلفهم.

يبدو أنَّ الدخول الهلالي لمجالات إفريقية 443هـ/1051م وفق ظهور مقدّم من الخلفاء الفاطميين كرّس لوضع جديد ستعرفه المنطقة، فقد حسب هؤلاء العرب أن أراضي المغرب كلّها لهم وجعلوها إقطاعات تمّ اقتسامها بينهم كما وضّح ذلك ابن خلدون، فكثرت قسّمات العرب لأرض إفريقية، وصاحب ذلك ممارسة العرب لأسلوب الحراية الذي بدوره أدّى إلى حيازة القبائل لمجالات واسعة من المغرب وإفريقية، هذا الوضع أدى إلى ظهور العرب في صورة المخربين لعمران ومدن المغرب، وأدى إلى ظهور أنواع وأنماط اقتصادية جديدة مثل: اقتصاد المغازي وكذا ظهور نظام الخفارة التي ابتدعها العرب لتأمين القوافل التجارية وضمان وصولها إلى نقطة انتهائها بسلام، ولعلّ السيطرة الهلالية وتخريب بعض المدن كالقيروان مثلاً أسال لعاب المستشرقين الذين ما فتئوا في انتقاد الوافد الجديد والصاق كل عمليّات التخريب بهم، فكانت أعمالهم الأكاديمية كلّها تنصبّ في محاولة التفريق بين الوافد الجديد والبربر، فظهرت مصطلحات جديدة تنعت العرب بالتخريب، وأُطلق على الهلاليين الأسطورة والكارثة ونقطة انحطاط الحضارة بالغرب الإسلامي، ونحن هنا لا نبرئ العرب من مغبّة الإفساد، ولكن نرى أنَّ هناك عوامل أخرى ساعدت على تسريع خراب مدن المغرب وإفريقية بهذه السرعة، ولعلّ أهمّها سياسات الدول القائمة آنذاك في التعامل مع الظاهرة الهلالية غير مراعين للواقع الذي انطلق منه هؤلاء العرب، فقد انحدر هؤلاء من مناطق أقلّ ما يُقال عنها أنّها جدبة وقاحلة وتتسم بالبداءة القاسية ممّا أثر في نفسية الهلاليين وجعلهم يكوّنون عائقاً في طريق الدول كالدولة العباسية والفاطميين من بعد.

نلاحظ أنَّ مع مرور الوقت تمّ للهلاليين السيطرة الكاملة على إفريقية وخاصة بعد معركة جبل حيدران 443هـ/1051م، وتمّ اكتساح المغرب الأوسط بعد موقعة سببية 457هـ/1065م، حازت خلال ذلك مجال المنطقة ليسهل عليها السيطرة على المناطق الداخليّة والصحراوية، كرّس هذا لوضع آخر تمثّل في هروب صنهاجة وانشائها لمدن وعواصم على الساحل، بدءاً بالمهدية

449هـ/1057م وبجاية 461هـ/1069م، ليتغيّر نمط الاقتصاد من الداخل نحو الساحل وممارسة صنهاجة للملاحة البحرية التي تفوّقت فيها القوى البحرية الأوروبية، ويظهر الضعف الصنهاجي في مصالحه العرب وإعطائهم حقّ التصرف في أراضي البادية التي تعني أراض الفلاحين والصالحة للزراعة، مع احتفاظ صنهاجة بداخل المدن وحوافها، لنلحظ ظهور نمط جديد أو بروزه على الأقلّ من أنماط الأنشطة الزراعية ألا وهو الاهتمام بالزراعات المحدودة والبستنة، وهو ما يُعدّ رضوخا للسيطرة والضغط الهلالي.

ويبدو أنّ هناك عوامل تضافرت لتجعل من صورة الهلاليين بهذه القتامة، فبالإضافة إلى سياسات الدول القائمة في التعامل مع الهلاليين، نجد المشروع الفقهي أيضا يلعب دورا مهما في عدم استقرار الظاهرة الهلالية، هذا الاستقرار الذي من شأنه إعطاء فرص لأفراد القبائل التوجّه نحو ممارسة بعض النشاطات الاقتصادية كالزراعة أو الحرف والصنائع، ونستشف من بعض الفتاوى الخاصة بالفقهاء مدى اعتبار هؤلاء للمحاربين من العرب بمنزلة الرّوم، وهذا ما يعني نبذهم وعدم التعامل معهم ولا البيع ولا الشراء من عندهم، وهو ما لم يتقبّله العرب الهلالية، ورأوا فيه ظلما وصداً لباب التوبة في وجوههم، مما أدّى بالكثير منهم إلى زيادة نشاطهم الحرابي وقطع الطرق وإفساد السابلة، وحتى من كان ليناً في فتاويه جعل شروطا متشدّدة لقبول التائبين في صفوف الهلاليين، فاشترطوا التقلّت من الأموال التي اكتسبها الهلاليون والإبقاء على قوت يوم المحارب فقط، فلم يراعي أولئك المحيط الذي انحدر منه هؤلاء المحاربون وكيفية التعامل مع هذا الواقع، وهو نفس التعامل الذي ظهر من بعض فقهاء الإباضية ولو أنّهم كانوا أقلّ تعاملًا مع العرب، كما اتّسمت تعاملاتهم بمرحلة الكتمان والسريّة التامة نظرا لانحصار مساحة تواجدهم بعد انهيار تيهرت.

ولعلّ فترة حكم الموحّدين بالمغرب وتوحيدهم لأجزائه تحت رايتهم، جعل من العرب الهلالية ينضون تحت طاعة خلفاء الموحّدين، خاصة بعد هزيمتهم الكبيرة بموقعة سطيف 548هـ/1153م وما آل إليه حال العرب بعد ذلك، ومع الحنكة التي أظهرها الموحّدون في التعامل مع الهلاليين من محاولة استلطافهم واحتوائهم ضمن مشاريعهم السياسية والنّفعية، وجد الهلاليون في دولة الموحّدين نوعاً من الاستقرار، فاشتركوا في عمليات الجهاد في أرض الأندلس وكانوا شوكة بغي ضد النصارى نظراً لتضلّعهم في القتال وخبرتهم في ذلك، ونتيجة لذلك فقد جنّدهم الموحّدون ضمن جيوشهم النظامية، كما شكّل اقتصاد المغانم التي مارسه العرب في ازدياد الإيرادات في خزانة الدولة الموحّدية فتحسّنت أحوالها، كما تحسّنت أحوال العرب في المغرب، وما نقله النميري في القرن 7هـ/13م من مظاهر الاستقرار دليل على ذلك، كما استخدم الموحّدون طريقة تفريق القبائل الهلالية عن بعضها، فقد سهّل توطين العديد منها بالمغرب الأقصى والأندلس إلى ضعف عصبية تلك القبائل.

ولكن مع تولّي زمام الحكم من طرف دول (الحفصية - الزيانية - المرينية) وعدم تمكن هذه الدول من إيجاد طريقة تمكّنهم من احتواء الهلاليين، عاد الهلاليون بعد استقرارهم إلى وضع النشاط الحرابي، بل ازداد بعد ذلك ممّا نتج عنه إحداث الفوضى بالمغرب، وما الصورة التي نقلها ابن خلدون عن مغرب القرن 8هـ/14م إلّا دليل على ذلك كما قرّر ذلك عبد الله العروي، وكمثال على ذلك قيام الحملتين العسكريتين المرينيتين العظيمتين بالمغرب لتأديب العرب، فمُحيت صورة الاستقرار الهلالي بالمنطقة وخُربت تلك القصور والرباطات التي ابتناها الهلاليون في لمح من البصر، وخُربت مع ذلك محاولة جادّة من العرب لنبذ الحرابية واللجوء إلى الهدوء والاستقرار، إنّ وصف تلك المناطق التي استقرّ بها العرب كالزّاب مثلاً ينمّ عن ممارسة أفراد القبائل العربية للزراعة وغرس الأشجار والاهتمام بالجانب الجمالي والمساحات الخضراء، وحتى إنتاج المحاصيل

الزراعية، وصف النميري بأنّ المخازن الخاصة بالعرب في تلك المجالات كانت مملوءة بالطعام بل بأنواع الطعام، ممّا يعني عدم حاجة هؤلاء للسرقة أو ممارسة قطع الطريق، كما أن الأمير المريني في تلك الحملة لم يبدأ حملته إلّا بعد أن شاور أهل العلم من الفقهاء الذين أعطوه الضوء الأخضر للفتك باستقرار الهلاليين، وهو ما حصل بتفريق شملهم ونفيهم بالفقر البعيد.

احتدم النقاش بين المؤرخين والمهتمين بتاريخ الظاهرة الهلالية حول تحوّل أنماط الاقتصاد إلى أنماط بدويّة سواء في مجال الزراعة بالتوجّه نحو نشاطات الرعي، أو في مجال الحرف والصنائع، ولعلّ هذا مما أقرناه في هذه الدراسة من أنّ الطبيعة البدويّة للقبائل العربية أثّرت بشكل ظاهر في تلك النشاطات، فامتلاك العرب لقطعان الماشية بهذا العدد الوافر والكبير حثّم عليها البحث عن أراضي جديدة لرعي مواشيها، ممّا يعني احتلال أراضي جديدة قد تكون فلاحية، ونظرا لعدم اضطلاع العرب وتمكّنهم وممارستهم للزراعة فقد رأوا في إطلاق مواشيهم على تلك الأراضي أمراً عادياً، ولعلّ أحد المستشرقين يرى في كسب الهلاليين لتلك المواشي أمراً ساعد في زيادة خصوبة الأرض بإمدادها بالسّماد الطبيعي ممّا يزيد في غنى الأرض من تلك المعادن والأسمدة.

كما أنّ اعتقاد العرب في ملكية الأرض وإقطاع الفاطميين لأرض المغرب لهم، كلّ ذلك جعلهم يتصرّفون بحريّة في تلك الأراضي.

إنّ امتلاك قطعان الماشية من شأنه توفير الصوف والشعر والوبر كمادة أولية بالأسواق، وتدعيما لبعض الأنشطة الحرفية المنتشرة بالمغرب في العصر الوسيط، كما هو الحال لحرفة الحياكة والنسيج والخياطة وغيرها، والتي زاد نشاطها بتوفر تلك المواد الأولية، ولعلّ الفضل يعود للهلاليين في ذلك، فنرى أن تلمسان الزينائيّة قد اشتهرت بملابس الصوف والتي كانت تصدّر إلى

أماكن عديدة من العالم، بل جعل من أبي الحسن المريني يقتني تلك الملابس، فالتقصابات التي بجانب حاضرة تلمسان سكنها الهلاليون ودعموا أسواق تلك المدن بمنتجات المواشي، وهو ما يحمل على القول بأن طبيعة الاقتصاد صُبغت بصبغة بدويّة بحتة، كما اشتهرت حلقات الصوفية باحتواء الهلاليين وتوجيههم نحو ممارسة بعض الحرف اليدوية لكسب الرزق والابتعاد عن حاجة الناس تعقفاً وغنى عن السؤال، ولهذا كانت المدارس الصوفية منذ أبي مدين تحاول إعطاء حلولاً ييسرة لقبول توبة المحاربين الهلاليين، وهو ما عزا بالكثير منهم إلى الاقبال نحو حلقات التصوّف، فقد راعى شيوخ المتصوّفة المحيط الاجتماعي الذي انحدر منه أولئك العرب، ودعى بكثير منهم إلى تسهيل الأحكام كمثّل الوغليسيّة في الفقه.

لعلّ كل أنماط الحياة الاجتماعية التي لامسها الهلاليون وُصفت بالبداءة، فالالاقتصاد كان زراعياً قبل الهلاليين، أمّا بعد هجرة بني هلال فقليل عنه أنّه رعوي بدوي، كذلك بالنسبة لمجال الحرف والصنائع فقد اتّسمت بالبداءة بعد اشتغال الهلاليين بأنواع معيّنة من الحرف، وحتى التصوّف لم يسلم من ذلك، فقد وُصف كذلك بالتصوّف القبلي أو البدوي، فهل لهذا علاقة بجنس معيّن من القبائل، أم أن ذلك مرتبط بظاهرة البداءة كصفة قد يشترك فيها الكثير من الأفراد والجماعات والأفراد؟

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المصادر:

- 1- الأتابكي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992 .
- 2- ابن الأثير، عز الدين: الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987
- 3- الإدريسي، أبو عبد الله الشريف (ت559هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2002، مج 1.
- 4- // // : القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
- 5- الاشبيلي، أبو زكريا يحيى بن العوام: الفلاحة الأندلسية، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، الأردن، ط1، 2012.
- 6- الأعرابي، أبو عبد الله محمد بن زياد: أسماء خيل العرب وفرسانها، شركة نوابغ الفكر للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ط1، 2008.
- 7- الأندلسي، أبو عبد الله محمد بن محمد: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط1، 1287هـ.
- 8- الأنصاري، محمد بن القاسم السبتي: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، الرباط، ط2، 1983.

- 9- الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شهنشاه: مضمار الحقائق وسر الخلائق، عالم الكتب، القاهرة، 1968.
- 10- البادسي، عبد الحق بن إسماعيل: المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ط2، 1993.
- 11- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، ط1، 2002.
- 12- البرزلي، أبو القاسم بن أحمد: فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 2002.
- 13- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي: تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط1، 1987.
- 14- البكري، أبو عبيد: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، 1968.
- 15- البلوي، خالد بن عيسى: التاج المفرق في تحلية علماء المشرق، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ج1.
- 16- البيزق، أبو كر بن علي الصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1971.
- 17- التادلي، الزيات: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 22، ط2، 1997.

- 18- التجاني، عبد الله بن محمد بن أحمد: رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981.
- 19- التليدي، عبد الله بن عبد القادر: المطرف بمشاهير أولياء المغرب، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط4، 2003.
- 20- التميمي، النعمان بن محمد: افتتاح الدعوة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، د.ط، 2005.
- 21- التميمي، النعمان بن محمد: المجالس والمسائرات، دار المنتظر، لبنان، ط1، 1996.
- 22- التنسي، محمد بن عبد الله: تاريخ بني زيان - مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، موخم للنشر، الجزائر، 2011.
- 23- الجزنائي، علي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ط2، 1991.
- 24- ابن حماد، أبو عبد الله محمد بن علي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت.
- 25- الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977.
- 26- الخشني، محمد بن الحارث بن أسد: طبقات علماء إفريقية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1993.
- 27- ابن خلدون، عبد الرحمان: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، د.ط، 1979.

- 28- ابن خلدون، عبد الرحمان: المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
- 29- ابن خلدون، عبد الرحمان: تاريخ الدول الإسلامية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2015.
- 30- ابن خلدون، عبد الرحمان: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1968.
- 31- ابن خلدون، يحيى أبو زكريا: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- 32- ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
- 33- الداعي، ادريس عماد الدين: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من عيون الأخبار، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1985.
- 34- الدباغ، أبو زيد عبد الرحمان بن محمد: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، المكتبة العتيقة بتونس، مكتبة الخانجي بمصر، ط2، 1968.
- 35- الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد: طبقات المشايخ بالمغرب، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1974.
- 36- الذهبي، شمس الدين: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الكتاب العربي، لبنان، ط1، 1993.
- 37- الزرهوني، الكفيف: الملعب، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1987.

- 38- الزهري، محمد بن أبي بكر: كتاب الجغرافية، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، د.ط، د.ت.
- 39- ابن سعيد، أبو الحسن المغربي: بسط الأرض في الطول والعرض، مطبعة كريماديس، تطوان، المغرب، 1958.
- 40- ابن سعيد، أبو الحسن المغربي: كتاب الجغرافيا، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1970.
- 41- السلماني، لسان الدين ابن الخطيب: تاريخ اسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام، دار المكشوف، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
- 42- السلماني، لسان الدين ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.
- 43- السيوطي، جلال الدين: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عين البابي الحلبي وشركاؤه، ط1، 1968.
- 44- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي: تاريخ الملك الظاهر، دار النشر الإسلامية31، بيروت، لبنان، 1983.
- 45- الشماخي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد: كتاب السير، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ط2، 1992.
- 46- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك: المن بالإمامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1987.
- 47- الطرابلسي، ابن غلبون: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

- 48- العبدري، محمد: *الرحلة المغربية*، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ط1، 2007.
- 49- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: *فتح الباري شرح صحيح البخاري*، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1999.
- 50- الغبريني، أبو العباس أحمد: *عنوان الدراية لمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية*، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 1979.
- 51- الغدامسي صولة، الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد: *الحوار الإباضي المالكي*، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ط2، 2014.
- 52- الفاسي، ابن أبي زرع: *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس*، صور للطباعة والوراقة، المغرب، 1972.
- 53- الفاسي، ابن أبي زرع: *الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية*، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1972.
- 54- القسنطيني، أبو العباس أحمد بن القنفذ، *الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية*، الدار التونسية للنشر، 1968.
- 55- القسنطيني، أبو العباس أحمد بن القنفذ: *أنس الفقير وعزّ الحقيير*، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط، المغرب، 1965.
- 56- القلصادي، أبو الحسن علي الأندلسي: *رحلة القلصادي*، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط3، 1978.

- 57- القلقشندي، أبو العباس أحمد: **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، دار الكتب الخديوية، مصر، 1915.
- 58- القلقشندي، أبو العباس أحمد: **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط2، 1980.
- 59- القيرواني، ابن أبي دينار: **المؤنس في أخبار افريقية والأندلس**، مطبعة الدولة التونسية، ط1، 1286هـ.
- 60- القيرواني، ابن رشيق: **ديوان ابن رشيق**، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1989.
- 61- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين: **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، المكتبة التوفيقية، مصر، د.ط، د.ت.
- 62- المالكي، ابن فرحون: **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1996.
- 63- المالكي، أبو الحسن النباهي الأندلسي: **تاريخ قضاة الأندلس المسمّى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، دار الكاتب المصري، القاهرة، ط1، 1948.
- 64- ابن مخلوف، محمد بن محمد: **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، مصر، 1349هـ.
- 65- **مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية**، اعتناء ليفي بروفنصال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، المغرب، 1941.
- 66- مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، 1985.

- 67- مجهول: **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1979.
- 68- المراكشي، ابن عذاري: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1983.
- 69- المراكشي، عبد الواحد: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، د.ط، د.ت.
- 70- ابن مرزوق، أبو عبد الله محمد التلمساني: **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- 71- ابن مرزوق، أبو عبد الله محمد التلمساني: **المناقب المرزوقية**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط1، 2008.
- 72- المقرئ، أحمد بن محمد التلمساني: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، دار صادر، بيروت، لبنان، 1988.
- 73- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي: **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، تحقيق: جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط2، 1996.
- 74- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي: **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 2007.
- 75- ابن الملقن، سراج الدين عمر بن علي: **طبقات الأولياء**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1994.

- 76- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
- 77- ابن ميسر، تاج الدين محمد بن علي: المنتقى من أخبار مصر (انتقاء المقرئ)، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.
- 78- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954.
- 79- النصيبي، ابن حوقل أبو القاسم: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992.
- 80- النميري، ابن الحاج: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990.
- 81- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
- 82- الوزان، الحسن بن محمد: وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1983.
- 83- الوغليسي، عبد الرحمان بن أحمد: المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ط1، 2007.
- 84- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى: المعيار المغرب والجامع المغرب من فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ودار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

85- اليعقوبي، احمد بن أبي يعقوب: البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1،
2002.

المراجع باللغة العربية:

1- أحمد مهدي رزق الله: حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقيا قبل
الاستعمار وآثارها الحضارية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض،
ط1، 1998.

2- باجية، صالح: الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، دار بوسلامة للطباعة
والنشر والتوزيع، تونس، ط1، د.ت.

3- برنيان أندري وآخرون: الجزائر بين الماضي والحاضر، ديوان المطبوعات الجامعية،
الجزائر، د.ط، 1984.

4- البري، عبد الله خورشيد: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة،
الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1992، د.ط.

5- بسدات، نصر الدين: العلاقات السياسية والاقتصادية بين المغربين الأوسط والأدنى من
نهاية القرن الثاني إلى أواسط القرن السادس الهجري، النشر الجامعي الجديد، د.ط،
2017.

6- بكاي، عبد المالك: الحياة الريفية في المغرب الأوسط من القرن 7هـ-10هـ، النشر
الجامعي الجديد، د.ط، 2018.

7- بن عميرة، محمد: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية
للكتاب، الجزائر، 1984.

- 8- بن منصور، عبد الوهاب: قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1968.
- 9- بوتشيش، إبراهيم القادري: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2000.
- 10- بورويبة، رشيد: الدولة الحمادية: تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1977.
- 11- بورويبة، رشيد: سجل ماسة وإقليمها في القرن 8هـ-14م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1997.
- 12- بورويبة، رشيد وآخرون: الجزائر في التاريخ الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، وزارة السياحة والثقافة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- 13- بوسماحة، عبد الحميد: رحلة بني هلال إلى المغرب وخصائصها التاريخية الاجتماعية والاقتصادية، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008.
- 14- بوقاعدة، البشير: الصراع العسكري وخراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى بين 296-547هـ/909-1152م، ميم للنشر، الجزائر، 2015.
- 15- بولبيص، عبد الفتاح رجب حمد: تاريخ برقة في الفترة من القرن 5هـ حتى الربع الأول من القرن 10هـ، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية العظمى، ط1، 2009.
- 16- بونابي، الطاهر: عصر المتصوفة بالمغرب الأوسط، سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، الجزائر، 2017.

- 17- بونابي، الطاهر: مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، الجزائر، 2017.
- 18- التيمومي، الهادي وآخرون: المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي، وزارة الثقافة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، 1999.
- 19- الجابري، محمد عابد: فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1994.
- 20- جدلة، إبراهيم: دراسات حول بعض مدن إفريقية وقبائلها في العصر الوسيط، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2018.
- 21- جسوس، عز الدين: موقف الرعية من السلطة السياسية في المغرب والأندلس في عهد المرابطين، إفريقيا للشرق، المغرب، 2014.
- 22- جغلول، عبد القادر: مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1988.
- 23- جمال الدين، عبد الله محمد: الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن 04هـ مع عناية خاصة بالجيش، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 1991.
- 24- الجيلالي، عبد الرحمان: تاريخ الجزائر العام، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ط2، 1965.
- 25- حاجيات، عبد الحميد: أبو موسى الزياتي حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

- 26- حسن، أحمد عبد الباسط: التاريخ السياسي والحربي لسكان الجزيرة العربية من البدو العرب من ظهورهم في القرن 09 ق.م حتى ظهور الإسلام، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2018.
- 27- حسن، محمد: المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، سلسلة التاريخ 04، 1999.
- 28- حسين، طه: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية - تحليل ونقد - ، سلسلة المئويات، د.ط، د.ت، 2006.
- 29- خالدي، عبد الحميد: الوجود الهلالي السليمي في الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- 30- الدشراوي فرحات: الخلافة الفاطمية بالمغرب (296-365هـ/909-975م) التاريخ السياسي والمؤسسات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1994.
- 31- دغفوس، راضي: دراسات في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2005.
- 32- الراجكوتي، أبو البركات: ابن رشيقي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، مصر، 1343هـ.
- 33- سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، 1999.
- 34- سعد الله، أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1998.

- 35- شرف الدين، لمياء محمد سالم: بعض ملامح الأزمة الاقتصادية في القرن الخامس للإسلام، سلسلة الدراسات التاريخية 31، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 1999.
- 36- شريف، محمد الهادي: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، دار سراس للنشر، تونس، ط3، 1993.
- 37- الشكري، محمد: مملكة غانا وعلاقتها بالحركة المرابطية (هل حقا قام المرابطون بغزو غانة)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس، 1997.
- 38- شواط، الحسين محمد: مدرسة الحديث بالقيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، 1411.
- 39- أبو صوة، محمود أحمد: دراسات في تاريخ البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط، منشورات ELGA، مالطا، 2000.
- 40- ضيف، شوقي: عصر الدول والإمارات (الجزائر-المغرب الأقصى-موريتانيا-السودان)، دار المعارف، القاهرة، ط1، د.ت.
- 41- أبو ضيف، مصطفى أحمد: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية في عصري الموحدين وبني مرين، مطبعة دار النشر المغربية، ط1، 1982.
- 42- العامري، نيللي سلامة: الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني لإفريقية في العهد الحفصي، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2000.
- 43- العربي، إسماعيل: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1983.

- 44- العروي، عبد الله: **مجلد تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، ط2، 2000.
- 45- العلوي، اسماعيلي مولاي عبد الحميد: **تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1985.
- 46- علوي، حسن حافظي: **الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 2011.
- 47- عمارة، علاوة: **دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي**، سلسلة الكتب الأساسية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008.
- 48- عويس، عبد الحليم: **دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري**، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1991.
- 49- فتحة، محمد: **النوازل الفقهية والمجتمع: دراسة في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 06-09هـ / 12-15م**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، جامعة الحسن الثاني، سلسلة الأطروحات والرسائل، 1999.
- 50- الفيلاي، عبد العزيز: **بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2014.
- 51- القبلي، محمد: **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1987.

- 52- القشاط، محمد سعيد: **التوارق عرب الصحراء**، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، القاهرة، ط2، 1989.
- 53- كرفخال، مارمول: **افريقيا، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1984.
- 54- محجوب، محمد عبده، و فاتن محمد شريف: **الثقافة والمجتمع البدوي**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2006.
- 55- محمود، مقديش: **تحفة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988.
- 56- المرزوقي، محمد: **قابس جنة الدنيا**، مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثني بالعراق، د.ط، د.ت.
- 57- المزاري، الاغبان عودة: **طلوع سعد السعود**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990.
- 58- أبو مصطفى، كمال: **جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997.
- 59- المنوني، محمد: **ورقات عن حضارة المرينيين**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 20، جامعة محمد الخامس، المغرب، ط3، 2000.
- 60- موسى، عز الدين أحمد: **الموحدون في الغرب الإسلامي -تنظيماتهم ونظمهم-**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1991.

- 61- موسى، عز الدين أحمد: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط1، 1983.
- 62- موسى، عز الدين أحمد: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط1، 1983.
- 63- مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، القاهرة، مصر، ط5، 2000.
- 64- الملي، مبارك بن محمد: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 2004.
- 65- الميمني، أبو البركات عبد العزيز: النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، مصر، 1443.
- 66- النخيلي، درويش: السفن الإسلامية على حروف المعجم، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، مصر، 1974.
- 67- النفاتي، عادل: المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغرب-حفريات في أدب الرحلة القرن 16م-، إفريقيا الشرق، المغرب، 2015.
- 68- أبو النصر، عمر: تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة، دار عمر أبو النصر وشركاه للطباعة والنشر والتوزيع والصحافة، بيروت، لبنان، ط1، 1971.
- 69- الهنتاتي، نجم الدين: مدينة تونس قبل العهد الحفصي، مجمع الأطرش للكتاب المختص، تونس، ط1، 2019.

المراجع المعربة:

- 1- إدريس، الهادي روجي: الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10م إلى القرن 12م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992.
- 2- برانشفيك، روبر: تاريخ إفريقية في العصر الحفصي من القرن 13م إلى نهاية القرن 15م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988.
- 3- جوليان، شارل أندري: تاريخ افريقيا الشمالية، الدار التونسية للنشر، تونس، تعريب الكتاب عن الطبعة 02، فيفري 1983.
- 4- فاليريان، دومنيك: بجاية ميناء مغاربي، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، د.ط، 2014.
- 5- فيرون، ريمون: الصحراء الكبرى، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، مصر ، 1963.
- 6- لويس، أرشيبالد: القوى البحرية والتجارة في حوض البحر المتوسط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ط، د.ت.
- 7- مارسيه، جورج: بلاد المغرب وعلاقاتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، مطبعة الانتصار لطباعة الأوفست، الإسكندرية، 1991.

المقالات:

- 1- بلحسان محمد، وعبيد بوداود: اللصوصية وأثرها في حركة القوافل بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج 10، العدد 02، ديسمبر 2019.

- 2- بلحسان، محمد: ملكية الأراضي الزراعية وطرائق استثمارها في المغرب الأوسط من خلال كتب النوازل، مجلة كان التاريخية، السنة العاشرة، العدد 35، مارس 2017.
- 3- بلهوارى فاطمة: الضرائب الزراعية في بلاد المغرب خلال القرن 10هـ/10م بين الأنواع والممارسات، المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية، مج1، ع02، ديسمبر 2019، جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان.
- 4- بن بلخير أحمد، بوعقادة عبد القادر: الحملات العسكرية المرينية وأثرها على استقرار عرب بني هلال، المجلة التاريخية الجزائرية، مجلد05، العدد 02، 2021.
- 5- بن بلخير أحمد، بوعقادة عبد القادر: القبائل العربية بالمغرب الإسلامي في القرن 05هـ-11م: التواجد الهلالي بين القطيعة السياسية والأزمة الاقتصادية، مجلة الإحياء، العدد 30، المجلد 22، جانفي 2022.
- 6- بوفلاقة، سعد: بكاء القيروان في الشعر المغربي بعد اجتياحها من قبل الهلاليين، مجلة حوليات، ج01، العدد 27، 2015.
- 7- بولقطيب، الحسين: العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي خلال العصر الوسيط، مجلة أمل، مج 02، العدد 06، 1995.
- 8- الجنحاني، الحبيب: السياسة المالية للدولة الفاطمية في المغرب، مجلة الأصالة، العدد 49-50، أكتوبر 1977.
- 9- حسن، محمد: الفقراء والزوايا بوسط إفريقية من أواسط القرن 06هـ إلى نهاية القرن 08هـ، مقال ضمن كتاب المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي، بيت الحكمة، تونس، 1999.
- 10- الدباغ، محمد عبد العزيز: بنو مرين من خلال رحلة ابن بطوطة، مجلة دعوة الحق، السنة الخامسة، العدد 07، أبريل 1962.

- 11- شخوم، السعدي: موقف فقهاء المالكية من القبائل الهلالية بالمغرب الأوسط، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 05، 2013.
- 12- الشريف، محمد: الهجرات الهلالية من خلال بعض الكتابات الفرنسية المعاصرة، مجلة المغرب والأندلس، جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 01، 2006.
- 13- العربي، إسماعيل: العمران والنشاط الاقتصادي في الجزائر في عصر بني حماد، مجلة الأصالة، العدد 19، مارس-أفريل 1974.
- 14- العربي، إسماعيل: سياسة الناصر بن علناس تجاه بلاط المهدية، مجلة الأصالة، عدد 19، مارس-أفريل 1974.
- 15- الفيلاي، عبد العزيز: قلعة بني حماد الحاضرة الاقتصادية والثقافية للمغرب الأوسط خلال القرن 05هـ-11م، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، مج 04، العدد 07، 2006.
- 16- قويسم، محمد: الزراعة في منطقة الأوراس في العصر الوسيط من خلال كتب الرحلة والجغرافيا، دورية كان التاريخية، السنة السادسة، العدد 21، سبتمبر 2013.
- 17- كرزاز، فوزية: السيطرة الاقتصادية الهلالية في المغرب الإسلامي، دورية كان التاريخية، العدد 12، يونيو 2011.
- 18- كرزاز، فوزية: صور من الواقع الاجتماعي للقبائل الهلالية بالقلعة وأحوازاها، مقال ضمن أعمال الملتقى الدولي حول: مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس 398-1427هـ/1007-2007م، أيام 9-10-11 أفريل 2007، جامعة المسيلة.

- 19- لقبال، موسى: المعز لدين الله وجيل كتامة من خلال وثيقة فاطمية معاصرة، مجلة الأصاله، العدد 29-30، فيفري 1976.
- 20- مجاني، بوبة: أثر الضرائب في ثوابت ومتغيرات سياسة الخلافة الفاطمية في مرحلتها المغربية، مجبة دراسات تاريخية، العدد 67-68، كانون الثاني 1999.
- 21- محمود، خالد عبد البديع رضوان: إمارة بني جامع الهلالية في قابس 489-555هـ: دراسة تحليلية، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، العدد 21، 1441.
- 22- هدوش، صلاح الدين: المدينة ببلاد الزاب من خلال المصادر العربية من القرن 05هـ-08هـ، مجلة علوم الانسان والمجتمع، العدد 14، مارس 2015.
- 23- الهطاي، علي: حركة سعادة الرياحي صاحب طائفة السنية بنواحي بسكرة 703هـ-749هـ دراسة في علاقة الديني بالمجتمع والسلطة في العصر الوسيط، مجلة مدارات تاريخية، مج03، العدد 02، جوان 2021.
- 24- همال، عبد السلام: هجرة قبائل بني هلال وبني سليم إلى المغرب منتصف القرن 05هـ/11م من خلال كتابات بعض مؤرخي المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية 1830-1962م، مقال ضمن أعمال الملتقى الدولي حول: مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس 398-1427هـ/1007-2007م، أيام 9-10-11 أبريل 2007، جامعة المسيلة.

الرسائل الجامعية:

1- بن ساعو، محمد: الحضور الهلالي في المغرب الأوسط وأثره في النشاط الزراعي والحرفي

والتجاري بين القرنين 05-07 هـ-11-13م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم

تخصص تاريخ وسيط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، 2021-2022

2- بن عريب مصطفى: مجتمع المغرب الأوسط: المتغيرات والعلائق من القرن 04 هـ إلى

سقوط الموحدين 668 هـ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم

الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، 2016-2017

3- بودواية، مبخوت: العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في

عهد دولة بني زيان، مذكر لنيل دكتوراه دولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

والعلوم الاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، 2005-2006

4- حسن، عامر أحمد عبد الله: دولة بني مرين: تاريخها وسياساتها اتجاه مملكة غرناطة

الأندلسية والممالك النصرانية في اسبانيا، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية،

نابلس، فلسطين، 2003

5- خلفات، كمال: العلاقات الاقتصادية بين المغرب الأوسط والمغربين الأدنى والأقصى من

القرن 04-07هـ / 10-13 م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه تاريخ الوسيط، كلية

الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2020-2021

6- دحروج، إلهام حسين: مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية (442-

665هـ / 1051-1247م)، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، كلية

الآداب، جامعة القاهرة، مصر، 2000

7- ربحاب، محمد كمال محمد أحمد المغربي، التجارة في عصر بني حماد 408-547هـ/

1017-1152م، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة دمياط، 2015

8- سجينى، فايزة محمد صالح أمين: غزوة بني هلال وبني سليم للمغرب، بحث مقدم لنيل

شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك

عبد العزيز، مكة المكرمة، 1980-1981

9- عيفة، الحاج: علاقات المغرب الإسلامي بمصر خلال القرن 08هـ-العلاقات السياسية

وإسهامات المغاربة في مصر-، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة

الجزائر، 2001-2002

10- غطاس، عائشة: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقارنة

اجتماعية-اقتصادية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه دولة في التاريخ الحديث، كلية العلوم

الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2000-2001

11- قوراري، عيسى: قبيلة حميان من القرن 05-08هـ / 11-14م دراسة تاريخية

وثقافية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم

الثقافة الشعبية، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، 2005-2006،

المراجع باللغة الأجنبية:

1-Andrew Watson: Agricultural Innovation in the Early Islamic World :The Diffusion of crops and Farming Techniques;700-1100, The journal of Economic History, Vol, 34, No 1, The tasks of Economic History(Mar , 1974), p 32-33.

2-Chalandon Ferdinand. Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile, vol2, newyork.S.D.

3– Claude Cahen: Quelques mots sur les Hilaliens et le Nomadism, Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. 11, No. 1 (Mar. 1968).

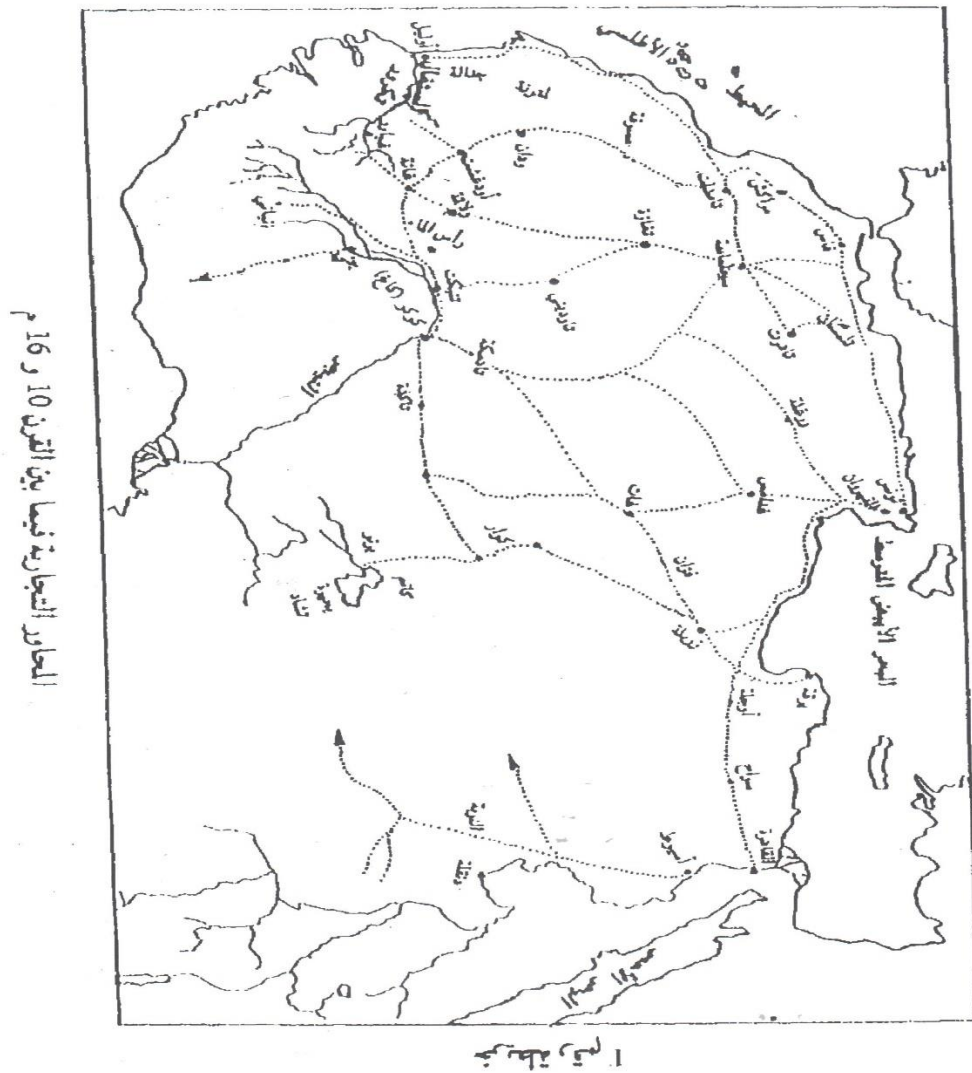
4–Daghfous Radhi. Les Hilaliens et le pouvoir politique en Ifriqiya à la fin du Moyen Age .in: Mélanges de l'école française de Rome. Moyen âge, tome 115, n 1.2003.

5–De mas latrie. Relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations chrétiennes au moyen âge, paris.1886.

6– Idris Hady Roger.l'invasion hilalienne et ses conséquences .in ; Cahiers de civilisation médiévale ,11e année (n 43), juillet–septembre 1968.

الملاحق

الملحق رقم 01: الطرق التجارية بالمغرب الإسلامي بين القرنين 04-10هـ



المرجع: أحمد الشكري، السابق، ص 14.

Abstract:

That topic deals with the Hilalian group and its economic influence in the Islamic Maghreb: the economic side of the Hilalian migration in the middle of the 05 islamic calendar/11christian century by the influence of that migration and the contribution of the Hilalian tribe in the economy of Maghreb, it is noticed that the Hilalian phenomena degraded according to different levels: firstly of exerting AL–Hirabah method (bandits to rob) and possessing the geographical area, through qualitative stability under the rule of Almohads, ending with the return of the Hilalian tribe to the status of AL–Hirabah.

Perhaps, the importance of the topic is in the fact that it is an importance historical stage and era in the Islamic Maghreb, which were prevailed by many controversies especially of French orientalist according to their historical theories, which were for the benefit of the French colonization notably in Algeria.

The Hilalian presence in the Maghreb led to changes in the Maghreb economic system, perhaps the emergence of the so–called AL–GHAFARA system "a strategy to rule and aims to build confidence between the official government and people to stop violence "that these tribes created as a result of possession of the area is considered the most important of them, by the economic Hilalian control over the trade routes, also, Sanhaja directed to the coast and the economy from the interior towards maritime navigation, which led Sanhaja to take care of the affairs of the sea as a result of the Hilalian pressure in the interior regions, and the Maghreb economy was characterized as Bedouins", the Hilalian presence gave economic activities a Bedouin character dure to the nature of those tribes. Noting that the agricultural economy is directed towards grazing activities as Arabs own large cattle herds, As for the craft activities, they

reached the maximum cycle of the Bedouin economy—which is one of the manifestations of the Hilalian presence in Maghreb.

The study revealed on the limit of the strongest effects of the Hilalian tribe in different economic fields, and the importance of theories on Bedouins' case of particularly the Hilalian tribe.

keywords:

The Hilalian, Al-Hirabah, Bedouins, Bedouins' economy, Hilalian stability, Grazing, Craft and Trade.

الفهارس

فهرس القبائل

أ-

الأثنج: 79-80-82-90-134-136-175-214 الأحلاف: 228 أشجع: 224 الأغالبة: 81
أولاد أبي الليل: 102 أولاد جار الله: 229 أولاد حسين: 228 أولاد حصين: 96-175 أولاد
سباع: 121 أولاد سنان: 138-190 أولاد عطية: 135 أولاد مهلهل: 102 أولاد يعقوب بن
موسى: 222

ب-

بنو عريف: 96-97 بنو مادين: 96 بنو خراسان: 114-211 برغواطة: 126
بني حميد بن جارية: 138 بنو الرند: 159 بنو يزيد: 159 بنو جابر: 100 بنو بادين: 176 بنو
لخم: 211 بنو الورد: 211-214 بنو مقدم: 214 بني علي: 214 بنو جامع: 214-215-
216-218-219 بنو زيري: 37-47-55-56-66-74-75-82-91-121-156-185-
196-197-201-204-205-206-211-215 بنو زلدوي: 41 بنو يفرن: 42-43 بنو
ومانو: 42-43-46 بنو يلومي: 42-46 بنو خزر: 43 بنو محمد بن صالح: 43 بنو
يالدسن: 43 بنو كهلان: 44 بنو حمّاد: 46-47-57-58-66-80-81-85-91-121-
156-173-185-188-196-200-201-204-206-208-209-211-212 البتر: 53
البرانس: 53 بنو عامر بن صعصعة: 70 بنو سليم: 70-79-81-106-117-125-130-
149-160-164-167-170-173-176-185-224 بنو قرّة: 78-79 بنو زيان: 93-
94-96-97-98-100-102-108-121-175-230-231 بنو مريّن: 93-97-98-
99-100-102-104-108-121-145-146-147-169-224-231-229
بنو حفص: 93-95-102-106-108-121-137-175-178-213-232 بنو توجين: 93
بنو عامر بن زغبة: 93-94-95-97-100-109-160-239 بنو هلال: 37-38-39-
42-44-46-47-57-58-59-60-61-66-67-68-69-70-71-72-73-74-76-
77-78-79-80-81-82-83-84-85-88-90-92-94-95-99-100-103-108-
111-114-116-121-122-128-129-132-134-135-136-140-151-160-
161-165-166-170-174-175-179-181-182-185-196-197-199-200

240-220-216-212-211

-ت-

تلكاتة:46

-ث-

الثعالبة:107

-ج-

الجشم:134-100-79

-ح-

حصين:97-98-224-234 - حكيم:102 حمير:41

-خ-

الخلط:182-163-135-100-79

-د-

درجين:114 دريد:135-166 دكالة:126- الدواودة:106-107-121-125-149

دياب:79-127-161-240 الديلم:109

-ذ-

ذوي حسان:100 ذوي عبيد الله:93-222-224-226-227 ذوي منصور:227-228

-ر-

رواحة:79 رياح:79-80-82-90-91-97-98-99-100-102-107-109-127-

234-226-214-200-188-180-170-134-131

-ز-

زغبة:79-80-90-96-125-134-159-160-176-200 زكنة:100 زناتة:41-42-

43-45-47-73-80-85-168-176 زواوة:41

-س-

سدويكش: 41 سفيان: 79-100 السلاجقة: 37 سليمان: 231 سويد: 109

-ش-

الشبانات: 100 الشظية: 224 الشعراء: 224

-ص-

صنهاجة: 39-40-42-44-45-46-47-60-66-73-74-80-81-84-85-86-88-
200-198-126-120-92-91-90-89

-ع-

العاصم: 100 عدوان: 70 عدي: 82-91 علاق: 79-107 العمارنة: 96-175
عوف: 79-107-127-240

-غ-

غشمان: 40 غمارة: 161 غمرة: 79

-ف-

فزارة: 224

-ق-

القرامطة: 67

-ك-

كتامة: 40-41-49-74-80 كرفة: 135-163-175 الكعوب: 79-102-107-113-
185-125

-ل-

لهيصة: 40 لواتة: 44

-م-

المحاميد: 164-171 مرداس: 79-107-125-171-178-240 مسراتة: 44
 المعقل: 79-80-94-96-97-99-100-107-126-163-223-224-227-228-244
 مغراوة: 42-93 المنبات: 96-97-175-224-227 منداس: 96 الموحدون: 100-105-
 107-122-124-125-126-130-131-132-133-134-135-136-141-147-
 151-165-169-174-178-184-199-211-212-224

-ن-

ناصره: 79 النورمان: 37-91-132-182-196-200-203

-ه-

الهكسوس: 163 هواره: 44-45-85-161 هيب: 79 هيت: 180-188

-و-

ولهاصة: 161 ورفجومة: 161

فهرس الأعلام

-أ-

ابن أبي الرجال: 76 ابن أبي عمارة الدعي: 106 ابن الجلاب: 96-238 ابن الزحامس: 129
 ابن المفرج: 197 ابن تاشفين: 139 ابن حسون: 96-238 ابن حمديس: 215-217 ابن
 رشيق: 112-198 ابن عرفة: 109-110-115 ابن عمران القاضي: 130 ابن غازي: 100
 ابن غانية: 134-182-185-190 ابن مجالد: 197 ابن مزني: 148-150-229 ابن
 ملحان: 169 ابن هود: 135 ابن واقريط: 135 أبو إسحاق إبراهيم بن علي: 237 أبو إسحاق
 إبراهيم بن علي: 94 أبو إسحاق التسولي: 121-142-148-150 أبو إسحاق بن أبي
 زكرياء: 106-175 أبو الحسن المريني: 94-99-100-101-102-103-105-146-
 161-176-190-220-228-229-233 أبو الحسن علي بن عثمان: 113 أبو العباس
 أحمد بن أبي سالم: 99 أبو العباس أخ أبو عبيد الله الشيعي: 40 أبو العباس المريض: 109 أبو
 الفضل محمد بن علي بن طاهر: 131 أبو القاسم بن محمد بن المهدي: 53-179 أبو المهدي
 سيدي عيسى بن أحمد: 109 أبو تاشفين عبد الرحمان: 98-228 أبو ثابت: 99-100 أبو
 جوال: 40 أبو جيدة بن أحمد اليزغتني: 173 أبو حفص المستنصر الحفصي: 106-107-175
 أبو حمو موسى الثاني: 96-97-98-100-109-159-175-190-228-234 أبو دبوس: 105
 أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد: 145 أبو ركة: 78 أبو زكريا يحيى الحفصي: 106-107
 أبو زيان: 98 أبو سعيد عثمان: 97-98 أبو طالب بن محمد بن أبي مدين: 229 أبو عبد الله
 الأكبر: 95 أبو عبد الله الزبيدي: 142 أبو عبد الله الشيعي: 40-49 أبو عبد الله المازري: 182
 أبو عبد الله المدخس: 96-238 أبو عبد الله بن البلد: 95 أبو علي بن أبي سعيد: 100 أبو
 عنان المريني: 99-101-102-105-111-143-144-169-176-178-180-190-
 220-221-233-234 أبو عيسى العموري: 139 أبو محمد عبد الله بن بختي الزواوي: 113
 أبو مدين شعيب: 137-139-140 أبو هادي مصباح بن سعيد الصنهاجي: 140 أبو يحيى
 زكرياء اليراسني: 114 أبو يزيد مخلص: 40-42-44-53-54-55 أبو يعقوب يوسف: 134
 أبو يوسف الدهماني: 137-140-149 أبوبكر بن عبد الحق: 99 أحمد بن العابد: 170
 ألفونسو: 132

-ب-

بلكين بن زيري: 42-44-45-54-55-85 بنو اللجام: 96-238 بونياس المملوك الرومي: 46

-ت-

تميم بن المعز: 90-200-204-205-206

-ح-

حباس بن الرومية: 129 حسان بن النعمان: 68 الحسن بن مسرة: 173 حضيبة: 148 حماد بن بلكين: 58-200 حمو بن ومليل: 90 حُميد بن جارية: 147

-د-

ديفل بن ميمون: 129

-ر-

رافع بن مكي: 215-218 الرشيد الموحد: 135-182 رشيد بن كامل: 216-217-218 روجار: 130-203

-ز-

زيري بن مناد: 45

-س-

سعيد بن موسى بن أحمد الرياحي: 104-145 السيوري: 113 سهيل بن عيسى: 138 سعادة الرياحي: 121-122-142-147-150-151-221 سعيد بن خزون: 56 سليمان بن ناجي: 228 سلام بن فرحان: 216

-ص-

صاحب الحمار: 48-51-52

-ط-

طاهر المزوغي: 140

-ع-

عامر بن أبي يحيى بن محيا: 121-142-149-150-151 عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان: 212 عبد الحق بن محيو: 98 عبد الحليم الميرني: 230 عبد العزيز الميرني: 100 عبد الله الكاتب: 197 عبد الله بن محمد الكاتب: 55 عبد المؤمن بن علي: 105-129-130-131-132-133-134-151-174-184-211-212-213 عبيد الله المهدي: 40-49-50-51-55-181 العبيدلي: 137 عثمان بن علي بن أحمد الرياحي: 104-145 عريف بن يحيى بن عثمان السويدي: 99 العزيز الحمادي: 210 عطاء الله بن عزاز: 167 علي بن غانم: 228 علي بن محمد المراكشي: 141 علي بن يحيى بن تميم الحمادي: 215-216 عيسى بن سلامة البسكري: 192

-ف-

فتح بن يحيى: 40 فضل بن أبي يزيد بن مخلد: 45 الفضل بن علي: 107

-ق-

قاسم بن مرا بن أحمد: 149 قراقوش الغزي: 185

-ك-

الكاينة: 68 كيداد: 53

-م-

المازري: 113 محمد بن البعيع: 200-206 محمد بن الخير الزناتي: 43 محمد بن الدنيدون: 170 محمد بن سعدون: 82-111-112 محمد بن شرف: 82-112-198 محمد بن عبد المؤمن بن علي: 129 محمد بن قلاوون: 233 مسعود البلطي: 131 المعز بن باديس: 38-47-56-71-76-77-78-80-81-82-83-84-88-89-91-109-112-186-197-198-204-217-221 المعز لدين الله الفاطمي: 41-44-54-74-85 المقتفي لأمر الله: 216 منسا سليمان: 229-230-233 المنصور الفاطمي: 42-45-51-53-197 المنصور الموحيدي: 125-134-135-184 المنصور بن أبي عامر: 43-172-205 المنصور بن بلكين: 56-74-173-209 مؤنس بن يحيى الرياحي: 82-109-173

-ن-

الناصر بن علناس: 46-82-84-91-196-200-204-205-206-212 الناصر بن

قلاوون: 103-161

- ه -

هداج: 113

- ي -

يعقوب بن عبد الحق المريني: 93 يوسف بن علي بن غانم: 99 يعقوب بن علي
الرياحي: 146-180 يوسف الكوراني: 121-142-149 خلف بن خلف: 115 يوسف بن
سدميمان: 114 يوسف بن حماد: 58 يحيى بن العزيز: 58 اليازوري: 72-75-76-77-
78-160 يغمراسن: 94 يوسف بن محمد الثائر: 98 يحيى بن المعز: 146-224
يوسف بن عبد الله الكاتب: 197 يحيى بن العزيز: 210 يحيى بن تميم: 215